أردنا بمناسبة اليوبيل الذهبي لإنشاء المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، وبعد خمسين عاما من الجهد الأمل الرامي إلى الحفاظ على واحد من أهم عمده ، مجلته الغراء ، تكريم هؤلاء الذين حولوا هذا الحلم الواعد إلى واقع ملموس.

وإيمانا منا بالدور الذي قامت وتقوم به مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية باعتبارها نقطة وصل وتواصل بين المشتغلين بالدراسات العربية من الإسبان والإسبانية من العرب ، نرى أنه بات علينا أن نستغل معطيات عصر التكنولوجيا لتخليد شهادات وأبحاث ثقاة الفكر والقلم من العرب والإسبان المدونة على ما يربو على ثلاثين ألف صفحة في ثلاثين مجلدا ، تراث ثرى غائر الأعماق من الإبداع والدرس والبحث في ثمار واحدة من أهم الحضارات التي ورثتها البشرية: الحضارة الإسبانية العربية ...

إن هذا القرص، الذي تحمله بين يديك أيها القارئ الكريم، الذي يضم في ثنايا موجاته المغناطيسية كنزا تراكم على مر خمسين عاما، يرنو إلى أن يكون احتفاء بالمستقبل وبالأجيال الجديدة التي تواصل مهمة إثراء هذا الكنز المعرفي الذي نهديه لك ولأنفسنا ولكل المعنيين بالتراث العربي الأندلسي في هذا القرص الصغير في حجمه الكبير في معناه.

ولنا اغتنام هذه المناسبة لنعرب عن عميق امتناننا، وجزيل شكرنا لكل من شاركنا وأسهم في هذا الجهد طوال السنوات الماضية .

أ.د محمود السيد على

المستشار الثقافي لجمهورية مصر العربية

مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية

- مدريد في الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٩

جمهورية مصر العربيــة — وزارة التعليم العالى — الإدارة العامة للتمثيل الثقـــافى

مَجلة المَعهَدِ المَصْرِيّ

لِلدّراسَاتِ الإسلَامِيّةِ فِي مَدرِيدَ



المجلد الحادى والعشرون — مدريد ١٩٨١ — ١٩٨٢

جمهورية مصر العربيـة — وزارة التعليم العالى — الإدارة العامة للتمثيل الثقـافى

مجلة المعهد المصري

للدراسات الإسلامية في مدريد

يصدرها المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد
رئيس التحرير : مدير المعهد

المجلد الحادى والعشرون — مدريد ١٩٨١ — ١٩٨٢

العنوان : Francisco de Asís Méndez Casariego, 1. — Madrid - 2 - (España)

فهرس القسم العربي

طبعت بمطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد
١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يشرفنى أن أقدم هذا العدد الواحد والعشرين من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو عدد مهدى إلى روح فقيد الدراسات الأندلسية العالم الكبير المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهوانى (١٩١٥ — ١٩٨٠) تحية تقدير لدوره الرائد فى تأسيس هذا المعهد ، وتكوين مدرسة البحوث الأندلسية فى المشرق العربى ، وتوجيه شباب الدارسين فى المشرق والمغرب إلى العناية العلمية بهذا التراث الحضارى الزاخر ، ببعثه وإحيائه وإنماء ما فيه من عناصر إيجابية ، واتخاذ موقف نقدى منه ، يفرض التعرف الكامل على جميع مكوناته ، ويستحضر معالم الحياة الواقعية التى أفرزته ، والمرحلة التاريخية التى تمخضت عنه ، ثم يلتقط ما فيه من ملامح إنسانية خالدة ، وقيم فنية وعلمية أصيلة ، ويركز عليها الضوء ، فإذا بحث الماضى تعميق للوعى بالحاضر ، ومعرفة التراث شرط لبناء المستقبل ، وإذا التخصص فى مجال الأندلسيات أو غيرها من جوانب الحضارة العربية الإسلامية مدخل علمى رصين لتحمل مسئولية قومية معاصرة ، على مستوى فكرى رفيع .

وقد كان الدكتور الأهوانى نموذجا للعالم الشامل ، تحسبه قد استغرق فى حياة الأقدمين واستنفذ طاقته فى صحبتهم ، واستجلاء عوالمهم ، وفك رموز لغتهم العلمية وإشاراتهم الثقافية ، وإعادة تكوين صورتهم التى تضج بالحياة

والحركة ، وإذا به يفجأ قارئه أو جليسه بلفتة ساخنة تنفذ إلى قلب الحاضر وتمسك بعروقه ، وعندئذ يتضح أنه لم يهرب من الإنسان إلى الكتاب ، ولم يستغن عن اليوم بالأمس ، ولم يدخر جهداً في تأصيل ما يرسخه من قيم خلقية وعلمية لدى من يلوذ به ؛ خاصة من الشباب الذى كان يرى فيه الأب الروحى الحقيقى ، والملجأ الآمن الرشيد الذى يحتمى به من هجير مجتمعاتنا الطاردة . فقد كان صاحب مدرسة ورسالة ، عالماً ومعلماً ، رجل فكر وحياة معاً .

وبنفس القدر والهم الذى تؤرقه به جملة لغوية متأبية ، أو تفعيلة عروضية شاردة ، أو رقعة خطية مفقودة ، نجده بالغ القلق على مناضل عربي طريد ، أو باحث علمى حائر ، أو مسئول كبير لا يقدر خطورة المواقف المصيرية الجادة ، وتجده بالغ الحساسية لما ترف له قلوب الأجيال الجديدة ، وتعنى به من قضايا ومشاكل ، فلم يصب بما يدرك الشيوخ عادة من صمم عقلى ، لا تغنى عنه الآذان المشرئبة ، وتحجر فكرى لا تجدى معه التطلعات المتوفزة ، بل ظل فتى الروح والقلب ، أعظم من الشباب قدرة على الحوار ، ورغبة فى التعلم ، وجلدا على الجدل ، وإدراكا عميقاً لطبيعة الحداثة ومقتضيات التجديد .

ولعل فى بعض مواد هذا العدد التى خصصت للحديث عن شخصه وعلمه من الباحثين الاسبان والعرب ، ممن عرفوه عن كثب ، وكتبوا عنه بمودة وحب خالص ، زهرات تفوح بعاطر ذكره ، وتؤدى بعض حقه على مريديه وأحبابه ورفاقه ، أما من أهدوا له بحوثهم وقدموا لتكريمه أعمالهم ، فلهم منا موفور الشكر والثناء ، على إسهامهم الطيب ووفائهم النبيل .

وإذا كانت صفحات هذا المجلد قد ضاقت عن استيعاب بعض البحوث الأخرى التى يتوقع أصحابها أن يروها مطبوعة فيه ، واقتضت ضرورة المسارعة فى إصداره إرجاءها إلى العدد القادم بمشيئة الله ، فإننا نرجوا أن يلتمسوا لنا العذر ، ويظلوا معنا على صادق العهد ، ونأمل أن نتمكن فى المستقبل القريب من ابتعاث الطابع الحولى المجلة ، بعد تحديث معدات الطباعة فى المعهد ،

وتنفيذ برنامجه الطموح فى النشر ، وعندئذ نتمنى أن تشهد هذه المجلة تطوراً لا يمس صبغتها العلمية المتخصصة ، ولا يخرج على منهجها العريق ، ولا تقاليدها المستقرة ، بل يستجيب لما تقتضيه ظروف البحث من متابعة لأهم الجهود العلمية فى الوطن العربى وأوساط المستعربين ، بتخصيص أعداد تتوفر على استقصاء جوانب الدراسات المستحدثة فى كل فرع من فروع العلوم الأندلسية ، تصبح مرجعا لها وعلامة عليها .

على أن يتم ذلك فى نطاق الإطار العلمى الذى عرفت به المجلة ، والذى ضمن لها لونا من الاستمرار والاستقرار ؛ بالرغم من العوامل المتغيرة التى كان يمكن أن تهددها ، وحسبها أنها توشك أن تكون المجلة العلمية الوحيدة التى يتداولها فى معظم الأحيان رئيس تحرير جديد ، كل عدد أو عددين على أحسن تقدير ، دون أن يصيبها ذلك بخلل ولا شلل ، ودون أن يؤثر ذلك على نجاحها ، فهى تستمد ثباتها من رسوخ رسالتها ، ووضوح نهجها ، وصلابة البنية العلمية وقوة الالتزام القومى الناضج للبلد الذى يغذيها ؛ هذا البلد الأمين على تراث العروبة والإسلام ، الذى أنجب عبد العزيز الأهوانى وغيره من الأعلام وبناة النهضة العربية ، والذى يضطلع بمسئولياته القومية والعالمية ، مهما كلفته من تضحيات فى مختلف العصور .

ولا يسعنا فى النهاية إلا أن نتقدم بأجمل الشكر لكل من تعاون معنا فى هذا العدد التذكارى ، ونجدد الدعوة صادقين لجميع الباحثين فى الحضارة العربية والإسلامية — خاصة فى الأندلس — للمساهمة فى الأعداد القادمة .

والله ولى التوفيق ؟

دكتور صلاح فضل

رئيس التحرير ومدير المعهد المصرى

للدراسات الإسلامية بمدريد

الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة

لابن سماك العاملى

أبى القاسم محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك المالقى الغرناطى
(النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى)

(بقية ما نشر فى العدد السابق)

الزهرة الخامسة والثلاثون :

[٦ ب] قيل لبعضِ الأمراء إنَّ شبيبَ بن شَيْبَة(١) يستعملُ الكلام ويستدْعِيه ولو أمَرْتَه أن يَصْعَدَ المِنْبَرَ فُجَاءَةً لافتضح . فأمر رَسُولاً فأخَذَ بيده فصَعِد المنبرَ ، فحمدَ الله وأثنى عليه وصلَّى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال(٢) : لأميرِ المؤمنين أشباهٌ أربعةٌ(٣) : الأسَدُ الخادِر ، والبحرُ الزاخِرُ ، والقمر الباهر ، والربيع الناضرُ(٤) ؛ فأما الأسد الخادرُ فأشبَه صولَتَه ومضاءه ، وأما البحر الزاخر فأشبهَ جُوده وعطاءه ، وأما القمر الباهر فأشبه نُورَه وضِياءه ، وأما الربيع الناضر فأشْبَه حُسْنَه وبَهاءه .

الزهرة السادسة والثلاثون :

كتب عليُّ بن عِيسى بن ماهَان(٥) إلى الرشيد يسعى بيحيى بن خالد بن

---

(١) أبو معمر شبيب بن شيبة المنقرى البصرى قدم بغداد أيام أبى جعفر المنصور فاتصل به وابنه الخليفة المهدى وكان أثيراً لديهما ، وتوفى سنة ١٦٢ (٧٧٩) وكان من أكابر الخطباء ، ترجم له الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (رقم ٤٨٣٦ — ٩ / ٢٧٤ — ٢٧٨) وأورد الجاحظ وابن عبد ربه كثيراً من أخباره وخطبه وأجوبته فى البيان والتبيين والعقد الفريد (انظر فهرسى هذين الكتابين) .

(٢) يبدو لنا أن هذه الخطبة منتحلة مصنوعة ، فأسلوبها الذى يثقله السجع المتكلف والصنعة المفرطة لا يتفق مع ما أثر عن خطب شبيب بن شيبة . هذا وإن كان الخبر المذكور هنا قد ورد أيضاً فى العقد الفريد لابن عبد ربه (١٣٦/٤) وكذلك فى نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى (١٨٠/٣)

(٣) فى ا : إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة : فنها .

(٤) فى ا : الناظر .

(٥) على بن عيسى بن ماهان من كبار رجال الدولة منذ أيام الخليفة الهادى ، فقد ولاه ديوان الجند ، ثم ولاه الرشيد على خراسان ، ثم قلده فارس ، وكان ممن حرض الرشيد على الإيقاع بالبرامكة =

برمك وابنيه الفضلِ وجعفر ، وكانت تحتَهُ أُخْتُهُمَا ، فرَمَى الرشيد بالكتاب إلى جعفر ، وقال : أجِبْهُ . فكتب على ظهره[(١)] : « حَفِظَكَ اللهُ يا أخي وحَبَّبَ إليك الوفاء فقد أَبْغَضْتَه ، وبغَّضَ إليك [الغَدْرَ][(٢)] فقد أَحْبَبْتَه ، إنَّ حُسْنَ الظنِّ بالأيام داعِيةُ الغِيَر ، وماحِيةُ الأثَر ، والله المستعانُ ، وعليه التُّكلان » .

الزهرة السابعة والثلاثون :

قال أبو العَبَّاسِ أحمدُ بن أبي خالدٍ[(٣)] وزيرُ المأمونِ يوماً لثُمَامة بن أشْرَسَ[(٤)] وقد انحرفَ عنه : يا ثمامة ، كلُّ أحدٍ في الدارِ فله عندي معنًى

= على الرغم من صهره إليهم ، وقام بعد ذلك بأمر الأمين الذي عقد له على كور الجبال ، وكان ممن حملوا الأمين على خلع أخيه المأمون ، وأخرجه الأمين لقتال طاهر بن الحسين في الحرب الأهلية الدائرة بين الأخوين فقتل سنة ١٩٥ (٨١١) . انظر في أخباره الجهشياري : الوزراء والكتاب في مواضع متفرقة ، وخصوصاً ص ٢٥٢ — ٢٥٤ و ٢٩٠ — ٢٩٤ ، وانظر في خبر مصرعه الطبري : تاريخ ٧ / ١ — ٢٢

(١) أورد الجهشياري (الوزراء والكتاب ص ٢٠٥) توقيعاً لجعفر بن يحيي على كتاب لعلي بن عيسى المذكور شديد الشبه بالتوقيع الوارد هنا ، يقول فيه : « حبب إلينا الوفاء الذي أبغضته ، وبغض الغدر الذي أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غدراتها ووقعاتها عيانا وإخباراً . والسلام » .

(٢) « الغدر » ساقطة من ب .

(٣) أبو العباس أحمد بن أبي خالد المعروف بالأحول كان كاتباً للحسن بن سهل وزير المأمون ، ثم رفعه المأمون إلى وزارته . وتوفي سنة ٢١٠ (٨٢٥) . انظر في ترجمته الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٨٣ — ١٨٧ ، وابن الأبار : إعتاب الكتاب ، تحقيق الدكتور صالح الأشتر ، ط. دمشق ١٩٦١ ، ص ١٠٩ — ١١٣ ؛ ودائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٩١ — ١٩٢

(٤) أبو معن ثمامة بن أشرس النميري كان من زعماء المعتزلة في أيام المأمون والمعتصم والواثق ، وقتل في عهد هذا الأخير (بين سنتي ٢٢٧ و ٢٣٢) . انظر في ترجمته الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، رقم ٣٦٠١ (٧/١٤٥ — ١٤٨) ، ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، حيدراباد ١٣٣٠ ، ٢ / ٨٤ ؛ والعقد الفريد في مواضع كثيرة ؛ ومن المراجع الحديثة : أحمد أمين : ضحى الاسلام ٣ / ١٤٩ — ١٥٥

غيرَكَ ! فقال [131] له ثمامة : معناىَ فى الدار بَيِّنٌ واضحٌ . قال : وما هُوَ ؟ قال : لأُشَاوِرَ فى أمرِكَ هل تصلُحُ لموضِعِكَ أمْ لا ، وأرجُو ألاَّ أكونَ أخطأْتُ فيكَ . فأُفْحِمَ ولم يَرُدَّ جواباً (١) .

الزهرة الثامنة والثلاثون :

كان سليمانُ بن عبد الملك بن مَرْوَانَ أيام أبيه وأخيه يكتب إلى الحجَّاجِ [١٧] بن يوسف فى عنايةٍ أو حاجَةٍ داعيةٍ ، فلا يلتفتُ إلى كتابه ، ولا يعتذرُ إليه بجوابِه ، إذ كان عظيمَ الهمَّةِ قوىَّ النفسِ ، لا يَهابُ بشراً صغيراً ولا كبيراً سوى من أمَّره . فأَحْفَظَ سليمانَ وأجَّج غيظه ، فكتب إليه (٢) : « من سليمانَ بنِ عبد الملك إلى الحجاج المُعَلِّمِ (٣) ؛ أما بعد ؛ فإنك عبدٌ أفسدتكَ النِّعمةُ ، وجَرَّأَكَ الحلم ، مهتوكٌ عندك حجابُ الحقِّ ، مستخِفٌّ بأوامرِ الله عز وجل ، مُباعِدٌ لرضاه ، متقرِّبٌ بسُخْطِه ، مُتَّبِعٌ لهواكَ . وأَيْمُ الله لا بُدَّ لك من صَيْحَةٍ مُرْدِيَةٍ تحلُّ بك ويسوء صباحُك ، ثم يكونُ مصيرُك فى الآخرةِ سُوءَ المصيرِ » .

فراجَعَهُ الحجَّاجُ : « أما بعدُ ؛ فقد وَصَل كتابُ الأمير بهتْفِ (٤) صبِىٍّ حدثِ السنِّ قليــل التثبُّتِ ، ولعمرى لقد عَذَرْتُكَ فى سوء أدبك لفسادِ

---

(١) جاء الخبر الوارد هنا بين أحمد بن أبى خالد الوزير وثمامة بن أشرس فى أخبار بغداد لابن أبى الطاهر طيفور ص ٢٢٨ .

(٢) أورد ابن عبد ربه فى ثنايا حديثه عن الحجاج رسالتين متبادلتين بين سليمان بن عبد الملك وبينه تشبهان الرسالتين الواردتين هنا وإن اختلف نصاهما . انظر العقد الفريد ٥ / ٤١ — ٤٣

(٣) ذكر مترجمو الحجاج أنه كان معلم صبيان بالطائف ، وكذلك كان أبوه ، وبهذه المهنة هجاه مالك بن الريب التميمى فى أبيات معروفة (انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ١٣/٥)

(٤) غير واضحة فى الأصلين ، ولعلها كما أثبتنا والهتف هو الصوت الجافى العالى .

عقلك ، وحملتُكَ لأنَّا كلّنا خَوَلُ أمير المؤمنين ، فكتبْتَ والسلطان يملى عليك ، والعزة بين عينيك ، ولطالما ذَلَّلْتُ لكمُ الصِّعابَ ، وأخضعت لكم الرقابَ ، والسلام » .

الزهرة التاسعة والثلاثون :

كان الناسُ إذا أصبحوا فى زمنِ الحجّاجِ بن يوسُف فتلاقوا يتساءلون : مَن قُتلَ البارحة ؟ ومن صُلِبَ ؟ ومن جُلد ؟ ومن قُطع ؟ . . . فى أمثال ذلك ؛ وكانوا فى زمن الوليد بن عبد الملك يتساءلون عن البُنْيَانِ ، واتخاذ المصانِع ، وشقِّ الأنهارِ ، وغرسِ الأشجار ؛ وكانوا في زمن سليمان بن عبد الملك يتحدثون فى الأطعمة الطّيّبة ، والملابس الرفيعة ، ويتوسّعون فى الأنكِحَة واتخاذ [132] السَّرارِيِّ ، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك[١] ؛ وكانوا فى زمن عمرَ بن عبد العزيز يتساءلون : كم تحفظ من القرآن ؟ وكم وِرْدُكَ فى كل ليلة ؟ ومتى تختِمُ ؟ وكم تصومُ من الشهر ؟ . . . فى أمثال ذلك ، [٧ ب] بحَسْبِ الأزمان واختلاف السِّيَر ومألوفِ العوائدِ .

الزهرة الأربعون :

أُتِيَ الخليفةُ أبو جعفر المنصورُ بعبدِ الحميدِ بن يحيى الكاتِبِ الشهيرِ كاتب بنى أمية ، وبِسَلاَّمٍ الحادى ، وبالبَعْلَبَكىِّ المؤذِّن[٢] ، فأمر بقتلهم ؛ فقال

---

(١) فى ا : بذلك .

(٢) يذكر الجهشيارى أن أبا جعفر المنصور كثيراً ما كان يقول بعد إفضاء الأمر إلى بنى العباس : غلبنـا بنو مروان بثلاثة أشياء : بالحجاج وبعبد الحميد بن يحيى الكاتب والمؤذن البعلبكى . (انظر الوزراء والكتاب ص ٨١) .

له سلام : استبْقِني يا أمير المؤمنين ، فإنِّى حَسَنُ الحُدَاء . قال : وما بَلَغَ من حُدَائِك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، تأمُرُ بإبِلٍ ، فتُظمأ ثلاثةَ أيامٍ ، ثم تورَدُ على الماء ، فإذا بَدأتْ[١] تشرب رفعتُ صوْتى بالحداء فترفع رؤوسها وتدع الشربَ حتى أسكتَ ! فأمر المنصور بإبل فعُطِّشت ثلاثاً ، ثم أُورِدت الماءَ[٢] ، فلما بدأت تشربُ رفع صوته بالحداء ، فامتنعت من الشرب حتى سكت ؛ فاستبقاه وأجازَه وأجرى عليه رزقَه .

ثم قال له البعلبكيُّ : استبقنى يا أمير المؤمنين . قال : وما عندك ؟ قال : أنا مؤذن . قال : وما بلغ من أذانك ؟ قال : تأمر جارية فتقدم إليك طستاً وبيدها إبريق ، فتصب على يدك الماء ، وأبتدىء بالأذان[٣] ، فتدهَش ويذهب عقلها حتى يسقط الإبريق من يدها وهى لا تعلم . فأمر عند ذلك جارية فأخذت إبريقاً وطستاً وجعلت تصب الماء على يده ، ورفع البعلبكى صوته بالأذان ، فبقيت شاخصة مستمعة صوته ناسية لما بيدها[٤] ؛ فوقع الإبريق على الطست من يدها ، فأمرها بالانصراف واستبقاه وأجازه .

وأما الكاتب عبد الحميد[٥] فاستبقاه ووصله لفصاحة لسانه وشهرته [133] فى الكتابة وتبريزه فى صناعتها[٦] .

---

(١) فى الأصلين : بدت .
(٢) فى ا : أوردت على الماء .
(٣) فى ا : الأذان .
(٤) فى ا : بين يديها .
(٥) عن عبد الحميد بن يحي الكاتب انظر الفصل الذى كتبه عنه الدكتور شوقى ضيف فى تاريخ الأدب العربى ، العصر الاسلامى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٦٣ ص ٤٧٣ والمراجع المذكورة فى الحاشية .
(٦) ما يذكره صاحب الزهرات هنا من استبقاء أبى جعفر المنصور لعبد الحميد الكاتب وصلته له يخالف ما اتفق عليه المؤرخون من أنه قتل على عهد أبى العباس السفاح بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بقليل . ويذكر الجهشيارى فى صفة مصرعه أن عامر بن اسماعيل السلمى الذى قتل مروان بن محمد ظفر به فحمله إلى السفاح وسلمه هذا إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن فكان يحمى =

الزهرة الحادية والأربعون :

كان مَعْنُ بن زائدة[١] قد أمر بقتــل جماعةٍ من الأسارَى ، فقام إليه أصغر القوم ، فقال له : أيها الأمير ، أتقتلُ القومَ عِطاشاً ؟ فأمر لهم بالماء . فلما سُقُوا قال : أتقتلُ أضيافكَ ؟ فأمر[٢] بإطلاقهم[٣] .

الزهرة الثانية والأربعون :

سِيقَ إلى الحجَّاج قومٌ من الخوارج ، فأمر بضرب أعناقهم ، حتى انتهى القتل فيهم إلى شاب منهم ، فقال له : والله يا حَجَّاج ، لإن كنَّا أسأنا فى الذنب فما أحسنتَ أنتَ فى العفوِ ، فصادفَ كلامُه منه أرْيَحِيَّةً ، فقال : أفٍّ لهذه الجِيَف ! أما كان فيهم من يقول مثــل هذا ؟ وأمر بتخلية سبيله وسبيل من بقى[٤] .

= طستا ويضعه على رأسه فلم يزل يفعل به ذلك حتى قتله (انظر الوزراء والكتاب ص ٧٩) . ولو كان ما ذكره صاحب الزهرات صحيحا لما فات ابن الأبار أن يذكره فى كتاب « إعتاب الكتاب » الذى اختص به موضوع من أذنب من الكتاب ثم لحقته مغفرة مولاه أو مليكه ورضاه .

(١) أبو الوليد معن بن زائدة الشيبانى أحد الفرسان الأجواد ، من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية وكان من خواص أصحاب أبى جعفر المنصور ، ولاه اليمن وأذربيجان ، وتوفى قتيلا سنة ١٥٢ (٧٦٩) وهو وال على سجستان . انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ، رقم ٧٢٠٤ (١٣/٢٣٥ — ٢٤٤) . وفى العقد الفريد مجموعة كبيرة من أخباره فى مواضع متفرقة .

(٢) ينقطع النص بعد هذه الكلمة فى نسخة ب ويلى ذلك خرم طويل ذهبت فيه الزهرات (٤٢ — ٧٤) ، وهكذا سيكون اعتمادنا فى هذا الجزء من الكتاب على الأصل ا وحده . على أننا لاحظنا أن المقرى نقل فى كتابه نفح الطيب الزهرات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ فاتخذنا منه فى تلك الزهرات أصلا ثانيا .

(٣) أتى بهذا الخبر ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١ / ١٢٥) وإن كانت ألفاظه تختلف قليلا عما ورد هنا .

(٤) فى عيون الأخبار لابن قتيبة (١/١٠٣) خبر قريب من هذا وإن اختلفت ألفاظه قليلا .

الزهرة الثالثة والأربعون :

ثار على الخليفة عبد الرحمن بن معاوية الداخل للأندلس ثائر ببعض بلاده ، فغزاه ، فظفر به وأسره ، فبينما هو منصرف به وقد حُمِل على بغلٍ نظر إليه عبد الرحمن وتحته فرس له ، فقال : يا بغلُ ، ماذا تحمل من الشِّقاق والنفاقِ ؟ قال الثائر : يا فرس ، ماذا تحمل من العفو والرحمة ؟ فقال له عبد الرحمن : والله ما تذوق موتاً على يدىَّ أبداً . وسرحه [١] .

الزهرة الرابعة والأربعون :

كان [٢] بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر فتًى من أهل الأدب ، قد رقَّتْ حالُه فى الطلب ، فتعلق بكُتّاب العَمَل ، واختلف إلى الخزانة مدة ، حتى قُلِّد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيراً من المال ، فلما ضُمَّ إلى الحساب أُبرز عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور ، فأمر بإحضاره ، [134] فلما مثل بين يديه ، ولزم الإقرار بما برز عليه ، قال له : يا فاسق ، ما الذى جَرَّأَكَ على مال السلطانِ تنتهبُه ؟ فقال : قضاء غلب الرأىَ ، وفقر أفسد الأمانة . فقال المنصور : والله لأجعلنَّكَ نكالاً لغيرك . ليُحْضَرْ كَبْلٌ وحَدَّادٌ . فأُحضرا ، فكُبِّل الفتى وقال : احملوهُ إلى السِّجن . وأمر الضاغط [٣] بامتحانِه والشِّدَّة عليه . فلما قام أنشأ يقول : [من السريع]

---

(١) ورد مثل هذا الخبر فى البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ٢/٥٩ ، وإن اختلفت ألفاظه بعض الشىء .

(٢) ورد نص هذه الزهرة فى نفح الطيب للمقرى ٤١٨/١

(٣) فى النفح : الضابط ، وهو تحريف عما أثبتنا ، ووردت الكلمة صحيحة فى ا ، وكانت «الضاغط» فى الاصطلاح الأندلسى هو المكلف بتعذيب الجناة أو المحبوسين ونحن نعرف من هؤلاء الضاغطين بالذات واحداً كان فى خدمة المنصور بن أبى عامر يدعى واثقاً ، وهو الذى كلفه المنصور بصب عذابه وتنكيله على جعفر بن عثمان المصحفى (انظر ابن خاقان : مطمح الأنفس ص ٧) .

أَوَّاهُ أَوَّاهُ وكم[١] ذا أرى أُكْثِرُ من تَذْكارِ أَوَّاهِ
ما لامرئٍ حولٌ ولا قُوَّةٌ الحـــولُ والقــوةُ لِلّٰهِ

فقال المنصور : رُدُّوه . فلما رُدَّ قال : أتمثَّلْتَ[٢] أم قلتَ ؟ قال : بل[٣] قلتُ . فقال : حُلُّوا عنه كَبْلَه . فلما حُل عنه أنشأ يقول : [من السريع]

أما ترى عَفْـوَ أبى عامرٍ لابـــد أن تتبعَهُ مِنَّهْ
كذلكَ اللهُ إذا ما عفَـا عن عبدِهِ أدْخَلَهُ الجنَّهْ[٤]

فأمر بإطلاقه ، وسوَّغه ذلك المالَ ، وأبرأه من التبِعةِ فيه .

الزهرة الخامسة والأربعون :

عُرِضَ[٥] على المنصورِ بْنِ أبى عامرٍ اسمُ أحدِ خدَّامِه فى جملة من طالَ سَجْنُه ، وكان شديدَ الحقدِ عليه ، فوقَّع على اسمه بأنْ لا سبيلَ إلى إطلاقه حتى يَلْحَقَ بأُمِّه الهاويةِ ، وعَرف الرجل بتوقيعه ، فاغْتَمَّ ، وأجْهد نفسه فى الدُّعاء والمناجاة . فأَرِقَ المنصورُ بن أبى عامرٍ على أثَرِ ذلك ، واسْتَدعى النومَ ، فلم يقدِرْ عليه . وكان يأتيه عند تهويمه[٦] آتٍ كَرِيهُ الشخصِ عنيفُ الأخْذِ ، يأمره بإطلاقِ الرجلِ ، ويتوعَّدُهُ على حَبْسِه . فاستدفع شأنه مِراراً ، إلى أن

(١) فى الأصل ا : كم ، والتصويب عن النفح .
(٢) فى الأصل : أعللت ، والصواب ما ورد فى النفح .
(٣) فى الأصل : بلى ، والتصويب عن النفح .
(٤) يروى ابن بسام فى الذخيرة هذين البيتين لأبى مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى (مع خلاف طفيف فى الرواية ، فقد جاء الشطر الأول من البيت الأول هكذا : «عجبت من عفو أبى عامر») ، وذلك بعد أن صفح عنه المنصور بعد سجنه فى مطبق الزاهرة (انظر الذخيرة ق ٤ - ١/٣٢ . وانظر كذلك ابن سعيد : المغرب ١/٣٢١ ؛ والمقرى : نفح الطيب ٤/٦٦) .
(٥) ورد نص هذه الزهرة أيضاً عن المقرى : نفح ١/٤١٩
(٦) فى النفح «تنويمه» ، وهو تحريف عما أثبتنا ، ووردت الكلمة صحيحة فى ا ، والتهويم هو النوم الخفيف أو أول النوم قبل الاستغراق فيه .

عَلِم أنه نذيرٌ من ربِّه ، فانقادَ لأمره ، ودعا بالدواةِ في مَرْقَدِهِ . فكَتَبَ بإطلاقه ، وقال في كتابه : هذا طَليقُ اللهِ على رَغْمِ أنفِ ابن أبي عامرٍ . وتحدَّث الناسُ زماناً بما كانَ منه .

[135] الزهرة السادسة والأربعون :

لما أُمِرَ[(١)] بضَمِّ الوزير جعفر بن عثمانَ المُصْحَفِيِّ إلى الثِّقافِ بمِطْبَقِ الزهراء وَدَّعَ أهلَه ووَلَدَهُ وداعَ الفُرْقَةِ ، وقال : لَسْتم تَرَوْني بَعدها حيّاً ، فقد أَنَى وَقتُ إجابة الدَّعوَةِ ، وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة ، وذلك أَنِّي أشرفت على فلانٍ ، رجلٍ سُجن بعهد الناصر ، وما أطلقته إلا برؤيا أُنْذِرْتُ بها : قيلَ لي «أَطْلِقْ فلاناً فقد أُجِيبَتْ فيكَ دعوتُه» ، فأطلقته وأحضرته وسألته ، فقال : نعم ، دَعَوْتُ على مَن شاركَ في أمري أن يُميتَـه الله في أَضْيَقِ السجونِ . فعلمتُ أنها قد أُجيبَتْ . ونَدِمْتُ بحيثُ لا تُغني النَّدامة . وأطلقتُ الرجلَ .

قالوا : فما لَبِثَ في مَحبِسِهِ إلا قليلاً ، وأُخْرِجَ مَيِّتاً ، فسُلِّمَ إلى أَهْلِهِ .

الزهرة السابعة والأربعون :

لما[(٢)] أَوْقَعَ[(٣)] المأمونُ بالفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ[(٤)] وبَلَغَهُ أنَّ الناسَ يُنْكِرون

---

(١) ورد نص هذه الزهره بألفاظ قريبة مما وردت به هنا في نفح الطيب (١/٦٠١) ولكن المقري يذكر أنه نقل النص عن كتاب «روضة الأزهار وبهجة النفوس ونزهة الأبصار» لمؤلف لم يفصح عن اسمه ، ووردت القصة أيضاً في الذخيرة لابن بسام ق ٤ — ١/٥٠

(٢) بهذا النص وردت الزهرة السابعة والأربعون في الأصل ا ، غير أن المقري ساق في كتابه نفح الطيب لهذه الزهرة نصا آخر مختلفا عما ورد هنا كل الاختلاف بعد أن نصت إحدى مخطوطات النفح على أنها الزهرة السابعة والأربعون ، ولكن يبدو أن ذلك كان من أخطاء الناسخ أوقعه=

عليه قال : من يَعْذِرُنا(١) من العامّةِ ؟ نختصُّ خديمـاً ، ونوسِعُ عليه ، ونُفَوِّضُ إليه ، فيخوننا ويسعَى على مُلْكِنا ، ويَسْفِرُ فى هُلْكِنا ، مُنكراً لإحساننا ، عند رَدِّه عن حاجةٍ قد قُضِىَ له ألفٌ منها ، ومَنْعِهِ رُتْبَةَ الصلاح له فى تركها ، فيَغيبُ عنهم ذَنْبُه ، وتنكشفُ لهم عقوبتُه ، فيقولون عنّا : لَيْسُوا بِذَوى(٢) وفاءٍ ! وقد جَهِلوا مقدارَ الابتلاءِ .

الزهرة الثامنة والأربعون :

اِنْتَهَتْ(٣) هَيْبَةُ المنصور بن أبى عامر وضبطُه للجند واستخدامُ(٤) ذكورِ الرجالِ وقوّام الملكِ إلى غايةٍ لم يؤتَها مَلكٌ قبله(٥) ، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلاً فى الزَّماتة والإطراق(٦) حتى إن الخيلَ لتمتثل(٧) إطراق فرسانها ، فلا تُكْثِرُ الصهيلَ والحَمْحَمَةَ .

= فيه أن القصة متصلة بمقتطفات من كتابنا هذا ، فلعله ظن أنها بدورها إحدى الزهرات المأخوذة عنه . ومع ذلك فسنورد نص هذه الزهرة نقلا عن نفح الطيب (١/٤٢٠) :

«حكى غير واحد أن المنصور كان به داء فى رجله ، واحتاج إلى الكى ، فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر وينهى ويفرى الفرى فى أموره ، ورجله تكوى ، والناس لا يشعرون ، حتى شموا رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك ، وهو غير مكترث» . ونص هذا الخبر قريب جداً مما نقله ابن عذارى فى البيان المغرب (٢/٣٠٠ — ٣٠١) عن ابن حيان ، وإن كان نص ابن حيان أكثر تفصيلا وأدق فى تحديد ظروف هذا الخبر ومكانه .

(٣) فى الأصل : وقع ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٤) الفضل بن سهل السرخسى أسلم على يد المأمون ثم وزر له فاستولى على أمور الدولة حتى ضاق به المأمون فأوقع به ودبر مقتله سنة ٢٠٢ (وفيات الأعيان رقم ٥٢٩ — ٤ / ٤١ — ٤٤) .

(١) فى الأصل : تعذرنا .

(٢) فى الأصل : بذى .

(٣) ورد نص هذه الزهرة فى نفح الطيب ٤١٩/١ منقولة عن هذا الكتاب وبنفس رقمها المثبت وإن كانت قد وردت فى بعض أصول النفح المخطوطة برقم الزهرة السادسة والأربعين .

(٤) فى الأصل : وهم ، وقد تبعنا قراءة النفح .

(٥) فى النفح : لم يصلها ملك من قبله .

(٦) فى النفح : مثلا فى الإطراق . وفى الأصل زيادة بيان ، وإن كان لفظ «الزماتة» قد جاء فى المخطوطة «الزمانة» ، والصواب ما أثبتنا . والزماتة الصمت والسكون .

(٧) فى النفح : لتتمثل ، وما ورد فى الأصل أصوب .

ولقد وَقعتْ عينُه على بارِقَةِ [136] سيفٍ قد سَلَّهُ بعض الجندِ بأقصى الميدان لهزلٍ أو جِدّ بحيث ظنَّ أن لَحْظَ المنصورِ لا يناله . فقال : عَلَىَّ بشاهر السيف . فمثل بين يديه لوقته . فقال : ما حملك على أن شهرتَ سيفَكَ فى مكانٍ لا يشهر فيه إلا عن إذنٍ ؟ فقال : إنى أشرتُ به إلى[١] صاحبى مُغمداً ، فاندلق[٢] من غِمْدِهِ . فقال : إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى . وأمر به فضربت عنقه بسيفه ، وطِيفَ برأسه ونودِىَ عليه بذنبه .

الزهرة التاسعة والأربعون :

قيـلَ للأحنفِ[٣] ممن تعلمتَ الحلم ؟ فقال : من قَيْسِ بن عاصم[٤] . كنت عنده ذات يوم جالساً ، فجِئَ برجلٍ مكتوفٍ وآخر مقتول . فقيل : هذا ابنكَ ، قتله هذا . فقـال : حُلُّوا كُتافَ هذا وسَرِّحوه ، ووَارُوا هذا واحملوا إلى أُمه دِيَته فإنها فيكم غريبة[٥] .

---

(١) فى الأصل : على ، وآثرنا هنا ما ورد فى النفح .

(٢) فى النفح : فزلق .

(٣) أبو بحر الأحنف بن قيس السعدى التميمى ، أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولكنـه لم يجتمع به . ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى البصرة ، كان ممن اعتزل وقعة الجمل بعد فتنـة عثمان ثم شهد صفين مع الإمام على ، وسكن البصرة وكان سيد بنى تميم بها وتوفى فى ولاية مصعب بن الزبير سنة ٦٧ . انظر ترجمته فى الإصابة لابن حجر ١/١٨٧ — ١٨٩

(٤) أبو على قيس بن عاصم المنقرى التميمى ، صحابى وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فى وفد بنى تميم فأسلم وسماه الرسول سيد أهل الوبر وكان عاقلا حليما ، وكان ممن حرم الخمر فى الجاهلية ، روى عن النبى أحاديث ونزل البصرة ومات بها ورثاه عبدة بن الطبيب بقصيدة مشهورة . ترجم له ابن عبد البر فى الاستيعاب ، رقم ١٢٩٤ ؛ وابن الأثير فى أسد الغـابة ٤/٢١٩ ؛ وابن حجر فى الإصابة ، رقم ٧١٩٩ — ٥/٤٨٣ — ٤٨٦ .

(٥) الخبر الوارد هنا يبدو منقولا عن الاستيعاب لابن عبد البر (الموضع المذكور فى الحاشية السابقة) وقد نقله ابن حجر أيضاً فى الإصابة ٥/٤٨٤

الزهرة الخمسون :

صنع كسرى طعاماً فى سِماطٍ له ، فلما فرغوا ورُفعتِ الآلاتُ وقعت عينُه على رجلٍ من الحاضرين قد أخذ جاماً له قيمة كبيرة ، فجعل الخدمُ يرفعون الآلات ، فلم يجدوا الجامَ ، فسمعهم كِسْرَى يتكلمون ، فقال : ما لكم ؟ فقالوا : فقدنا جاماً من الجامات . فقال : لا عليكم ، أخذه من لا يرده ، ورآه من لا يفضحه .

فلما كان بعد أيام دخل عليه الرجل وعليه حِليَة جميلة ، وحالة مستحسنة . فقال له كسرى : هذا من ذاكَ ؟ قال : نعم . ولم يقل له شيئاً .

الزهرة الحادية والخمسون :

أُحضر يوماً بين يدى الخليفة محمد بن عبد الرحمن مالٌ كثير أتاه من بعض [137] النواحى جلس لإيعائه فى بِدَرِه ، وقد أمر خدمه الصقالبة بتولِّى ذلك ، ونضده بين يديه ، إلى أن يأمر برفعه إلى بيت المال ، فأخذوا فى ذلك على عيْنه ، واعترته خلاله سنةً غضَّ لها من طرفه ، خالها بعضهم نعاساً ، فمدَّ يده إلى بدرة من ذلك المال اختلسها على حين غفلةٍ من أصحابه ، فصيَّرها فى حِضنِه ، والأمير ينظر إليه .

فلما أكملوا نضد البدَرِ أمرهم بإعادة عدِّها ، فأصابوها تنقص تلك البدرة المختلَسة ، فترامَوا بسرقِها ، واشتد بينهم التنازع فيها . فلما أكثروا قال لهم الأمير : حسبكُم ، كُفُّوا عن ذكرها ، فقد أخذها من لا يردها ، ورآه من لا يفضحه . فإياه وإياكم من العَوْدِ لمثلها ، فإن كبير الذنب يهجم على استنفاد العفو . ارْفعوا المالَ ، وأَقِلوا المقالَ .

فاشتَدَّ عَجَبُ مَنْ سَمِعَ بهِ من سعةِ كرمِهِ وشدَّةِ حيائه[١] .

الزهرة الثانية والخمسون :

قال أبو الحسن بنُ سعيدٍ العنسيُّ[٢] : كنت أترَدَّدُ إلى مجلس جمال الدِّين بن يغمورَ[٣] ، وهو نائبُ السلطنة بالشام ، وكان يقومُ لى كلما دخلتُ عليه . فدخلت يوماً ، فإذا به مضطجعٌ لم يَقُمْ ، وأخذ فيما كان يأخذ فيه . فلما دخلت عليه فى اليوم الثانى قام ثم جلس ، ثم قام ثم جلس ، وقال : هذه الأخيرة هى قومةُ أمس كانت عَلَيَّ دَيْنــاً ، منعنى عن القيام لك عُذْرٌ تتفضل بقبوله دون مُطالبةٍ بذِكره . فتعجبتُ من فضله وقلتُ : ما صار لهذا الرجلِ ما صارَ من باطل .

---

(١) القصة المنسوبة هنا إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن أوردها ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام الشبينى (المقتبس ، بتحقيقنا ص ٩٠ — ٩١) إلا أنه ينسبها إلى عبد الرحمن بن الحكم الأوسط . وقد وردت كذلك فى أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ وابن سعيد : المغرب ١/٤٦ ؛ وابن عذارى : البيان المغرب ٢/٩٢

(٢) فى الأصل الحنسى ، وهو خطــأ صوابه ما أثبتنا ، والمقصود هو على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد اليحصبى (ولد سنة ٦١٠ وتوفى سنة ٦٨٥) ونسبه ينتهى إلى الصحــابى المعروف عمار بن ياسر من بنى عنس بن مذحج (ومن هنا كان انتسابه عنسيا) ، وهو المؤلف المشهور صاحب كتاب المغرب فى حلى المغرب وغيره من الكتب وترجمته وأخباره كثيرة فى كتب الأدب الأندلسى ، راجع تقديم أستاذنا الدكتور شوقى ضيف لكتــاب المغرب . وقد ترجم له المقرى فى النفح ترجمة طويلة موعبة (٢/٢٦٢ — ٢٩٠) .

(٣) جمال الدين موسى بن يغمور ، ولد سنة ٥٩٩ فى قرية من أعمــال قوص بصعيد مصر ، وتنقــل فى الولايات الجليلة فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد الأيوبى ، فولى نيابة السلطنة بمصر سنة ٦٣٨ ، ثم نيـابة دمشق سنة ٦٤٧ ، وكان الملك الظاهر أيضاً يستشيره ويأخذ برأيه . وتوفى سنة ٦٦٣ . وابن يغمور هذا هو الذى اتصل به ابن سعيد حينما نزل مصر ، وهو الذى أهدى إليه كتابه «رايات المبرزين وغايات المميزين» (انظر كتاب الرايات ص ٣١ — ٣٢) .

الزهرة الثالثة والخمسون :

جلس الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر يوماً فى قصر الزهْرَاء مع خواصِّ [138] وزرائِه للمشورة مجلساً طويلاً غشيته الشمس فيه . فقال : الصوابُ أن يُتَحَوَّلَ إلى الظل ، وقام ناهضاً يريد مجلساً آخر . فابتدروا القيام خلفه حُفاةً قد أعرضوا عن خفافهم . فحانت منه التفاتة ، فنظر إلى احتفائهم وقال : ما بالكم احتفَيْتم ؟ فقالوا : بِداراً لأمرِك يامولانا ، وتناغياً فى لحاقك . فقال : إذا كان كذلك لا يصلحُ إلا مساواتكم . ثم نبذ الخفَّ من رجله وتحفَّى ماشياً . فأعظموا ما كان منه ، واستحنفروا فى شكره والثناء على فضله رحمه الله .

الزهرة الرابعة والخمسون :

قال خَلَفُ بن حيَّان والد الإمام البليغ أبى مروان (١) :

بَكَّتَنِي (٢) المنصور محمد بن أبى عامرٍ على بعض ما أبصَرَه منى تبكيتاً بَدَا له منى بسببه فزعٌ منه ، وهيبةٌ لسلطانه . فلما أخْلَى مجلسه قال لى : رأيتُ من فزعِك وشدة رَوْعِك ما استنكرته منك . ومن وثق بالله برىء من الحولِ والقوة لله . وإنما أنا آلة من آلاتِ اللهِ تعالى ، أتصرَّفُ بمشيئته ، وأسطو بقدرته ، وأعفو عن إذنه ، ولا أملك لنفسى إلا ما أملكه لى (٣) .

---

(١) راوى هذا الخبر هو المؤرخ الأندلسى المشهور أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبى (عاش بين ٣٧٧ و ٤٦٩) ، وقد فصلنا الحديث عن حياته ونشاطه الفكرى فى تقديمنا لقطعة من كتابه المقتبس . أما والده خلف بن حسين بن حيان (عاش بين سنتى ٣٤٠ و ٤٢٧) فقد كان كاتبا للمنصور بن أبى عامر ، وقد فصلنا الحديث عنه أيضاً فى تقديمنا لكتاب المقتبس (ص ٨ — ١٩)

(٢) ورد هذا الخبر بألفاظه تقريباً فى إعتاب الكتاب لابن الأبار ، بتحقيق صالح الأشتر ، دمشق ١٩٦١ — ص ١٩٨

(٣) كذا في الأصل ، والصواب ما ورد فى إعتاب الكتاب : إلا ما أملكه من نفسى لسواى .

فأزلْ عنك رَوْعك ، فإنما أنا ابنُ امرأةٍ من تميم طالما تقوّتت بثمنِ غَزْلِها ، ثم جاء من الله تعالى ما تراه . ثم قال : يا بن حيّان . إن أفضلَ الناسِ غِراساً من غرس الخير . وإن أفضل السلطان غِراساً ما أثمر فى الآخرة ، ومن أنا عند الله تعالى لولا عَطفى على المستضعفِ المظلوم ، وقَصْمِى للجبّارِ الغشوم اللاهى عن حقوقِ رَبِّه ، بفسوقه ودنَسِه .

الزهرة الخامسة والخمسون :

أمَر مُصْعَبُ بن الزبير برجلٍ من أصحاب المختار أن تُضْرَبَ عُنقه ، فقال : يا أيها الأمير ، ما أقْبَحَ بك أن أقومَ يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة [139] ووجهك هذا الذى يستضاء به ، فأتعلق بأطرافكَ وأقولَ : يارَبِّ ، سَلْ هذا فيم قتلنى ؟ فقال : أطلقوه ! قال : أيها الأمير ، اجعل ما وَهَبْتَ لى من الحياة فى خَفْضٍ من العيش . قال : أعطوه مائة ألفٍ(١) .

الزهرة السادسة والخمسون :

وقفَ رجلٌ من بنى أميّة للرشيدِ على طريقه ، وبيده بطاقة فيها مكتوبٌ هذه الأبياتُ :　　[من الرمل]

يا أمينَ اللهِ إنِّى قائــــلٌ　　قولَ صِدْقٍ ولُبٍّ وحَسَبْ (٢)
لكُمُ الفَضْــلُ علينا ولنــا　　بكمُ الفضلُ على كلِّ العَرَبْ

---

(١) ورد هذا الخبر وما فيه من حوار بين مصعب بن الزبير وهذا الرجل من أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى فى عيون الأخبار لابن قتيبة بمزيد من التفصيل (١٠٣/١) .
(٢) كذا ورد الشطر الثانى ، وهو لا يتزن ، ولابد أن لفظا سقط منه .

عَبْدُ شمس كان يتلو هاشماً وهما بَعْــــدُ لأم ولأبْ
فَصِلِ الأرحامَ منا إنمــا عبد شمس عَمُّ عبد المطلب

فاستحسنها الرشيدُ وأمر له لكل بيتٍ بألف دينارٍ وقال : لو زِدْتَنا لزدناك .

الزهرة السابعة والخمسون :

تصدَّى [١] للخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بنِ محمد يوماً فى بعض مخارجِه من القصر بالزهراء فى موكبٍ له رجلٌ معتوهٌ ، تكمن [٢] له فى بعض جنباتِ طريقهِ ، فثار فى وجهه ، وصاح عليه صياحاً منكراً ، وهرولَ نحوَه ، ومد يده إلى شكائم عنانه ، يريد القبض عليها . فنفر الفرس الذى كان تحته ، وأقعى على مؤخره ، فكاد يلقى عنه الخليفة لولا جَوْدَةُ استمساكه على سرجه ، فابتدر المعتوهَ أكابرُ [فتيانه] [٣] الصقالبة الحافُّونَ به يحسبونه خارجياً قصده ، فخبطوه بأسيافهم ، ووخزوه بأسِنَّتهم ، فقتلوه ، والناصر مشتغلٌ بِدَهشتِه . فلما عاينَ إسراعهم وعُرِّفَ بآفَته وحُمْقِهِ ساءهُ شديداً ، وأنْساهُ دهشه ، وسَبَّ [٤] الخصيان وأغلظ لهم وهم بهم ، [140] وأمر بالسؤال عن أولياء هذا المقتول ، فَوَداه لهم ، وتعهدهم بالإحسان حياته .

الزهرة الثامنة والخمسون :

قال ابراهيم بن الحسن بن سهل :

---

(١) أورد ابن حيان خبر هذا المعتوه ومحاولته اغتيال الناصر نقلا عن الحسن بن محمد بن مفرج القبشى فى كتابه عن الخلفاء (المقتبس ، مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط ص ٢٢ — ٢٣) ويكاد النص يكون نقلا حرفيا عن هذا الكتاب .

(٢) فى الأصل : تمكن ، والتصويب عن المقتبس لابن حيان (الموضع الذى أسلفنا الإشارة إليه)

(٣) زيادة عن المقتبس .

(٤) فى الأصل : وشب ، والصواب ما أثبتنا .

كنّا فى مجلس المأمون ، وعَمرو بن مسعَدَة (١) يقرأُ عليه الرِّقاع ، فجاءته عَطْسَةٌ ، فَلَوى عُنقه فردَّها ، فرآه المأمون ، فقال : يا عمرو ، لا تفعل ، فإن رد العطسة وتحويل الوجه يورث انقطاعاً فى العنقِ . وكان بعض أولاد المهدىِّ حاضراً ، فقال : ما أحْسنها من مولى لعبيده ، وإمام لرعيَّتِه . فقال المأمون : وما فى ذلك ؟ هذا هشام بن عبد الملك اضطربت عمامته ، فأهوى الأبرش (٢) إلى إصلاحها . فقال هشامٌ : إنا لا نتخذ الإخوانَ خَوَلاً (٣) . فالذى فعل هشام أحسن من الذى فعلته . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، إن هشاماً يتكلَّفُ ما طُبعتَ عليه ، ويظلمُ فيما تعدِلُ فيه ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قيامك بحق الله . وإنكَ والملوكَ لكما قال النابغة : [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أعطاكَ سَوْرَةً ترى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يَتَذَبْذَبُ
لأنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

الزهرة التاسعة والخمسون :

ذُكر أن حفيدَ المعتمد بن عبَّاد حضر فى وليمةٍ بمدينة مراكش فى دولة المرابطين ، فلما دخل المجلسَ وَجده قد غصَّ بأهله ، فجلس فى أدنى المجلس ،

(١) عمرو بن مسعدة الكاتب أحد وزراء المأمون كاتب بليغ مشهور . توفى سنة ٢١٥ أو ٢١٧ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، رقم ٥٠٧ — ٣ / ٤٧٥ — ٤٧٨

(٢) الأبرش هو سعيد بن الوليد الكلبى ، وهو من ولد عمرو بن جبلة الذى وفد على النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وكان حاجبا لهشام بن عبد الملك ومن جلسائه الملازمين له . انظر الإصابة لابن حجر ٦١٣/٤ ، وعيون الأخبار ٢٦٦/١ ، ١٠٠/٤ ، والأمالى لأبى على القالى ٣٧/٢ . وقد كان الابرش ذرية فى الأندلس منهم خلف بن سعيد الكلبى القرطبى المعروف بابن المرابط والمتوفى نحو سنة ٤٠٠ (الصلة لابن بشكوال رقم ٣٦١) .

(٣) ورد خبر قيام الأبرش لاصلاح عمامة هشام بن عبد الملك وعبارة هذا له فى عيون الأخبار ٢٦٦/١ .

فأشار إليه من عرف منزلته (١) ، فقعد وأنشد مرتجلاً (٢) : [من الكامل]

نحنُ الأهِلّةُ فى ظلام الحِنْدِسِ حيثُ احتلَلْنَا ثم صَدْرُ المجلسِ
إنّ عاقنا صَرْفُ الزمانِ بجَوْرِهِ ظلماً فلم يذهبْ بعِزِّ الأنفسِ

الزهرة الستون :

[141] لما غزا الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمدٍ أوَّلَ غزواته المؤذِنة بسَعْدِهِ إلى أهل الخلافِ عليه بكورَتَىْ إلبيرةَ وجَيَّان وما والاهما من حصون البُشَارَّاتِ (٣) وغيرها انتهت فتوحه إلى ما يجاوز ثلاثمائة حصنٍ ، كل حصن منها عالى الاسم بعيد الصِّيتِ ، مَلْجَأً لذوى الخلاف والمعصية . وكان فتحاً لم يُسْمَع بمثله لملكٍ من ملوك الأرض قضاه فى غزوةٍ واحدةٍ فى سالف الأزمنة (٤) .

---

(١) فى الأصل بعد هذه العبارة : «فقال لا» ، إلا أن الناسخ ضرب على الكلمتين خطا إشارة إلى حذفهما .

(٢) نسب ابن الأبار هذين البيتين لأبى الحسن على بن عمر بن محمد بن مشرف بن أضحى الهمدانى (عاش بين سنتى ٤٩٢ و ٥٤٠) . وروايته للشطر الأول من البيت الثانى « إن يبخل الزمن الخؤون بعزنا » ثم يعلق عليه قائلا : « لو قال « يذهب » مكان « يبخل » لكان أجود » (الحلة السيراء ٢/٢١٦) ، وورد البيتان بهذه الرواية كما صححها ابن الأبار فى المغرب لابن سعيد (٢/١٠٨) وفى رايات المبرزين (ص ٥٣ من طبعة غرسية غومس وص ٨٤ من طبعة الدكتور النعمان القاضى) . ويظهر أن حفيد المعتمد بن عباد المذكور قد تمثل بهذين البيتين ، فابن سعيد ينص فى الموضع المشار إليه من رايات المبرزين على أنه أثبتهما «لحسن منزعهما واشتهارهما شرقا وغربا » .

(٣) فى الأصل : البشارت ، والصواب ما أثبتنا ، والمقصود سلسلة الجبال التى تسمى اليوم Alpujarras وتكتب بالعربية أيضاً « البشرات » (انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، ١/١١١ ، ١٦٤) .

(٤) هذه الغزوة هى أولى غزوات عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله بعد توليه الامارة ، وقد بدأها فى ١٣ شعبان ٣٠٠ (٢٤ مارس ٩١٣) وانتهى منها يوم عيد الأضحى من هذه السنة (١٧ يولية ٩١٣) بعد أن استتم فيها اثنين وتسعين يوماً ، وتدعى بغزوة المنتلون وقد فصل حديثها ابن حيان فى المقتبس (مخطوطة الخزانة الملكية فى الرباط ص ٣٥—٣٧) ولخص كلامه عنها ابن عذارى فى البيان المغرب (٢/١٦٠—١٦٣) والقطعة المجهولة المؤلف من تاريخ لعبد الرحمن الناصر ، مدريد ١٩٥٠ ص ٣٧ من النص و ١٠٠ من الترجمة . وفى كتاب ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية (٢/٧—١١) دراسة طيبة عنها .

فلما انتهى إلى حصن شُبَالِشَ (١) من حصون البشارة أشرف عليه بعض السفهاء من رجال عمر بن حفصون (٢) بالذَّمِّ والاحتقار ، وجعل يقول : رُدُّوا فى فمه لبن أُمه ! فجاوبه بعض من كان بقربه فى المصافِّ من زمَّالة (٣) الأثقال : « والله ما نرده إلا برأس ابن حفصون فى حُكمه ! (٤) » .

فلما وَقَرَتْ بأُذُنه قال : يرفع هذا القائل عن الامتهان ، ويلحق بملاحقِ الفرسان ، ويحمل ، ويوصَلُ بكذا من المال . فأوتى ذلك كله فى مقامه ، وصار سبباً لنباهته فى رجاله . وطيرها الناس غريبة فى اهتباله وسعة نوالهِ .

واعتاصَ عليه حصنُ شُبَالِشَ المذكور لبُعْدِهِ وتعذُّرِ نبلهِ بحجارةِ المنجنيقِ القاذفة له ، وكان فيه جمهرةٌ من رجال عمر بن حفصونَ لهم بأسٌ وفيهم

---

(١) حصن شبالش أو شبيلش (كما يكتبه ابن عذارى) هو الذى يدعى اليوم Juviles وهو يقع على السفوح الجنوبية لجبال البشرات ، إلى الجنوب الشرقى لغرناطة .

(٢) عمر بن حفصون كبير ثوار الأندلس فى أواخر القرن الثالث الهجرى استمرت ثورته منذ سنة ٢٦٧ فى عهد الأمير محمد حتى وفاته فى أيام الناصر سنة ٣٠٥ . راجع عن حياته دائرة المعارف الاسلامية ٣ / ١٠٤٩ — ١٠٥٠ (بقلم ليفى بروفنسال) وما ورد فى هذه المادة من مصادر .

(٣) زمالة الأثقال جمع زمال وهو سائق الزاملة ، وهى فى اللغة البعير يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه وطعامه ، على أنهم توسعوا في استخدام اللفظ ، فلم تعد دلالته قاصرة على الابل بل امتدت إلى ما يشبهها من دواب تستخدم لحمل الأثقال كالبغال وأمثالها ، وبهذا استعمل اللفظ فى الأندلس ، بل إنه قد انتقل إلى اللغة الاسبانية وبقى فى تراثها اللغوى حتى اليوم فى صورة Acémila (وبعنى البغل الذى يستخدم فى حمل الأثقال) ، ومنه اشتق لفظ Acemilero وهو يقابل الزمال أى سائق مثل هذا البغل .

(٤) أورد خبر هذه العبارة التى قالها هذا السفيه من رجال ابن حفصون وما رد به عليه ذلك الزمال ابن حيان فى المقتبس (مخطوطة الخزانة الملكية) ص ٣٧ ، ومن الواضح أن مؤلف الزهرات قد نقل الخبر كله من كتاب ابن حيان . والعبارة التى قالها السفيه المذكور تبدو مثلا شعبيا سائراً يقصد به أن الأمير عبد الرحمن إذ يحاول إخضاع ابن حفصون واسترجاع سلطته على معاقله إنما هو بمثابة من يرجو رد لبن الرضيع من فمه إلى ثدى أمه ، أى أنه طالب مستحيل . وكأن هذا المثل المصوغ هنا بعامية الأندلس مأخوذ من البيت العربى القديم المنسوب إلى عميرة بن جعل وهو يصور ندمه على هجائه لقومه :

ندمت على شتم العشيرة بعد ما … مضت واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أسطيع دفعاً لما مضى … كما لا يرد الدر فى الضرع حالبه

(انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٥٠) .

شِدَّةٌ تمنعوا جدا ، وألح الناصر عليهم فى قتالِهِمْ ، وبنى رِجْلاً عليهم نَصَبَ المنجنيقَ عليه ، فأصابهم بأحجارها ، وقطع الماء عنهم حتى قهرهم ، وافتتح الحصنَ عَنْوَةً ، وقتل كلَّ من كان فيه من أصحابِ عمر بن حفصون ، وافتتح بافتتاحه حصون البشارة كلها ، وانصرف على الساحل بِشَاط (١) إلى كورة رَيَّة ، ومنها إلى حضرته بقرطبة .

الزهرة الحادية والستون :

قام رجلٌ إلى الرشيدِ فى أول أيامه ويحيى بن خالد يُسايره ، فلما نزل قال له : [142] يا أَبَتِ (٢) ، أوْمَأْتَ إلىَّ بشىء . وقد أُمِرْتُ بالدراهم للفارسِ الذى عَطِبَتْ دابَّتُه ما هو ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، مثلك لا يجرى هذا المقدارُ على لسانه ، إنما يذكر مثلك خمسة آلافِ ألف ، عَشْرَةَ آلافِ ألف . قال : فإذا سُئلتُ مثل هذا كيف أقول ؟ قال : تقول : تُشْتَرى له دابة ، يفعل به ما يفعل بنظرائه ، يُحْمَلُ فى هذا مَحْمِلَ أقرانه (٣) .

الزهرة الثانية والستون :

ذُكِرَ أن المتوكلَ ابن الأفطس (٤) أميرَ بُرتقالَ (٥) فَرَّ إليه شخصٌ من

---

(١) شاط (ويدعى الآن Jete) حصن يقع فى منطقة مالقة قريباً من المنكب Almuñecar على الساحل الجنوبي المطل على البحر المتوسط .

(٢) ذكر ابن خلكان فى ترجمة يحيى بن خالد البرمكى أن الرشيد لتعظيمه إياه كان إذا ذكره قال أبى (وفيات الأعيان ٦ / ٢٢١) .

(٣) ورد هذا الخبر على نحو أكثر تفصيلا فى وفيات الأعيان ٦ / ٢٢٧

(٤) هو عمر بن محمد المظفر بن عبد الله المنصور بن محمد بن مسلمة بن الأفطس ، من ملوك الطوائف ، كان أميراً على غرب الأندلس ، ولى سنة ٤٦٠ ومات قتيلا فى سنة ٤٨٧ على يد القائد المرابطى سير بن أبى بكر حينما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف بالأندلس ، وهو مرثى ابن =

أُمراء بنى هودٍ[١] مُغاضِباً لابن عمه ملكِ سرقسطة ، فآواهُ وأحسن إليه ، ثم اختبره ، فرآه أهلا للولاية ، فولاَّه ، فقال له أحدُ وزرائه : كثير هذا يا مولاىَ فى تغييرِ قَلْبِ قريبه . كيفَ تُسْخِطُ قادراً فى حق عاجزٍ ؟ وتفرِّطُ فيمن نحتاج إليه كما يحتاج إلينا ؟ وتغتبط بمن لا نحتاج إليه بل هو كَلٌّ علينا ؟ فقال له المتوكل بن الأفطس : الذى قلتَ حقٌّ ، ولكن كيف يكون اقتناء المكارم ؟ .

الزهرة الثالثة والستون :

ذكر أن الخليفة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية وهب لجارية من حظاياه المشْهراتِ بأثرته عِقْدَ جوْهر من أعلاقِ[٢] الخلافة شراؤهُ عليه عشرة آلاف دينارٍ ، كان يسمى الثعبان[٣] ، وكان من ذخائر الرشيد من خلفاء بنى العباس بالمشرق ، لما وقـع بين ابنيْه الأمينِ

= عبدون بالرائية المشهورة التى تدعى « البسامة » . انظر ترجمته فى قلائد العقيان لابن خاقان ص ٣٦ — ٤٧ ؛ المغرب لابن سعيد ١ / ٣٦٤ — ٣٦٥ ، أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢١٤ ؛ الحلة السيراء ٢ / ٩٦ — ١٠٧ ؛ المقرى : نفح الطيب ١/٦٦٣ — ٦٦٦ .

(٥) برتقال هو الاسم العربى لدولة « البرتغال » الحالية ، ولم يكن هذا الاسم شائعاً فى القرن الخامس الهجرى حينما كان يحكم هذه الرقعة من غرب الأندلس بنو الأفطس ، وإنما استخدم مؤلف الزهرات هذا اللفظ على سبيل التغليب إذ كانت « برتقال » فى أيامه تقابل مملكة بطليوس فى غرب الأندلس التى كان المتوكل الأفطسى أميراً لها . وقد كان اسم برتقال فى القديم يطلق على مدينة بورتو Porto ثانية مدن البرتغال اليوم . عن هذا اللفظ راجع ما كتبناه فى حواشى المقتبس بتحقيقنا ، الحاشية رقم ٥٨٤ ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

(١) يظهر أن هذا الأمير هو ذو الوزارتين أبو محمد (ولم يقف ابن الأبار الذى أورد ترجمته على اسمه الكامل) وقد أثنى عليه مؤلف الحلة فقال إنه أحد النجباء الأدباء من أهل بيت ملوك سرقسطة ، نبت به داره واختص بالمتوكل عمر بن محمد بن الأفطسى فولاه مدينة الأشبونة (لشبونة Lisboa عاصمة البرتغال الحالية) من أعماله ثم صرف عنها وصدر محمود السيرة . وله شعر يخاطب به قومه فى خروجه من سرقسطة (انظر الحلة السيراء ٢ / ١٦٥ — ١٦٦) .

(٢) فى الأصل : علاق .

(٣) هذا العقد هو الذى يسميه ابن عذارى (البيان ٢/٩١) «عقد الشفاء» .

والمأمونِ التنازع ، واستولى المأمونُ على الملكِ انتهب من خِزانتهم ، ولاذَ العاثرون عليه بالإبعادِ به إلى قاصيةِ أرض جزيرة الأندلس حيث أَمِنوا عليه ، فبيع بها من الخليفة عبد الرحمن بن الحكم .

وإنَّ [143] (١) بعض من يختصُّه من وزرائه عظم ذلك عليه وقال إن هذا من الأعلاقِ المضنون بها المدَّخرة للنائبة . فقال الأمير : ويحك إن لابسَه أنفس منه قدراً ، وأعظم خطراً ، وأكرم جوهراً . ولئن راقَ من هذه الحصباء منظرها ، ولَطُفَ فى العيون فرندها — لقد برأَ الله من خلقه البشر جوهراً يُغشِى الأبصار ، ويضل الألباب ، وهل على الأرض من شريف جوهرها وسنيِّ زخرفها ومستلذ نعيمها وفاتن بهجتها أقرُّ لعين وأجمع لزين من وجهٍ أكملَ الله حسنه ، وألقى عليه الجمال مسحته ؟ .

ثم دعا بعبد الله بن الشِّمْرِ (٢) جليسه ، فذكر له ما دار بينه وبين وزيره فى شأن العقد ، وقال له : هل يحضرك فى تأييد ما قلناه شىء ؟ قال : نعم ، وأطرق برهة ثم أنشد : [من الطويل]

أتقرنُ حَصْبَاءَ اليواقيتِ والشَّذْرِ ... إلى من تعالى عن سنا الشمس والبدر
إلى مَن براهُ اللهُ للخلقِ فتنة (٣) ... ولم يَكُ شيئاً غيره أحَدٌ يَبْرِى
فأكرِمْ به من صَنْعَةِ (٤) اللهِ جَوْهَراً ... تضاءلَ عنه جوهرُ البرِّ والبحرِ
له خَلَقَ الرحمنُ ما فى سَمائِه ... وما فوقَ أرْضيه ومَكَّنَ فى الأمرِ

---

(١) ورد هذا الخبر وما يتصل به من شعر فى أخبار مجموعة ص ١٣٦ — ١٣٨ ؛ والحلة السيراء ١/١١٥ — ١١٨ ؛ وابن عذارى : البيان ٢/٩١ — ٩٢ ؛ وهناك إشارة مقتضبة إلى فحواه فى نفح الطيب للمقرى ١/٣٤٩ .

(٢) استقصينا مصادر ترجمة ابن الشمر فى حواشى المقتبس لابن حيان ، بتحقيقنا ، حاشية رقم ١٧١ ص ٤٧٧ — ٤٧٨

(٣) رواية أخبار مجموعة والحلة السيراء والبيان المغرب لهذا الشطر : « إلى من (أو بمن قد) برت قدما يد الله خلقه » .

(٤) فى الحلة : صبغة ، وفى البيان المغرب كما هو هنا .

قال : فأعْجِبَ الأمير عبد الرحمن ببديهته ، وتحرَّكَ طَبْعُه للقولِ فيه ، فأنشأ يقول مُعارضاً له على رَوِيِّه :

قريضُكَ يا بنَ الشِّمْرِ عَفَّى على الشعرِ　　وجَلَّ عنِ الأوهامِ (١) والذِّكْرِ والفِكرِ
إذا شافَهَتْهُ الأُذنُ أدَّى بِسَمْعِهِ (٢)　　إلى القلبِ إبْداعاً يَجِلُّ عنِ السِّحْرِ
وهل بَرَأَ الرحمنُ فى كُلِّ ما بَرا　　أَقَرَّ لعين (٣) من مُنَعَّمَةٍ بِكْرِ
تَرَى الوَرْدَ فوقَ الياسمين بِخَدِّها　　كما فُوِّفَ الوردُ المُنَوِّرُ بالزَّهْرِ
فلو أنَّنِي مُلِّكْتُ قلبى وناظِرِى　　نَظَمْتُهُمَا (٤) منها على الجيدِ والنَّحْرِ

فقال له ابن الشِّمْرِ : يا بنَ الخلائفِ ، شعرُكَ والله أجْوَدُ من شعرى ، وثناؤكَ [144] عليه أفضلُ من صِلَتِي . وما مِنْحَتُكَ لى إلا تَطَوُّلاً منكَ بغيرِ استحقاقٍ . فأَضْعَفَ جائزته وأكثر الثناء عليه .

الزهرة الرابعة والستون (٥) :

لما قُبِضَ على الوزير أبى جعفر بن عبد الملك بن سعيدٍ العَنْسِيِّ (٦) وثُقِّفَ بمالقة دخل إليه ابن عَمِّهِ ، ووصل إلى الاجتماع به ربما اسْتُؤذِنَ السيِّدُ

---

(١) هكذا النص أيضاً فى الأخبار المجموعة . وفى الحلة : وأشرق بالايضاح .

(٢) فى الأصل تنقص كلمة « أدى » ، وفى أخبار مجموعة : أدى بسحره ؛ وفى الحلة : إذا جال فى سمع يؤدى بسحره .

(٣) فى الأصل : لعبد ، والتصويب عن أخبار مجموعة والحلة .

(٤) فى الأصل : لنظمتها ، والتصويب عن أخبار مجموعة والحلة .

(٥) أورد المقرى فى نفح الطيب (٤/٢٠٤ – ٢٠٥) نص هذه الزهرة بغير أن يبين رقها أو موضعها من الكتاب ، وجاء الخبر كذلك فى الاحاطة لابن الخطيب ١ / ٢١٨ — ٢١٩ مرويا عن أبى الحسن على بن سعيد عن الحسين بن دويرة (كذا) ويذكر راوى الخبر فى نهايته أنه لم يره بعد ذلك إلا مصلوبا .

(٦) أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد (وقد ساق ابن سعيد فى المغرب نسبه كاملا إلى عمار بن ياسر) هو عم والد على بن موسى بن سعيد الجامع الأخير لكتاب المغرب . وقد ذكر المؤلف أن أبا جعفر المذكور نفسه كان من بين مؤلفى هذا الكتاب الذى توارث بنو سعيد تأليفه . وهو من =

أبو سعيد بن الخليفة عبد المؤمن بن عَلِيّ (١) فى أمره . قال : فَدَمَعَتْ عيناىَ حين رأيتُه مكبولاً . فقال لى : أَعَلَيَّ يُبْكَى بعد ما بلغتُ من الدنيا أطايبَ لذاتها : فأكلْتُ صدورَ الدَّجاج ، وشربتُ فى الزُّجاج ، ولبست الدِّيباج ، وتمتعت بالسَّرَارِىّ والأزواج ، واستعملت من الشمع السِّرَاجَ الوهَّاج ، وركبت كل هملاَج (٢) وها أنا فى يَدِ الحجَّاج (٣) ، منتظر مِحنَةَ الحلاَّج (٤) ، قادمٌ على غافر لا يحتاج إلى اعتذار واحتجاج ؟ !

= ذلك البيت المشهور أصحاب القلعة التى تنسب إليهم: قلعة بنى سعيد أو «قلعة يحصب» (التى تسمى اليوم Alcalá la Real) . بايع أبوه عبد الملك الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على ، فغمره ببره . وحينما ولى غرناطة السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن استكتب أبا جعفر ، غير أن العلاقة ساءت بينهما بسبب تنافسهما على حب حفصة الركونية الشاعرة . فظل أبو سعيد يتربص به حتى فر أخوه عبد الرحمن إلى محمد ابن مردنيش صاحب شرق الأندلس وعدو الموحدين ، فاغتنمها أبو سعيد فرصة وأوقع بأبى جعفر ، فقتله صبراً بمالقة . وذلك فى سنة ٥٥٩ . انظر فى ترجمة أبى جعفر ابن سعيد : المغرب ٢ / ١٦٤ — ١٦٨ ؛ رايات المبرزين ص ٦٤ من طبعة غرسية غومس (= ٩٢ ط. د. النعمان القاضى) ؛ اختصار القدح المعلى ص ١٦٢ ؛ الاحاطة ١ / ٢١٤ — ٢٢٠ ؛ المقرى : نفح الطيب ٤ / ١٧٩ — ٢٠٥

(١) أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على ، أوفده أبوه مؤسس الدولة المؤمنية (الموحدين) إلى الأندلس لأول مرة سنة ٥٤٦ ، وحينما وزع عبد المؤمن ولايات الدولة على أبنائه عهد إليه بحكم عدوتى مضيق جبل طارق (سبتة وطنجة والجزيرة الخضراء ومالقة) ، ثم نقله إلى غرناطة سنة ٥٥٢ وفى ٥٥٧ وفد فى مهمة إلى مراكش ، فانتهز ابن همشك فرصة تغيبه عن غرناطة واستولى عليها، فعاد أبو سعيد إلى عمله بسرعة والتقى بابن همشك ولكنه هزم فى «مرج الرقاد» فى فحص غرناطة ، واضطر إلى الهرب إلى مالقة ، على أنه انتصر بعد ذلك على ابن همشك فى وقعة « السبيكة » . وفى ٥٥٨ كلفه أبوه هو وأخاه يوسف بنقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة وعهد إليه بحكم قرطبة وكان أخوه يوسف قد ولى الخلافة بعد وفاة أبيه عبد المؤمن ، فتلكأ فى الاعتراف بأخيه حتى سنة ٥٦٠ وظل بعد ذلك فى الأندلس مشاركاً فى أحداثها الكبرى حتى توفى فى الطاعون الذى اجتاح مراكش فى سنة ٥٧١ . انظر فى ترجمته وأخباره : أويثى تاريخ الدولة الموحدية :

A. Huici Miranda: *Historia política del Imperio Almohade*, pp. 618-619.

والمصادر المذكورة فى هذا المرجع .

(٢) الهملاج هو البرذون (البغل) الحسن السير فى سرعة وتبختر .

(٣) يشبه الأمير المنكل به بالحجاج بن يوسف الثقفى فى قسوته وصرامته .

(٤) يشبه نفسه فى محنته بالحلاج الحسين بن منصور الصوفى المعروف الذى شهد عليه بالزندقة والمروق من الدين فى أيام الخليفة المقتدر فأعدم ومثل بجسده سنة ٣٠٩ .

قال : فقلت : ألا يُؤسَفُ على مَن ينطقُ بمثل هذا الكلام ثم يُفْقَدُ ؟ وقمتُ عنه ، فكان آخر العهد به .

الزهرة الخامسة والستون :

خرج الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من قرطبة إلى الرُّصافةِ متنزهاً ومعه وزيره الأثيرُ لديه هاشم بن عبد العزيز(١) . فقال له : يا مولاى . ما أحسنَ هذه الدنيا لولا . . . فقال : لولا ماذا ؟ قال : لولا الموتُ . فقال له : ولو بَقِيَ فيها مَن كان قبلَنا مِن أين كانت تصل إلينا(٢) .

الزهرة السادسة والستون :

كان أبو اليُسْرِ الشيْبانيُّ المعروف بالرياضيّ(٣) الأديب الشاعر قد اضطربَ بالمشرقِ وقصدَ الملوكَ ، فأعيَتْ عليه مضاربُ الرزق [145] ، فأوضع إلى

---

(١) هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد (ت ٢٧٠) انظر ترجمته وأخباره فى القطعة التى نشرناها من « المقتبس » لابن حيان (بيروت ١٩٧٣) ، ص ١٥٩ — ١٧١ ، والحاشية رقم ٣٣٠ ص ٥٣٣ — ٥٣٤ .

(٢) هناك خبر ينسب فيه الحوار إلى أبى جعفر المنصور والربيع بن يونس يكاد يتفق مع هذا الخبر فى ألفاظه . وقد ورد فى ابن خلكان (وفيات ٢/٢٩٥) وفى هذا الخبر نجد المنصور هو صاحب عبارة « ما أطيب الدنيا لولا الموت » ، والربيع بن يونس هو صاحب الرد الذى جرى مثله على لسان الأمير محمد نفسه . على أن الخبر ورد فى بعض المصادر الأندلسية كما هو هنا مع نسبة هذا الحوار إلى الأمير محمد وهاشم بن عبد العزيز (راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢ / ١١١ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٣) .

(٣) أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيبانى الرياضى (عاش بين سنتى ٢٢٣ و ٢٩٨) أديب مغامر جوال ، ولد ونشأ فى بغداد ودرس بها على الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب ورحل إلى الأندلس مصطنعا أنه رسول من ابن الشيخ وأهل الشام على ما يذكر المؤلف فى هذا الخبر ثم رحل عن الأندلس إلى افريقية ثم مصر فوقع عليه صاحبها (كان ذلك فى أيام أحمد بن طولون) فحبس ، وبعد تخلصه من حبسه عاد إلى افريقية فولى عملا من أعمال الكتابة فى ديوان الرسائل لابن الأغلب ، وكان على صلة بدعاة العبيديين ، فلما انتصرت دعوة عبيد الله المهدى أول خلفائهم انضم إليه وأصبح كاتبه وصاحب =

الأندلس بكُتُبٍ زوَّرها على لسان عيسى بن الشيخ (١) المتنزى على الخليفة العباسى بآمِدَ (٢) أيام التاثت طاعته عليه ، وعلى ألسنةِ جماعةٍ من وجوه أهل البلد إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن باستدعائه له إليهم ، واعترافهم بحقوقه وحقوق بنى أميَّة ، وذكرهم اقتراب أمَدِ رجعة دولتهم إليهم بالشام .

فلما وَرد على الأمير محمد وكلمه بسطَ عنده جميل ما تضمنَّته كُتبه تفرَّسَ الأمير محمد فيه أنه محتالٌ شحَّاذٌ مُتعيِّشٌ ، ورأى له رُواءً وشارةً ولساناً وسلاطة أحبَّ سَدلَ السَّتر عليه والأخذ بالجميل فيه . ووصلَتْ إليه بطائقُ برسائل محبرةٍ وأشعار (٣) محكمة أعجبته ، فكرم مثواه ، وأوسع قراه ، وأمضى له ذلك طول مكثه لديه ، مع احتباسه واتهامه إياه ، إلى أن ألح عليه يسأله إطلاقه لسبيله وقلبَه بأجوبةِ كُتبه .

فخلا الأمير محمد عند ذلك بوزيره الأخصِّ به هاشم بن عبد العزيز ، وذكر له خبره . فقال له : ويحك يا هاشم ، إنه قد أُلقى فى روعِى أن هذا

= ديوان رسائله فى سنة ٢٩٦ وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى سنة ٢٩٨ . انظر فى ترجمته وأخباره ابن الأبار : التكملة (ط. القاهرة ١٩٥٦) المجلد الأول ، رقم ٤٥٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ١/١٥٢—١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٢ —١٦٣ ؛ أخبار مجموعة ص ١٤٦ —١٤٧ ، المقرى : نفح الطيب ٣/١٣٤—١٣٥ ، وبحثنا عن « التشيع فى الأندلس » صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد (سنة ١٩٥٤) ص ١١٢ — ١١٣ . هذا وقد اختصصنا شخصية أبى اليسر الرياضى المذكور ببحث مفصل لسيرة حياته وآثاره ، وهو تحت الطبع .

(١) عيسى بن الشيخ بن الشليل الشيبانى من كبار قواد الدولة العباسية كان يعمل تحت إمرة قائد الجيش بغا الشرابى فى أيام المتوكل وهو الذى انتدب لاخماد ثورة محمد بن البعيث فى مرند (أذربيجان) فى سنة ٢٣٤ ، وفى سنة ٢٥١ عهد إليه بمحاربة الموفق الخارجى فهزمه وأسره ، وفى السنة التالية عقد له على الرملة بفلسطين ، ولكن ضعف الخلافة أغراه بالاستقلال بعمله فاستولى على فلسطين كلها ثم تغلب على دمشق وأعمالها واستبد بالأموال ورفض إقامة الدعوة للخليفة المعتمد حينما ولى الخلافة سنة ٢٥٦ ، ثم تقلد أعمال أرمينية وديار بكر وظل يتقلب بين الطاعة والعصيان حتى وفاته سنة ٢٦٩ . انظر فى أحداث حياته ابن الأثير : الكامل ٧/٤٢ ، ١٦٣ ، ١٧٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٤ ، ٣٦٧ ، ٣٩٧

(٢) آمد من كور الجزيرة من أعمال الموصل ، وهى من أكبر مدن ديار بكر (ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ص ٣ — ٥) .

(٣) فى الأصل : وشعار .

الرسولَ إنسان محتال طالب معيشة وباغى خديعةٍ ولّد لابتغائها هذه الحيلة التى لا أصل لها . فإن صرنا إلى تصديقه وإنفاذ أجوبتنا عن كتبه على حسب مضمونها اتخذنا عند أضدادنا (١) بنى العباس مَضحكَة وهُزأةً ، وإن كذبناه وحرمناه وقد تجشَّم النَّصَبَ إلينا وخيَّم بنا وقصدنا مُؤمِّلاً ، واحتلَّ كَنفنا واثقاً ، فلؤمٌ منا مشهور ، وفعل غير مشكور . وقد بلوْنا فيما يخاطبنا عن نفسه ويستلطفنا به بخديعته بياناً ناصعاً وتنميقاً رائقاً نظماً ونثراً ، لو كان قصدنا بهما عن نفسه على نأيِ داره وشَحْط مزاره لاستحق معروفنا واستأهَل إكرامَنا . فعرفه بذلك عنا ، وهذه ألفُ دينار [146] فادفعها إليه صلة وأعطِهِ جوابنا هذا الذى انفردنا بمضمونه ، فأَوْمِ إلى تخصيصنا به وسَرِّحْهُ لسبيله . ودفع إليه كتاباً مختوماً أسلمه إلى أبى اليسْرِ .

وكله عن الأمير بما حَمَّله إياه وسَرَّحه (٢) . فمضى أبو اليسر يحسب أن قد اختدع الأمير محمداً واستغفله (٣) .

فَخَبَّر الفقيه محمد بن وليد (٤) أنه اتفق له أن خرج مع أبى اليسر المذكور من قرطبة فى نفر من أهلها يريدون الحج وطلب العلم ، وصحبوه فى طريقه إلى القيروان . فلما حصل فى العدوَة أقبل يخبرهم خبره مع الأمير محمدٍ ، ويعرِّفهم وجه حيلته عليه فى قصده إياه ويتبجَّح بما تهيَّأ له بكَيْسِهِ ونباهته ، وما حصل له من ماله بخديعته له . وما هو إلا أن فضَّ ختامَ الكتاب الذى تحمَّله من عند الأمير محمدٍ بين أيدينا ليُرِيَنَا غباوة أميرنا ، فإذا الكتاب صحيفة

(١) فى الأصل : أضدادها .
(٢) فى الأصل : وشرحه .
(٣) فى الأصل : واستغلقه .
(٤) الفقيه محمد بن وليد القرطبي كان تلميذاً للعتبى صاحب المستخرجة ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن يونس بن عبد الأعلى والمزنى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، ولما عاد إلى قرطبة قدمه قاضى الجماعة للشورى وكانت للامير عبد الله بن محمد به عناية خاصة ، وتوفى سنة ٣٠٩ (ابن الفرضى ، تاريخ رقم ١١٨٠ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٦٤) .

بيضاء ليس فيها غير الافتتاح « بسم الله الرحمن الرحيم » . فوَجمَ واختزى ، وقال : ليس يقاس على فهم الملوك ، وغوْصِ نظرهم ، وذكاءِ حِسِّهم ! ورجع يتعجب من فهم الأمير محمد وذكاء فطنته وبُعد غوْره وكمون فكرته ، ويقول : هكذا تُعرفُ بنو أمية ، لم يكونوا لِيَلؤموا ولا ليُخدعوا ! (١) .

الزهرة السابعة والستون :

جاء رجل إلى نبى الله سليمان عليه السلام ، فقال له ، يا نبى الله إنه كانت لى إوَزَّةٌ فسرقت . فنادى فى الناس : الصلاة جامعة ! ثم خطبهم فقال فى خطبته : أيها الناس ، ما بال أحدكم يسرق إوَزة جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه ؟ ! فمَسَح رجل على رأسه ، فقال سليمان : خذوه فهو صاحبكم (٢) .

الزهرة الثامنة والستون :

كان (٣) المنصور بن أبى عامر قد اشترى من تاجرٍ جَوْهَرِىّ قصده من بلاد المشرق من عَدَنٍ بصرَّة فيها دُرٌّ كثير وأحجار نفيسة ، فاشترى منها ما استحسنه ودفع إلى الجوهرىِّ بقية متاعه فى صُرَّته . فانطلق عنه وأخَذ على

---

(١) ورد هذا الخبر مع بعض الاختلاف فى التفاصيل فى كتاب أخبار مجموعة ص ١٤٦ — ١٤٧

(٢) وردت هذه القصة فى عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠٦/١ وفى محاضرات الأدباء للراغب الاصفهانى (المطبعة الشرقية ، القاهرة ١٣٢٦) ٨٤/٢ ؛ وفى أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى (دمشق ١٣٤٧) ص ١٥ ؛ وفى الأذكياء لابن الجوزى أيضاً ص ١٦ . والقصة شائعة فى الأدب الشعبى المصرى ، ومنها أخذت العبارة المشهورة التى تجرى مجرى المثل « الحرامى على راسه ريشة » .

(٣) وردت هذه القصة مختصرة فى البيان المغرب لابن عذارى ٢٩١/٢—٢٩٢ ؛ ووردت أيضاً فى نفح الطيب للمقرى مرتين : المرة الأولى نقلا عن المغرب لابن سعيد مختصرة ومع قدر غير قليل من الاختلاف فى التفاصيل (٤٠١/١ — ٤٠٢) ، والمرة الثانية بلفظ أبى مروان ابن حيان القرطبى (٤١٢/١ — ٤١٣) ، وهى هنا تكاد تطابق نص ما ورد فى هذه الزهرة . ومن الواضح أن النص هنا — وإن لم يشر المؤلف إلى ذلك — منقول عن ابن حيان ، ففيه كل خصائص أسلوبه .

طريق الرَّملة (١) إلى الشَّطِّ بقرطبة . فلما توسطها واليوم قائظ وعَرَقه مُنصب دعته نفسه إلى التبردِ فى النهر ، فنضا ثيابه وجمعها على الشط ، ووضع تلك الصُّرَّةَ عليها ، وأقبل على شأنه . فمرّت حِدَأة ، فاختطفت صرته تلك تحسبها لحماً ، وصاعدت بها فى الأفق ذاهبة ، فقطعت الأفق الذى أدركته عيْنه . فقامت عليه القيامة وعَلِم أن البليّة لا تُسْتدفع بدعوى ولاحيلة ، فأسر ما فى نفسه ، ولحقته من أجلها عِلّة اضطرب فيها .

وحضر الدفع إلى التجار ، فجلس المنصور بن أبى عامر لذلك بنفسه ، فاستبان ما بالرجـل (٢) من المهانة وفقد ما عَهده عليه من شدة العارضة ، وسأله عن شأنه ، فأعاد عليه القصة . فقال : هلاَّ أتيْتَ إلينا والأمر حدَثانَ وُقوعه ؟ فكنَّا نستظهر على الحيلة ! فهل هُدِيتَ إلى الناحية التى أخذ الطائر نحوها ؟ قـال : مَرَّ مُشَرِّقاً على سَمْتِ هذه الجنان التى تلى قصرك — يعنى الرَّملة — . فدعا أحد الخدام ممن كان واقفـاً بين يديه . فقال : جِئْنى بمْشَيِّخة (٣) أهل الرملَةِ الساعةَ . فمضى وجاء بهم مسرعاً ، فأمرهم بالبحث عمن غيَّر حالَ الإقلالِ منهم سريعاً وانتقل عن الإضاقة بلا تدريج من عُرضهم ، فتناظروا فى ذلك ثم قالوا : يا مولانا ، ما نعلمه إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وولده بأيديهم ويتناوبون الشىء [148] بأنفسهم عجزاً عن شراء دابة ، فاكتسى هو وبنوه كِسوَة متوسطة . قال : وأىُّ جنة بيده ؟ قالوا : المعروفة بالنخلة . قال : هذه واحدة . وأمر بإحضاره فى فجر غده ، وأمر التـاجر بالغدوّ إلى الباب .

---

(١) اسم الرمـلة كان يطلق على الطريق المرصوف الممتد بحذاء الشط الشمالى للوادى الكبير بقرطبة ، فيما يلى ما كان يعرف باسم « الجانب الشرقى » وتطل على هذا الطريق المنطقة الفخمة التى كان المنصور بن أبى عامر قد بنى فيه مدينة الزاهرة التى اتخذها مقراً لحكمه . انظر ليفى بروفنسال : تاريخ الأندلس ٣/٣٦٧ ، ٣٧٠ وانظر الخريطة التوضيحية فى هذا الكتاب ص ٣٦١ .

(٢) فى الأصل : بالرجال .

(٣) فى الأصل : بشيخه .

وأحضر ذلك الرجل بعيْنه وهو طيب النفس ، فاستدْناه المنصور والتاجر حاضر وقال له : سبب ضاع لنا وسقط إليك . ما صنعتَ فيه ؟ قال : هو هذا يا مولانا ! وضرب بيده إلى حُجْزَةِ سراويله ، فأخرج الصُّرَّة بعيْنها ، ووضعها بين يديه ، فكاد التاجر يطير فرحاً . فقال : صِفْ لى حديثها ، قال :

بَيْنا أنا أعمل تحت نخلة فى جنانى إذ سقطت عن حِدَأَةٍ أمامى ، فلقطتها ، وراقنى منظر أحجارها ، فحدسْتُ أن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترست بها ودعتنى الحاجة إلى أخذ عشرة مثاقيل عُيوناً كانت مصرورةً معها ، وقلت : أقلُّ ما فى كَرَم المنصور أن يسمح لى بها مع حراسة ما كان معها .

فأعجب المنصور ما كان منه وقال للتاجر : دُونَك صُرَّتكَ ، فانظرها واصْدُقْنِى عن عدد ما تَضَمَّنَتْهُ . ففعل ، فزاد استبشاره وقال : وحَقِّ رأسِكَ يا مولانا ، ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها ، وأنا قد وهبتها له . قال : نحن أولى بذلك منك ولا ننقصك فرحتك . ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه .

ثم أمر بإحضار عشرين ديناراً وقال : ادفع إلى التاجر شطرها عِوَضاً من دنانيره وإلى الجنَّانِ الشطر الآخر ثواباً لتأنِّيه عن إفساد ما وقع بيده . ولو بدأنا بالاعتراف لأَوْسعنا عطاءه .

فقام التاجر مُسْتَحْنِفراً فى الثناء على المنصور بن أبى عامر قد عاوده نشاطه ، فقال : واللهِ لأُبيِّننَّ فى الأقطارِ عِظَمَ مُلكك ولأبثن فيها أنك تملكُ [149] طَيْرَ بلادك كما تملك إنسها ، فلا تعتصم منك ولا تؤذى جارك . فاستضحك المنصور بن أبى عامر ، وقال : اقصد فى قولك يغفر الله لك ! وعجبَ الناس من لطف ابن أبي عامر فى أمره ، وحيلته فى تفريج كرْبِهِ .

الزهرة التاسعة والستون :

قَدِمَ (١) بعض التجار من خراسان ليحُجَّ ، فتأهب للحج ، وبقى معه من ماله ألفُ دينارٍ لا يحتاج إليها ، فقال : إن حملتها خاطرت بها ، وإن أودعتها خفتُ جَحْدَ المودع ، فمضى إلى الصحراء ، فرأى شجرة خِرْوَع ، فحفر تحتها ودفنها . ولم يره أحد . ثم مضى إلى الحج ، وعاد ، فحفر المكان ، فلم يجد شيئاً ، فجعل يبكى ويلطِمُ ، فإذا سئل عن حاله قال : الأرض سرقت مالى ! فلما كثر ذلك عليه قيل له : لو قَصَدْتَ عَضُدَ الدولة (٢) ، فإن له فطنةً . قال : أو يعلم الغيب ؟ قيل له : لا بأس بقصده .

فقصده فأخبر بقصده ، فجمع الأطباء وقال لهم : هل داويتم فى هذه السنة أحداً بعروق الخِرْوَع ؟ فقال أحدهم : أنا داويتُ فلاناً وهو من خواصِّكَ . فقال : علىَّ به . فجاء ، فقال له : هل تداوَيْتَ فى هذه السنة بعروق الخروَع ؟ قال : نعم . قال : من جاءك به ؟ قال : فلان . قال : علَىَّ به . فلما جاء قال له : من أين أخذتَ عروق الخروَع ؟ قال : من المكان الفلانى . فقال له : اذهب بهذا معك فأره المكان الذى أخذت منه . فذهب معه بصاحب المال إلى تلك الشجرة ، وقال : من ها هنا أخذت . فقال الرجل : ها هنا

---

(١) وردت هذه القصة بألفاظها تقريباً فى كتاب الأذكياء لأبى الفرج ابن الجوزى ص ٥٥ — ٥٦

(٢) أبو شجاع فنا خسرو الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه الديلمى، أعظم ملوك الدولة البويهية . ولد سنة ٣٣٤ وولى فارس بعد وفاة عمه عماد الدولة ثم تغلب على العراق وانتزعها من يد ابن عمه عز الدولة بختيـار بن معز الدولة وضم كذلك الموصل وبلاد الجزيرة ، وهو أول من خطب له على المنابر ببغداد مع الخليفة وتلقب بألقاب الملك . وتوفي ببغداد سنة ٣٧٢ . راجع ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ٥٠ — ٥٥ ، رقم ٥٣٢ وما ورد بحاشية هذا الموضع من مصادر .

والله تركت مالى ، فرجعا إلى عضُدِ الدولة ، فأخبراه ، فقال للرجل : هلُمَّ المـال فهو قبَلك ! وتوعده . فأحضر المـــال فدفعه عضد الدولة لصاحبه . فشكره ودعا له ، وانصرف .

الزهرة السبعون :

جلس(١) الخليفــة أبو جعفر المنصور يوما فى أحد متنزهاته المشرفةِ على دِجْلَةَ ، فرأى رجلا مهموماً ملهوفاً يجول فى الطرقات . فأرسل من أتاه به ، فسأله عن حاله ، فأخبره الرجل أنه خرج فى تجارةٍ له فأفاد مـالاً ، وأنه رجع بالمـال إلى منزله ، فدفعه إلى أهله ، فذكرت امرأته أن المال سُرِق من بيتها ، ولم يَرَ نقباً ولا ما يستدل به على أخذه من الدار . فقال له المنصور : مُذْ كَمْ تَزَوَّجْتها ؟ قـال : منذ سنةٍ . قال : أفبِكراً تزوجتها ؟ قال : لا . قال : فلها وَلَدٌ من سواك ؟ قال : لا . قال : فشابة هى أم مُسِنَّة ؟ قال : بل حَدَثَةٌ . فدعا المنصور بقارورة طيبٍ كان يُتَّخَذُ له حادٍّ الرائحة غريب النوع ، فدفعها إليه ، وقال له : تطيَّبْ من هذا الطيب فإنه يُذهِبُ هَمَّكَ .

فلما خرج الرجلُ من عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثِقاته : ليقعد على كل بابٍ من أبواب المدينـة واحد منكم فمن مَرَّ به فشم منه رائحة هذا الطيبِ — وأَشَمَّهُمْ(٢) منه — فليَأْتنى به .

وخرج الرجل بالطيب ، فدفعه إلى امرأته وقال لهـا : وَهَبَهُ لى أمير المؤمنين . فلما شمته بعثت إلى رجل كانت تحبُّه ، وقد كانت دفعت المال إليه فقالت له : تطيَّبْ من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجى . فتطيَّب

---

(١) وردت هذه القصة نفسها فى كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ٤١ ، وكذلك فى نهاية الأرب للنويرى ٣/١٥١

(٢) فى الاصل : وأشممهم .

الأمراء من أولاد خلفاء بنى أمية بالأندلس فى أنسٍ قد طَمَا به سروره ، وَكان صاحب قنصٍ تغلب عليه لَذَّتُه ، فاستدعى بازِيًا عتيقًا كان كلفًا به ، مشفقًا عليه ، كثيرَ التَعَهُّدِ له ، فأُدْنِىَ إليه ، وجعل يمسح أعطافه ويُعَدِّلُ قوادمه ، ويرتاح لنشاطه . فسأله هذا المغنى ابن زرياب أن يهبه له إثر إطرائِه إياه ، فاستحيا من رده ، وأعطاه إياه مع ضَنِّه به . فدفعه ابن زرياب لغلامه لِيُعَجِّلَ به إلى منزله ، وأَسَرَّ إليه بسر لم يُطْلِعْ عليه من حَضَرَه .

فمضى لشأنه ، ولم يلبث به أن جاءه بطَيْفُورٍ(١) مُغَطًّى ، فكشف عنه ، فإذا فيه لون مَصُوصٍ(٢) قد اتُّخِذَ له من البازى بعد ذبحه على ما حده لأهله ، فوضعه بين يدى الأمير الذى كان عنده . وقال له : شاركنى يا سيدى فى طعامى هذا ، فإنه شريف التركيب ، بديع الصناعة .

فلما رآه الرجل أَنْكَرَ صِفَتَه ، وعاف لحمه ، وسأله عنه ، فقال : هو البازى الذى كنت تُعَظِّمُ قَدْرَه ولا تصبر عنه ، فقد صَيَّرْتُهُ إلى ما ترى . فغضب صاحب المنزل حتى رَبَا فى أثوابه ، وفارقه حِلْمُه ، فقال له : قد كان والله أيها الكلب السفيه عندى على ما قَدَّرْتُه ولا اهتديت فيه إلا بكبار

---

(١) فى نفح الطيب : بطيفورية . والصواب ما جاء فى الأصل . والطيفور لفظ شائع كان مستخدماً فى الأندلس ، وقد دخل إلى اللغة الإسبانية وأصبح من تراثها اللغوى فى صورة Ataifor ، ولهذا اللفظ كما ورد فى معجم اللغة الاسبانية الذى وضعه المجمع اللغوى الملكى معنيان :

— الأول : صحن كبير عميق يستخدم لتقديم اللحوم .

— والثانى : مائدة صغيرة مستديرة كان استخدامها شائعاً بين مسلمى الأندلس .

وتتبع هذا اللفظ واستخدامه فى النصوص العربية يصدق هذين المعنيين ، فسياق النص الذى بين أيدينا يقتضى أن يكون الطيفور الذى أعد فيه لون المصوص هذا من البازى بالمعنى الأول أى الصحن الكبير العميق . أما بالمعنى الثانى أى المائدة الصغيرة فهو كثير الورود فى مجموعة الوثائق الغرناطية التى نشرها المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦١ بتحقيق الأستاذ سيكو دى لوثينا . انظر ص ٤٩ من المقدمة الاسبانية وص ١٥٢ من الترجمة الاسبانية (مسرد الألفاظ ذات الدلالة الخاصة)

Luis Seco de Lucena: *Documentos arábigo-granadinos,* Instituto (Egipcio) de Estudios Islámieos, Madrid 1961, pp. XLIX, 152.

(٢) المصوص ، بفتح الميم ، لحم يطبخ فى الخل ويطبخ .

المؤثرين لمثله . وما أَسْعَفْتُكَ به إلا مُعَظِّماً من قدرك ما استصغرت من قدرى ، وأظهرت من هوانى وهوانِ السُّنَّةِ ، باستحلالِكَ لسباع الطير المَنهىِّ عنها ، ولا أَدَعُ والله الآن تأديبك إذ أهملك أبوك مُعَلِّمُ الناسِ [153] المروءةَ .

فدعا له بالسوط ، وأمر بِنَزْعِ قَلَنْسُوَتِهِ ، وساطَ هامَتَهُ مائةً وافيةً . فاستحسن الناس فعله ، وأَبْدَوُا الشماتَةَ به .

الزهرة الثالثة والسبعون :

ذُكِرَ أن الخليفة موسى الهادى كان يوماً فى بستان له ، ومعه أهل بيته وبطانَةُ دولته ، وهو راكب على حمار ، وليس معه سلاح . فدخل عليه حاجبه ، فأخبره أن رجلا من الخوارج جىء به أسيراً ، وكان الهادى حريصاً على الظفر به ، فأمر بإدخاله بين رَجُلَيْنِ قد أمسكا بِيَدَيْه .

فلما رأى الخارجِىُّ الهادىَ جذب يديه من الرجلين اللذين كانا يمسكانه ، واخترط سيف أحدهما ، ووثب نحو الهادى . ولما رأى ذلك مَنْ كان حول الهادى من أهله وخاصته فروا جميعاً ، وبقى الهادى وَحْدَه على حماره بمكانه . حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف قال الهادى : اضربْ عُنُقَه يا غلام ! .

فالتفت الخارجى حين سمع ذلك ، وظن أن الغلام كان من ورائه . فوثب الهادى عن سَرْجِهِ ، فإذا هو على الخارجى ، وسقط الخارجى تحته . فقبض الهادى على يديه ، وانتزع منه السيف ، فَذَبَحَهُ به ، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره ، وتراجع إليه خاصَّتُهُ وأهله وقد مُلِئُوا رعباً وحياءً منه فما خاطبهم فى ذلك بحرف ، ولم يكن بعد ذلك يفارقه سيفٌ ، ولا يركب إلا الخيلَ .

الزهرة الرابعة والسبعون :

لما ثار أهل الربض بقرطبة على الأمير الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، وجاهروا بالمعصية ، وحملوا السلاح عليه وزحفوا فى جموعهم إلى باب القصر يقاتلونه ويبسُطونَ ألسنتَهم فيه ، وهم كالجراد [154] المنتشر كثرة ، على الكريهة والإيقاع به ، وأحاطوا بقصره ، فلم يَشُكَّ هو ومن معه بأنهم مغلوبون غَرَّبَ فى بأساء حربه هذه ، عند ما حَمِىَ وطيسُها ، وأعْضَلَ خطبُها ، بنادرة من نوادر الصبر والتوطين[١] [٨ ا] على الموت ما سمع لأحد من الملوك مثلها ، وذلك أنه فى مَقَامه بالسطح وعند بصره باشتداد الحرب وجثوم الكرب وقعقعة السلاح وانتماء الأبطال قال لخادم كان واقفاً على رأسه[٢] : جئنى بقارورة غالِيَةٍ[٣] . فكأن الخادم شك فى طَلِبَتِهِ واتهم سمعه ، فتوقف عن المُضِىِّ لما أمره به[٤] . فصاح به وأعاد عليه بطلبها ، فلما أتاه بها غَشَّى بها رَأْسَه ولحيته ، ولم يملك الخادم نفسه أن قال له : وأيةُ ساعة طيب هذه[٥] يا مولاى ، وقد ترى ما نحن فيه ! فقال له : اسكت ، قبحك الله ، وكيف يعرف قاتلُ الحَكَمِ رأسَه من رأس غيره إذا هو حَزَّه ؟ فعجب الخادم ومن حَضَرَهُ من قوة نفسه وطيبها على المكروه مع إبلاغه فى حماية سلطانه . ثم شد على نفسه ،

---

(١) عند هذا الموضع ينتهى الخرم الواقع فى المخطوطة ب والممتد من الزهرة الثانية والأربعين، مما جعلنا نعتمد فى الصفحات السابقة على نسخة ا وحدها بصفتها أصلا وحيداً . وابتداء من هنا حتى آخر الكتاب سوف يكون اعتمادنا على الأصلين معا .

(٢) ذكرت المصادر الأخرى اسم هذا الخادم ، فابن القوطية وابن حيان الذى ينقل عنه يذكرانه باسم « يزنت » (ويقابل بالاسبانية Jacinto ومعناه ياقوت) وصاحب الأخبار المجموعة يذكره باسم «بزنت» (بالاسبانية Vicente) . انظر الخلاف حول ذلك فى كتاب ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ١/١٩٠ — ١٩١ وحاشية رقم ٣ ؛ والحلة السيراء لابن الأبار ١/٤٦ ، حاشية رقم ١ .

(٣) الغالية أخلاط من الطيب ، وقد انتقلت هذه الكلمة إلى المعجم الاسبانى بنفس صورتها العربية (algalia) وبنفس المعنى .

(٤) هذا اللفظ ساقط من النسخة ا .

(٥) فى ا : هذا وقد أثبتنا ما فى ب .

واستلأمَ للحربِ ، وشمر عن ساعده ، ورَتَّبَ الكتائب ، وعبَّأ الزُّدودَ ، وَكَرْدَسَ الكراديس ، وأخرج الجند والعبيد ، فجالدوهم على باب القنطرة جلاداً شديداً فانهزموا أعظم هزيمة ، وقُتِلوا مقتلة عظيمة ، وكان من أمرهم ما هو مشهور (١) .

الزهرة الخامسة والسبعون :

لما أظفر [الله] (٢) الأمير الحكم بأهل الربض القائمين عليه بقرطبة شاور فيهم كاتبه فُطَيْسَ بن سليمان (٣) وحاجبه عبد الكريم بن مغيث (٤) وقاضيه الفرجَ بْنَ كنانةٍ (٥) ؛ فأشار عليه فطيس بن سليمان بالإثخان فى القتل واستباحة العامة وهَدْمِ الرَّبَضِ وتَعْفِيَةِ أثره وتحريم البناء فيه ما كان [155] لهم سلطان

(١) عن ثورة الربض انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ١ / ١٦٥ — ١٧٠ . وقد وقعت هذه الثورة فى سنة ٢٠٢ (٨١٨) .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . وفى ا : لما ظفر الأمير الحكم . . .

(٣) أبو سليمان فطيس بن سليمان ، دخل الأندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل وولى له ولايات عديدة ، وكذلك لابنه هشام ، فلما اعتلى الإمارة الحكم بن هشام أمضاه على الوزارة وأسند إليه الكتابة وكان له فى وقعة الربض مقام محمود ، وكانت وفاته فى أواخر أيام الحكم أو أوائل أيام عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٠٧ (٨٢٢) . انظر عنه ما كتبناه فى تعليقاتنا على الجزء الخاص بإمارة عبد الرحمن بن الحكم من المقتبس لابن حيان ص ٧٦ من النص والحاشية رقم ١٨٦ من التعليقات (ص ٤٨٢) حيث أوردنا قائمة كاملة بالمراجع التى أوردت ذكره .

(٤) عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب الأمير الحكم وقائده وكاتبه ويصفه الرازى بأنه « أكمل من ولى الحجابة لبنى مروان » ويعد من أعظم رجالات دولة الأمويين فى الأندلس . توفى سنة ٢٠٩ (٨٢٤) فى أيام عبد الرحمن بن الحكم . وقد استوفينا الحديث عن المراجع التى أوردت ذكره فى تعليقاتنا على المجلد الذى أشرنا إليه من المقتبس ص ٢٥ تعليق رقم ٨٢ ص ٤٤٤ — ٤٤٦ .

(٥) الفرج بن كنانة الكنانى الشذونى قاضى الجماعة للامير الحكم بن هشام . توفى سنة ١٩٨ (٨١٣ — ٨١٤) . انظر فى ترجمته الخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ، بتحقيق خوليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ ص ٧١ — ٧٦ ؛ ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٨ ؛ ابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٠٢٨ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٧٦٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٤٦/١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ص ١٢ ؛ النباهى : المرقبة العليا ص ٥٣ ؛ ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ١٤٤/١ .

بالأندلس(١) ، وأشار عليه حاجبه عبد الكريم بن مغيث بضد ذلك من الصفح والإبقاء ، وقال له : إن الله قد أحسن إليك بالظفر ابتلاء لك ، فأحسن إلى خلقه بعفوك عنهم ، وأشار عليه قاضيه الفرج بن كنانة بالصفح عنهم ، وقال له : أيها الأمير ، إن قُرَيْشاً حاربت رسول الله صلى الله عليه وسلم وطردته وبالغت فى أذاه ، وناصبته العداوة وهو يدعوهم إلى الهدى ، ثم كان من صفحه عنهم لما أظفره الله بهم ما قد علمته ، وأنت أحق الناس بالاقتداء به لقرابتك منه ومكانك من خلافته فى عباده .

فَقَدَعَ(٢) ذلك منه [٨ ب] وبذل الأمان لِفَلِّ(٣) القوم على الجلاء عن أوطانهم بقرطبة ، فأجفلوا فى الهرب الذى عَلَّقُوا(٤) الأمان عليه ، ففروا عنها إلى كل جهة ، متفرقين فى أقصى الكوَر وأطراف الثغور .

وخرجت منهم ثلاث طوائف كبار :

الطائفة الواحدة منهم فروا إلى طُلَيْطُلَةَ ، واعتاموها لأجل خلاف أهلها على الخليفة الحكم ، فاستقروا فيها حتى أوقع بعد ذلك بأهلها وبهم فى الجملة(٥) .

---

(١) على الرغم مما يذكره المؤلف هنا من أن الأمير الحكم أخذ بمشورة حاجبه عبد الكريم بن مغيث وقاضيه الفرج بن كنانة من الصفح عن ثوار الربض فإن الواقع يدلنا على أنه أخذ برأى وزيره فطيس بن سليمان فى هدم الربض وتعفية أثره وتحريم البناء فيه ، بل إنه أوصى إلى من تلاه من أمراء بنى أمية ألا يسمحوا بعودة المبانى إلى الربض وظلت وصيته محترمة نحو قرنين من الزمان إذ لم يبدأ فى البناء فيه إلا فى أيام الحاجب المظفر عبد الملك بن أبى عامر فى العقد الأخير من القرن الرابع الهجرى . انظر المقتبس لابن حيان بتحقيقنا ، حاشية رقم ٥٧ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ ، وليفى بروفنسال : تاريخ ٣ / ٣٨٠ — ٣٨١ .

(٢) فى ب « فقدم » ، وقد أثبتنا ما ورد فى « ا » وهو الصواب . يقال « قدع » بمعنى كف ومنع . ولفظ ذلك ساقط من ا .

(٣) فى ب « لجل » وقد أثبتنا ما جاء فى « ا » وهو الصواب .

(٤) فى ب « علق » .

(٥) أشار ابن سعيد أيضاً إلى هذه الطائفة التى لحقت بطليطلة وذكر أنهم كاتبوا مهاجر بن القتيل الذى كان قد لحق بدار الحرب (أى أرض النصارى) وولوه عليهم (انظر المغرب ١ / ٤٢) . كذلك ذكر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام (ص ١٥) أن أحد أجداده الأولين المعروف بابن وزير كان من بين هؤلاء المهاجرين إلى طليطلة . انظر ما كتبه ابن الخطيب عن أولية بيته (المقرى : نفح ٥ / ١٠) وانظر كذلك ليفى بروفنسال (تاريخ ١ / ١٦٩) .

والطائفة الثانية توجهت إلى العُدْوَة لبلاد البرابر ، ونزلوا بعدوة الأندلسيين من مدينة فاس[١] ، ومن حين نزولهم بها نسبت إليهم ، فقيـــل « عُدْوَة الأندلسيين » ، وبهم عمرت تلك العدوة وكثر أهلها وتَمَدَّنَتْ ، وكان ذلك سنة اثنتين ومائتين وأميرها إذ ذاك القاسم بن الأمير إدريس بن إدريس[٢] ــ الواصل إلى المغرب ــ بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم[*] . وكان بَيْنَ بُنْيَانِها وبين بنيان مدينة فاسٍ القديمـــة ثلاثون سنة ، فإن مدينة فاس [156] بنيت سنة اثنتين وسبعين ومائة لمـا دخل إلى بـــلاد المغرب جده إدريسُ بن عبد الله المذكور هارباً بنفسه من أبى جعفر المنصور[٣] ، إذ كان قد خرج عليه مع الحسين بن على [بن الحسين][٤]

---

(١) حول استقرار هؤلاء الأندلسيين بتلك العدوة المنسوبة إليهم من مدينة فاس انظر البحث الذى اختص ليفى بروفنسال به هذه المسألة فى كتابه الإسلام فى المغرب والأندلس :
Lévi-Provençal: *L'Islam d'Occident*, pp. 1-41. (وانظر الترجمـــة العربية لهذا الكتاب بقلم الأستاذين الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٨، المقالة الأولى) وقد عاد بروفنسال إلى الكتابة عن ذلك فى تاريخه (١/ ١٧٠) .

(٢) الحقيقة أن المغرب الأقصى كان فى ذلك الوقت (سنة ٢٠٢/ ٨١٨) تحت حكم إدريس الثانى بن إدريس الأول (مؤسس الدولة) بن عبد الله بن الحسن إذ كانت وفاة إدريس هذا فى سنة ٢١٣ (٨٢٨) وقد خلفه ابنه محمد الذى اتخذ مدينة فاس عاصمة له ، وولى أخاه القاسم المذكور هنا على البصرة وطنجة . وربما كان المقصود أن القاسم كان يتولى حكم مدينة فاس فى ذلك الوقت لأخيه محمد الأمير . (عن القاسم المذكور انظر ترجمته فى ابن الأبار : الحلة السيراء ١/ ١٣١ وما بعدها ، وتعليق الدكتور مؤنس فى حاشية هذا الموضع) . والحقيقة أن جدول نسب الأسرة الإدريسية وسنوات حكم أمرائها لا يزال فيه اضطراب كثير يحتاج إلى مزيد من التحقيق .

(*) على حاشية هذا الموضع فى نسخة « ا » بخط مختلف عن خط الناسخ هذا التعليق : « من أخبار الأدارسة ، وفيه تخليط » .

(٣) لهذه العبارة أهمية كبرى فى تحديد التأسيس الأول لمدينـــة فاس ، فقد كان الشائع بين المؤرخين (اعتماداً على كتاب روض القرطاس لابن أبى زرع وغيره) أن الاختطاط الأول لفاس كان على يد إدريس الثانى بن إدريس الأول الحسنى . وقد أعاد ليفى بروفنسال بحث هذه المسألة فى كتابه الذى أشرنا إليه عن اختطاط مدينة فاس وانتهى من دراسته إلى أن مؤسس فاس الحقيق كان إدريس الأول بن عبد الله بن الحسن ، وأن ذلك كان سنة ١٧٢ (٧٨٩) وقد اعتمد بروفنسال فى تأكيده لهذه النتيجة على نص للرازى المؤرخ الأندلسى جاء فى الحلة السيراء لابن الأبار (بتحقيق مؤنس ١/ ٥٤ — ٥٥) وعلى عبارات أخرى لمؤرخين متأخرين . ويأتى هذا النص الآن صريحاً فى تحديد تاريخ اختطاط فاس القديمة بسنة ١٧٢ على يد إدريس الأول كما نرى ، وفيه شهادة لصحة ما ذهب إليه ليفى =

بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فقُتِلَ الحُسَيْنُ فى وقيعة فَخّ ، وتفرق أصحابه[١] ، فلجأ إدريس إلى المغرب فى خبر طويل ، فاجتمع عليه البربر ، وقدموه على أنفسهم وبنوا له مدينة فاس ، وكانت أَجَمَةً شَعْرَاءَ ، ولما احتُفِرَتْ أساساتها أُلفى فى بعضها فاس ، فسميت مدينة فاس بسبب ذلك . والحديث فى مثل هذا إن تُتُبِّعَ يطول .

والطائفة الثالثة وكانت طائفة عظيمة ذات عِدَّةٍ وجَلَدٍ بلغت خمسة عشر ألفاً ركبوا البحر من مرسى بَجَّانَة[٢] ، وأصعدوا نحو الشرق حتى أتوا إلى الإسكندرية ؛ وعَارَّهُمْ أهلها فَسَطَوْا بهم سطوةً مُنكرة هزموهم غِبَّها[٣] وبذلوا السيف فيهم فقتلوا منهم وملكوها[٤] . وكان سبب ثورتهم على أهل الإسكندرية

= بروفنسال حول هذا الموضوع . وقد أورد الدكتور أحمد مختار العبادى والأستاذ ابراهيم الكتانى فى تعليقهما على النص الخاص بتأسيس مدينة فاس من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب العربي ، نشر الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ ص ١٩٨ — ١٩٩) موجزاً طيباً لآراء ليفى بروفنسال حول هذه المسألة . وقد وافقاه فى نهاية بحثهما على رأيه .

(٤) تكملة لازمة لصحة الاسم والنسب .

(١) عن وقيعة فخ الكائنة فى يوم التروية ٨ من ذى الحجة سنة ١٦٩ (١١ يونية سنة ٧٨٦) وعن مصرع الحسين بن على فيها انظر تاريخ الطبرى ٦/٤١٠ ومروج الذهب للمسعودى ٣/٢٤٨ واليعقوبى ٣/١٣٧ وابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ٢/٥٩ وأبو الفرج الإصبهانى : مقاتل الطالبيين ، بتحقيق السيد صقر ، ص ٤٣١ .

(٢) فى ب : بجاية وهو تحريف ، إذ المقصود هو بجانة Pechina التى كانت من أهم مراسى الساحل الاندلسى الجنوبى قبل أن يبنى عبد الرحمن الناصر مدينة المرية فى سنة ٣٤٤ (٩٥٥ — ٩٥٦) . وهى الآن قرية تقع على بعد ١٠ كم إلى الشمال من المرية . انظر عنها دائرة المعارف الاسلامية ، مادة بقلم ليفى بروفنسال ٣/١١٠٩ والدكتور أحمد مختار العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والاندلس ص ٤٧ ، وكذلك الدكتور حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٢٣ — ١٢٦ .

(٣) فى ب : وهزموهم بها .

(٤) قام هؤلاء الأندلسيون الربضيون باحتلال الاسكندرية ثم جزيرة إقريطش بقيادة أبى حفص عمر بن شعيب البلوطى (نسبة إلى فحص البلوط) . انظر حول هذه المغامرة وأحداثها ليفى بروفنسال : تاريخ ١/١٧٢ — ١٧٣ ؛ وكذلك الدكتور حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٣٧ — ١٣٨ وما فى هذين المصدرين من مراجع .

أن جزاراً منهم ضرب وجهَ رجل من هؤلاء الأندلسيِّين بكَرِشٍ مُلَوَّثَةٍ ، فنادى أصحابه ، فامْتَعَضُوا له ، وقاموا على أهل البلد ، فغلبوهم ، وأقاموا به إلى أن صالحهم على الخروج سلماً عنه ابن طاهر(١) عامل عبد الله [١٩] المأمون بن الرشيد من خلفاء بني العباس بالمشرق ، وخَيَّرَهُمْ في الحلول حيث يختارون من جزائر البحر ، ويعانون على حلولهم بها ، فاختاروا جزيرة إِقْرِيطَش ، وكانت يومئذ خالية من الروم ، فاحتملوا إليها بكُلِّيَّتِهِمْ ونزلوا بها فاعتمروها ، وجاءهم الناس من كل مكان ، وأقاموا بها إلى حين استيلاء الروم على بَيْتِ المَقْدِسِ(٢) .

[157] الزهرة السادسة والسبعون :

ذُكِرَ أن سليمان بن عبد الملك بن مروان لما قدم عليه من الأندلس

---

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين ، أحد أكابر القواد ورجالات الدولة في عهد الخليفة المأمون . كان أبوه طاهر بن الحسين والياً على خراسان وكذلك أخوه طلحة ، واستعان المأمون أيضاً به في إخماد كثير من الفتن ، فلما نجمت فتنة الأندلسيين الذين احتلوا الإسكندرية ندبه المأمون لتأمين مصر وإخراج هؤلاء الأندلسيين ، فدخل مصر سنة ٢١١ (٨٢٦) واستطاع الوصول معهم إلى اتفاق يجلون بمقتضاه عن البلاد على أن يعينهم بمراكبه على التوجه إلى أي جزائر البحر أرادوا ، فاختاروا جزيرة إقريطش (كريت) التي كانت من أراضي الدولة البيزنطية ، فاحتلوها في سنة ٢١٢ (٨٢٧) . وعاد عبد الله بن طاهر بعد إنهاء مهمته إلى بغداد ، وهو رأس الدولة الطاهرية التي حكمت خراسان زمنا . انظر عن ابن طاهر دائرة المعارف الاسلامية ١/٣٢ (مادة بقلم زيترشتين K. V. Zetterstéen والمراجع المثبتة هناك) .

(٢) ليس صحيحاً ما يذكره المؤلف هنا من أن المسلمين ظلوا في جزيرة إقريطش حتى استولى الروم على بيت المقدس ، وإنما وقع ذلك في سنة ٣٥٠ (٩٦١) حينما هاجم الجزيرة القائد البيزنطي نقفور فوقس Nicephore Phocas (الذي قدر له بعد ذلك أن يعتلي عرش الامبراطورية البيزنطية) وكان قد عهد بذلك إليه الملك رومانوس الثاني Romanus II ، فافتتح الجزيرة وأعادها إلى الدولة البيزنطية وحمل أميرها عبد العزيز بن حبيب بن عمر (سليل أبي حفص البلوطي فاتح إقريطش) إلى القسطنطينية أسيراً ، فقضى بها بقية حياته . انظر ليفي بروفنسال : تاريخ ١/١٧٢

موسى بن نصير[١] قال له : يا موسى ، مَنْ خلَّفْتَ على الأندلس ؟ قال : ابنى عبد العزيز . قال : ومن خلفت على إفريقية وطنجة ؟ قال : ابنى عبد الله . قال : ومن خلفت على السوس ؟ قال : ابنى مروان . قال له سليمان : لقد أَنْجَبْتَ يا موسى ! فقال له : ومن أَنْجَبُ منى يا أمير المؤمنين ؟ إن ابنى عبد العزيز أتى بملِك الأندلس لذريق[٢] ، وأتى ابنى عبدُ الله بملك مَيُّورقة

---

(١) الخبر الوارد فى هذه الزهرة من جنس هذا الأدب الكثير الذى قام فيه الخيال الشعبي بدور فعال والذى أدت إليه محنة موسى بن نصير هذا القائد العظيم فاتح الأندلس على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد عودة موسى إلى المشرق . ويظهر أن ذرية موسى بن نصير فى الأندلس من ناحية (من سلالة ابنه عبد العزيز) وفى مصر من ناحية أخرى (من نسل ابنه مروان) قد أسهمت بنصيب كبير فى ترويج أمثال هذه القصص والأخبار والمحاورات التى تمثل موسى بن نصير فى صورة البطل الشهيد الذى لم تشفع له فى محنته بطولته الفائقة ، بل والذى أحاطه الخيال الشعبي بهالة من القداسة ونسب إليه كرامات وخوارق تجاوز كل حد معقول . على أنه ينبغى أن ننبه إلى أن هذه الأخبار الأسطورية لها نواة من الحقيقة كما سنرى فى هذا الخبر نفسه . وقد ولد موسى بن نصير فى سنة ١٩ (٦٤٠) وولاه عبد العزيز بن مروان على افريقية سنة ٨٦ (٧٠٦) بعد حسان بن النعمان فأكمل فتح المغرب ثم أرسل مولاه طارق بن زياد فى سنة ٩٢ (٧١١) ففتح الأندلس ، ثم توجه هو نفسه فى السنة التالية إلى هذه البلاد فأكمل فتحها ، على أنه لم يلبث أن استدعى إلى المشرق ، ولكنه لم يصل إلى دمشق إلا قبل وفاة الوليد بن عبد الملك (فى ٩٦/٧١٥) بأربعين يوماً ، فلما ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك — وكان متغيراً على موسى — أساء لقاءه وقبل فيه وشايات حساده وما زال الأمر كذلك حتى وفاة موسى فى سنة ٩٨ (٧١٦/٧١٧) . (عن شخصية موسى بن نصير التاريخية وأعماله وفتوحه انظر ما كتبه الدكتور حسين مؤنس فى «فجر الأندلس» ص ٤٦ — ١١٠ وليفى بروفنسال : تاريخ ١/٨ — ٢٩ والمراجع المثبتة فى هذين المرجعين) . أما الأساطير التى نسجت حول موسى وأبنائه فقد اختصصت بها جانباً كبيراً من بحث سبق لى نشره بالإسبانية عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى » :

M. Makki: *Egipto y los orígenes de la historiografía arábigo-española*, REVISTA DEL INSTITUTO DE ESTUDIOS ISLÁMICOS EN MADRID, 1957, vol. V, pp. 157-248.

وقد ألحقت بهذه الدراسة الفصول الخاصة بالأندلس من « تاريخ » عبد الملك بن حبيب الإلبيرى (ت ٢٣٨ — ٨٥٢) وقمت بعقد مقارنة بين هذه الفصول وتلك الخاصة بفتح الأندلس من كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة ، وقد تبين لى أن هذه الفصول إنما هى من تأليف حفيد لموسى بن نصير من نسل ولده مروان كان مصريا معاصراً لابن حبيب .

(٢) عبد العزيز بن موسى بن نصير ، رافق أباه فى حملته على الأندلس ، وهو الذى تولى فتح اشبيلية ولبلة وباجة من بلاد غرب الأندلس ، ثم فتح مالقة والبيرة وتدمير من المنطقة الشرقية ، وعهد إليه موسى بحكم الأندلس عند خروجه إلى المشرق فى سنة ٩٥ (٧١٤) وظل واليا على البلاد حتى سنة ٩٧ (٧١٦) حينما اغتيل بأيدى بعض أصحابه فى خبر طويل . انظر الدكتور حسين مؤنس : =

ومنورقة وصِقِلِّيَّة وسِرْدَانيـة[١] ، وأتى ابنى مروان بملك المغرب والسوس الأقصى[٢] ، فهم مفترقون فى الأمصار وغيرها ، فيأتون من السَّبْي بما لا يحصى . فمن أعجب منى ؟ فقال سليمان : ولا أمير المؤمنين ليس بأعجب منك ! فقال له موسى بن نصير ، شأنُ أمير المؤمنين شأنٌ ليس فوقه شأن[٣] ، لأن كل شىء — وإن عَظُمَ — دُونه ، لأنه به وعلى يديه ومنه وعن أمره .

= فجر الأندلس ص ٩٥ — ٩٦ ، ١١١ — ١١٩ ، ١٢٩ — ١٣٥ وليفى بروفنسال : تاريخ ٣٠ — ٣٤ . وأما ما قيل هنا على لسان موسى من أن عبد العزيز قد أتى بملك الأندلس لذريق فهو ما لم يؤيده أى مرجع تاريخى .

(١) عبد الله بن موسى بن نصير عهد إليه أبوه موسى ببعض الحملات أثناء ولايته على إفريقية ثم استخلفه عليها عند عودته إلى المشرق بعد دخوله الأندلس فى سنة ٩٦ (٧١٤) ، وحينما ولى يزيد ابن أبى مسلم كاتب الحجاج الثقفى على افريقية سنة ١٠١ (٧٢٠ — ٧٢١) أصحب معه عبد الله بن موسى غير أنه سرعان ما تغير عليه فأبعده واستصفى أمواله ، فعمد عبد الله على تحريض البربر على يزيد حتى قتله حرسه سنة ١٠٢ (٧٢١) وهنا أمر يزيد بن عبد الملك عامله على مصر بشر بن صفوان بالنهوض إلى افريقية ، فدخلها فى نفس السنة وقتل عبد الله بن موسى . انظر فجر الأندلس ص ١٥٦ — ١٦٠ أما ما يذكر هنا على لسان موسى من إتيان عبد الله بن موسى بملك ميورقة ومنورقة وصقلية وسردانية فمن الواضح أنه لا صحة لهذا من الناحية التاريخية ، ولم يكن لهذه الجزائر الأربع ملك واحد حتى يأتى به عبد الله . ومع ذلك فإن الخبر ليس اختراعاً محضاً ، بل له نواته من الحقيقة شأنه كشأن كثير من تلك الأخبار التى تضخمت تفاصيلها فى أخيلة الناس تضخماً هائلا ، ذلك أننا نعرف أن موسى ابن نصير وجه بالفعل إحدى سراياه إلى جزيرة صقلية . فقد ذكر ابن عذارى نقلا عن ابن القطان (البيان المغرب ٤٣/١) أنه عقد لعياش بن أخيل على مراكب افريقية فمشى فى البحر إلى صقلية وأصاب غنائم كثيرة حازها فى مدينة سرقوسة . وهنا نرى أصل الخبر الذى نسجت حوله مأثرة عبد الله بن موسى المذكورة على لسان موسى .

(٢) مروان بن موسى بن نصير هو أوفر ولد موسى نصيبا من المفاخر المنسوبة لتلك الأسرة إلى درجة أن اسمه يقترن بكثير من الفتوح الخرافية فى بعض قصص « ألف ليلة وليلة » ، وأكثر ما نجده من ذلك فى تاريخ عبد الملك بن حبيب وفى تلك القطعة المنسوبة لابن قتيبة من « الإمامة والسياسة » وهى التى ذكرنا أنها فى الحقيقة كتاب لمبارك بن مروان النصيرى حفيد مروان نفسه . ويذكر فى هذين المصدرين بالفعل أن مروان هو الذى فتح السوس الأقصى وأتى منه « وهو يجر الدنيا جراً بالسبى » (انظر تاريخ ابن حبيب ، القطعة التى ألحقناها بمقالنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى » ، ص ٢٢٤) .

(٣) فى ا : شىء .

الزهرة السابعة والسبعون :

سأل سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير(١) ، فقال له : ما كُنْتَ تفْزَعُ إليه عند خروجك إلى حربك ، ومباشرة عدوِّك ؟ قال : الدعاء والصبر عند اللقاء . قال : فأَيَّ الخيل رأيتَها فى تلك البلاد أصبرَ ؟ قال : الشقر . قال : فأى الأمم كانوا أشد(٢) قتالا ؟ قال : هم أكثر من أن أصفهم لك ؟ قال : فأخبرنى عن الروم . قال : أسود فى حصونهم ، عِقْبَانٌ على خيولهم ، إن رأوا فرصة افترصوها ، وإن رأوا غَلَبَةً فأوعالٌ تذهب فى الجبال ، لا يرون الهزيمة عارا . قال : فأخبرنى عن البربر . قال : هم أشبهُ بالعرب لقاءً ونجدة وصبراً وفروسية وسماحة ، غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد . قال : فأخبرنى [158] عن أهل الأندلس . [٩ ب] قال : ملوكٌ مترفون ، وفرسانٌ لا يَجبُنُون . قال : فأخبرنى عن الإفرنج . قال : هنالك العدد والعدة ، والجلد والشدة ، والبأس والنجدة . قال : فأخبرنى كيف كانت الحرب بينك وبينهم ؟ أكانت لك أم عليك ؟ فقال : أما هذا فوالله يا أمير المؤمنين ما هُزِمَتْ لى رايةٌ . قال : فضحك سليمان وعجب من قوله .

الزهرة الثامنة والسبعون :

لما حاصر أبو جعفر المنصورُ ابْنَ هُبَيْرَةَ بواسط فى خلافة أخيه السَّفَّاح(٣) أرسل إليه ابن هبيرة : إنى خارج إليك يوم كذا وداعيك إلى المبارَزَةِ ،

(١) ورد هذا الخبر أيضاً بنصه تقريباً فى تاريخ ابن حبيب الملحق بمقالنا المذكور ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، وقارنه أيضاً بما جاء فى الامامة والسياسة ٢/٨٤ والبيان المغرب لابن عذارى المراكشى ٢/٢١

(٢) فى ا : رأيتها أصبر وأشد قتالا .

(٣) يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى كان من أكبر قواد آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد وأقدرهم . وكان أبو العباس السفاح قد وجه أخاه أبا جعفر الذى ولى الخلافة بعده متلقبا بالمنصور =

فقد بلغنى تَجبينُك إيّاىَ . فكتب إليه : يا بن هبيرة ، إنك امرؤٌ مُتَعَدٍّ طوْرك ، جار فى عنان غيِّك ، يعدك الشيطان ما الله مكذبه ، ويُقَرِّبُ إليك ما الله مُبَاعِدُه ، فروَيداً تتم الكلمة ويبلغ الكتاب أجله ، ولقد ضربت لك مثلا فى أمرى وأمرك : بلغنى أن أسداً لقى خنزيرا فقال له الخنزير : قاتلنى . قال له الأسد : إنما أنت خنزير ، ولست لى بكُفُو ولا نظير ، ومتى فعلت الذى[1] تدعونى[2] إليه فقتلتك قيل قتـل خنزيراً فلم أعتقدْ بذلك فخراً ولا ذكراً ، وإن نالنى من قِبَلِكَ شىءٌ كان سُبَّةً على . فقال له الخنزير : إن أنت لم تفعل رجعت إلى السباع وأعلمتها أنك نكلت عنى وجبُنْتَ عن قتالى . فقال الأسد : احتمالى كَذِبَكَ أيسرُ عَلَىَّ من لَطْخ شارِبِى بدَمِك !

الزهرة التاسعة والسبعون :

ذكر أن أُمَيَّةَ بن عيسى بن شُهَيْد[3] وزير الخليفة عبد الرحمن بن

= ليحاصره فى واسط عندما اشتعلت ثورة العباسيين ضد بنى أمية ، فاستمر حصار أبى جعفر ليزيد أحد عشر شهراً كان مروان قد قتل فى أثنائها . وترددت السفارات بين أبى جعفر ويزيد حتى انعقد بينهما الأمان ، ولكن أبا العباس السفاح ما زال يلح على أخيه حتى قتله . انظر تفصيل الخبر فى الطبرى : تاريخ ٦/ ١٠٤ — ١١٠

(١) فى الأصلين : التى ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتنا .

(٢) فى ب : توعدنى ، وما ورد فى ا أصح .

(٣) فى ا : . . . بن أبى عيسى ، والصواب ما أثبتنا عن ب ، أمية بن عيسى بن شهيد هو أجل وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم وأعظم رجال دولته . وكان أبوه عيسى بن شهيد فى مثـل هذه المكانة من عبد الرحمن الأوسط ، فقد ولى له الحجابة حتى وفاته (وفاة عيسى) سنة ٢٤٣ (٨٥٧) . أما أمية فقد عهد إليه الأمير محمد بولاية المدينة والوزارة ، واضطلع أيضاً بقيادة الجيوش فى بعض المناسبات . ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى توفى وإن كنا نعتقد أن ذلك كان قبل وفاة الأمير محمد فى ٢٧٣ (٨٨٦) . انظر عن أمية المذكور ابن القوطية : تاريخ ص ٨٥ — ٨٧ ، ٩٤ — ٩٥ ؛ الخشنى : كتاب القضاة بقرطبة ، ط. مدريد ص ١٢٩ — ١٣٠ ، ١٤١ . وفى كتاب المقتبس (بتحقيقنا ، ط. بيروت ١٩٧٣ الجزء الخاص بالأمير محمد ، ص ١٧١ — ١٧٢ ، والحاشية رقم ٣٤١) أخبار كثيرة جديدة عنه . أما الخبر الوارد هنا فقد أورده ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٤ .

الحكم[(١)] حضر يوماً بدار الرهائن المجاورة — كانت — لباب القنطرة بقرطبة ، ورهائن بنى قَسِيٍّ[(٢)] وغيرهم من أبناء الثوار ينشدون شعر عنترة[(٣)] أمام مؤدب . فقال [159] لبعض الأعوان : علىَّ بالمؤدب . فلما وصل إلى القصر وافاه المؤدب ، فقال له : لولا أنى أعذرك بالجهل لأدَّبْتُك أدباً موجعاً ، تعمد إلى شياطينَ أبناء شياطين قد شَجِىَ بهم الخلفاء فتُرَوِّيهم شعر عَنْتَرَةَ والشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ؟ كف عن هذا ولا تُرَوِّهم إلا خمريات الحسن ابن هانى[(٤)] وشبهها من الأهزال ومثل شعر عمر بن أبى [١١٠] ربيعة[(٥)] وجميل[(٦)] وغيرهما من أمثاله[(٧)] .

---

(١) كذا فى الأصل ، ونظن ذلك وهماً فأمية بن عيسى بن شهيد لم يكن وزيراً لعبد الرحمن ابن الحكم ، إذ لم يرد اسمه فى قائمة الوزراء التى أوردها ابن حيان فى المقتبس (ط. بيروت ١٩٧٣) ص ٢٨ ، ولعل المقصود « وزير الخليفة [محمد بن] عبد الرحمن بن الحكم » .

(٢) بنو قسى من أكبر الأسر الأندلسية التى ملكت الثغر الأعلى (سرقسطة وما حولها) فى ظل بنى أمية منذ القرن الثانى الهجرى حتى أوائل القرن الرابع . وهى تنتمى إلى قسى (تعريب الاسم اللاتينى Cassius) قومس (أى كونت) الثغر الأعلى فى أواخر أيام القوطيين . وكان قد لحق بالشام عند فتح المسلمين للاندلس وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك وانتمى إلى ولائه . وتعاقب بنو قسى على رياسة الثغر ، وكان أشهرهم موسى بن موسى بن قسى (ت ٢٤٨/٨٦٢) الذى اشتهرت وقائعه وأحداثه فى أيام الأميرين عبد الرحمن ومحمد . انظر عن بنى قسى ما كتبناه حول موسى بن موسى فى تعليقاتنا على الجزء الذى نشرناه من المقتبس ، رقم ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٦) .

(٣) عنترة بن شداد العبسى الشاعر الجاهلى المشهور المعروف بشعره الحماسى .

(٤) أبو نواس الحسن بن هانى الشاعر العباسى المشهور الذى عرف بخمرياته ومجونه (ت بعد سنة ٢٠٠/٨١٥) . انظر الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر العباسى الأول ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٥) عمر بن أبى ربيعة المكى (٢٣ — ٩٣ / ٦٤٤ — ٧١٢) شاعر الغزل المعروف من شعراء صدر الإسلام . انظر عنه الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الاسلامى ص ٣٤٩ وما بعدها .

(٦) جميل بن معمر العذرى أشهر شعراء الحب العفيف فى العصر الأموى . توفى بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان فى أواخر القرن الثانى الهجرى . انظر الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الإسلامى ص ٣٦٧ وما بعدها .

(٧) فى ب : أمثالهم .

الزهرة الثمانون :

حكى أبو العباس ابن العريف الكاتب[١] عن الحاجب حَبُوس بن مَاكْسِنْ ابن زِيرِى بن مَنَاد الصِّنْهَاجِى صاحب إلبيرة[٢] قال[٣] :

---

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المرى (نسبة إلى المرية) المعروف بابن العريف كان من كبار المتصوفة الأندلسيين، وسعى به إلى سلطان المغرب والأندلس على ابن يوسف بن تاشفين فأمر بإشخاصه إلى مراكش، وتوفى هناك سنة ٥٣٦ (١١٤١). انظر فى ترجمة حياته ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/١٥١—١٥٢ ؛ ابن بشكوال : الصلة، رقم ١٧٦ ؛ المقرى : نفح الطيب ٣/٢٢٩ ؛ ابن الأبار : معجم أبى على الصدفى، رقم ١٨ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/٢١١ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب : ٤/١١٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٤٩ ؛ مفاخر البربر ص ٧٠ ؛ ابن الزيات التادلى : التشوف إلى رجال التصوف، بتحقيق أدولف فور، الرباط ١٩٥٨ ص ٩٦—١٠١ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٦٨، ١٨٨ ؛ أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج (على هامش الديباج المذهب لابن فرحون) ص ٣٠ ؛ وانظر عنه وعن كتابه «محاسن المجالس» :

Asín Palacios: *El místico Abū-l-ʿAbbās Ibn al-ʿArīf de Almería y su «Maḥāsin al-maŷālis»*, apud Obras Escogidas, I, 219-242.

على أن هذا الخبر الوارد هنا لم يرد فى كتاب «محاسن المجالس» فلعله جاء فى كتاب آخر لابن العريف. هذا إذا لم يكن ابن العريف المذكور راوية الخبر شخصا آخر غير الصوفى المشهور.

(٢) حبوس بن ماكسن الصنهاجى كان من كبار القواد البربر الذين استقدمهم المظفر بن المنصور ابن أبى عامر ليعينوه فى حروبه، وكان قدومه من افريقية ودخوله الأندلس مع عمه زاوى بن زيرى وفى جملة من أهل بيته. فلما نشبت الفتنة فى الأندلس بعد انهيار الدولة العامرية انحاز الصنهاجيون بعد أن خاضوا تلك الفتنة إلى إلبيرة، وولى أمرهم زاوى بن زيرى حتى بدا له الخروج عن الأندلس والعودة إلى إفريقية لما رآه من كراهية الأندلسيين لقومه البربر، وذلك فى سنة ٤١٠ (١٠١٩)، فصار أمر مملكته إلى ابن أخيه حبوس بن ماكسن الذى توطد ملكه حتى وفاته سنة ٤٢٩ (١٠٣٨). انظر حول ولاية حبوس ودولته ابن عذارى : البيان المغرب الجزء الثالث، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، والاحاطة (راجع فهارس هذه الكتب) وانظر كذلك دراسة شاملة حول بنى زيرى فى الأندلس للباحث هادى روجيه إدريس فى مجلة الأندلس :

H. R. Idris: *Les zīrīdes d'Espagne*, «Al-Andalus», vol. XXIX, 1964, pp. 39-145.

(٣) لهذا الخبر الجديد تماما قيمة كبيرة فى تصويره مظهراً من مظاهر سلوك هؤلاء المقاتلين المحترفين من البربر وأنفتهم من الفرار، كما أن فيه تصويراً للمنافسة الشديدة بين الصنهاجيين والزناتيين من طوائف البربر.

لما انْحَزْنا عن الفرنجة يوم الهزيمة بِعَقَبَةِ البَقَر [١] — وقتل فيها نحو عشرة آلاف — انتهيت إلى مضيق وعر من قرطبة إلى الزهراء عليه قَنْطَرَةٌ صغيرة لا يعبرها إلا الفارسُ بعد الفارسِ ، فأجد عليها أربعة من الفرسان من أبطال البرابر : اثنَيْن مِنَّا ، وهما حُبَاسَةُ أخي [٢] وحُبَاسَةُ بن حَمَامَةَ ابْنُ عَمِّي [٣] ، واثنين من زناتة : حَمّو بن يَصْلَتَنْ ، وإبرهيم بن فُلْفُل ، وكلاهما من البرازلة [٤] ، وهم وقوفٌ دونها لا يعبرها أحد منهم ، وبينهم منازَعَةٌ

---

(١) «عقبة البقر» (بالاسبانية El Vacar) حصن يقع على بعد ٢٠ كيلومتراً إلى الشمال من قرطبة ، على الطريق المتجه إلى طليطلة ، وإلى جوار هذا الحصن وقعت تلك المعركة العنيفة التي يتحدث عنها حبوس بن ماكسن في أول الخبر والتي دارت في ٥ شوال سنة ٤٠٠ (٢٢ مايو ١٠١٠) بين جيش سليمان بن الحكم المستعين وأنصاره من البرابر الصنهاجيين (ومن بينهم زاوى بن زيرى وابنا أخويه حبوس وحباسة ابنا ماكسن) ومحمد بن هشام المهدى الذى كان جيش من الافرنج (من أهل قطلونية) يمده ويناصره . وقد كان النصر حليف البربر في البدء فقتل كثيرون من أنصار المهدى وواحد من قادة جيش الافرنج وهو أرمنقود Ermengaud البرشلونى ، ولكن سليمان المستعين هرب من المعركة ودبت الفوضي في صفوف البربر فانهزموا بعد أن قتل منهم خصومهم مقتلة شديدة (عن هذه المعركة انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٢/٣١٣ والمراجع الواردة هناك . وانظر كذلك ديوان ابن دراج القسطلى ، بتحقيقنا ، ص ٥٠ ، ٥٤ ، ٦٤ بمناسبة حديث ابن دراج عن هذه الوقعة في مواضع من شعره) .

(٢) حباسة بن ماكسن الصنهاجى أخو حبوس راوى الخبر ، كان من أبطال فرسان البربر وأكثرهم إيقاعاً بأهل قرطبة في أحداث الفتنة البربرية ، وكانوا يهابونه هيبة شديدة . وقد حدث في أعقاب إحدى وقائع الفتنة أن تكاثر عليه أهل قرطبة فقتلوه ومثلوا به مثلة شديدة في آخر ذي حجة سنة ٤٠٢ (آخر يوليه ١٠١٢) ، وأوقع أخوه حبوس بعد ذلك انتقاماً رهيباً بقاتله وبأهل قرطبة عامة . انظر ابن عذارى : البيان المغرب (راجع الفهرس) وابن الخطيب : الاحاطة ، نشر عنان ١/٤٩٤ — ٤٩٥ . (وانظر في مقتله بصفة خاصة البيان المغرب ٣/١١١ والاحاطة ، الموضع السابق وكذلك ٣١٢ — ٣١٣ وليفى بروفنسال : تاريخ ٢/٣١٩ ؛ وروجيه ادريس ص ١٢ — ١٣ من الفصلة) .

(٣) لم توافنا المراجع بشيء عن حباسة بن حمامة المذكور .

(٤) لسنا نعرف شيئاً كذلك عن هذين الفارسين . وقوله من « البرازلة » يعنى من بنى برزال ، وهم من بطون زناتة خصوم صنهاجة التقليديين ، ويرجع جوازهم إلى الأندلس إلى أيام الحكم المستنصر في سنة ٣٦٦ (٩٧٦) ، على أنه حينما اضطرمت نار الفتنة اضطروا إلى محالفة خصومهم الصنهاجيين إزاء كراهية الأندلسيين للبربر أيام الحروب الأهلية الدائرة في الأندلس . وقد اقتطعوا بعد ذلك أجزاء من الأندلس أقاموا فيها دويلات صغيرة كان أهمها إمارتهم في قرمونة Carmona . انظر

H. R. Idris: *Les Birzalides de Carmona*, «Al-Andalus», vol. XXX, 1965, pp. 49-62.

قطعوها لما جِئْتُهم . فسألتهم عما أوقفهم . فقال لى أخى[1] حُباسة : إن هذين يريداننا على التقدم على العبور كيما يَعِيبانِنَا به غداً فى قُبْح الهزيمة ، فنأبى عليهما ويَأْبَيَان من تَقَدُّمِنا لمثل ذلك الحديث ، فلسنا ببارحين أو تلحقنا الخيل فيُعْلَمَ أَيُّنا أَجْزَعُ . فعجبت من توقيهما حديث غد على مثلها[2] من عظيمة وقبح هزيمة . فقلت للزِّناتِيَّيْن : أَيُقْنِعُكُمَا أن أتقدمكم جميعاً فتعبرون خلفى دون منازعة ونتخلص من هذه الورطة ، [160] وتَعْصِبُونَ بى هذه الوَصْمَة ؟ فقالا : هى حَسْبُنَا منك ! فَعَبَرْتُ ، وعبر الزناتيان[3] خلفى ، وعبر خلفهما صاحباى ، وسرنا بحال سلامة .

الزهرة الحادية والثمانون :

لما جاز إلى الأندلس[4] زاوى بن زيرى بن مَنَاد[5] الصِّنْهَاجِىُّ فى مدة المُظَفَّرِ عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، وكان أبوه المنصور قد التوى فى

---

(١) فى الأصل ب : يا أخى .

(٢) « على مثلها » لم ترد إلا فى ا .

(٣) فى ا : الزناتيين ، وفى ب : الزناتى ، وكلاهما خطأ .

(٤) ورد مثل هذا الخبر وبقريب من هذه الألفاظ فى الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع ١/٦١ — ٦٢ (نقلا عن ابن حيان) .

(٥) زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى : كان أبوه أمير المغرب الأوسط تابعا للخلافة الفاطمية ، فلما فتح المعز لدين الله الفاطمى مصر وانتقل إليها استخلف ابنه يوسف بلقين (أخا زاوى) على افريقية وما وراءها من بلاد المغرب ، فلما توفى يوسف سنة ٣٧٢ (٩٨٢) خلفه ابنه المنصور ، فاشتبك مع أعمامه فى حروب انهزموا فيها عنه ، وكان من بينهم زاوى المذكور ، وحينئذ كاتب المنصور بن أبى عامر صاحب الأندلس لكى يلحق به ، فالتوى بالاذن له — كما يذكر النص — حذراً منه إلى أن توفى المنصور العامرى فى سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) وخلفه ابنه عبد الملك المظفر ، وحينئذ أذن له بالجواز إلى الأندلس هو وطائفة من قومه منهم ابنا أخيه حبوس وحباسة ابنا ماكسن اللذان أشرنا إليهما . وكان ذلك على الأرجح فى سنة ٣٩٣ (١٠٠٣) وظل زاوى رفيع المكانة فى الأندلس إلى أن نشبت الفتنة فخاض غمارها على ما ذكرنا ، والتف به الصنهاجيون قومه فولوه زعامتهم واختط بغرناطة فوطد بها ملكه ، حتى بدا له لهول ما عاينه من الحروب وما تبينه من كراهة الأندلسيين له ولقومه أن يعود إلى موطنه فى افريقية وذلك فى سنة ٤١٠ (١٠١٩ — ١٠٢٠) ، فوصل إلى القيروان =

الإذن له فى الدخول إلى الأندلس حذراً من دَهْيِه ومَكْرِهِ وبعد صيته بالعدوة ، فأَضْرَبَ عبد الملك عن ذلك وطلب السُّمْعَةَ باستخدام مثله ، فأَدْخَلَهُ بِمَنْ معه من إخوته وهم من سَعَةِ النعمة وبعد الهمم واستصغار الرغائب فيما يكون عليه أشباههم من أبناء الملوك[١] ، فبالغ عبد الملك فى رفعه منزلته ، وولاَّهُ الوزارةَ أَرْفَعَ خطط أصحاب[٢] السلطان بالأندلس ، ووصل إليه الرسول بالصَّكِّ فى ذلك ، وتوقف لعله أن يَصِلَهُ عليه . فقال له : [١٠ ب] يا هذا ، لو جِئْتَنا بمـال لأسهمناك ، وإنما أتيتنا بقرطاس هو لَكَ إن شئت ، وكل امرئ وما خُلِقَ له ، وإنما خُطَّتُنَا الإمارة لا الوزارة ، وأقلامنا الرماحُ ، وصحائفُنا الأجسادُ .

الزهرة الثانية والثمانون :

عبد الرحمن بن معــاوية الداخل إلى الأندلس كان يقال له « صَقْرُ قَرَيْش[٣] » ، وذلك أن الخليفة أبا جعفر المنصور قال لأصحابه وهو ببغداد : أخبرونى عن صقر قريش ، من هو ؟ ، قالوا : أمير المؤمنين الذى راضَ الملك ، وسَكَّنَ الزِّلْزَالَ ، وحسم الأدواء ، وأباد الأعداء . قـال : ما صنعتُمْ شيئاً . قالوا : فمعاوية بن أبى سفيان . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان .

= واستقر فى كنف حفيد أخيه المعز بن تميم بن يوسف بلقين ، غير أن وزراء المعز لم يلبثوا أن دسوا له السم بعد قليل من مقدمه ، عن زاوى بن زيرى انظر بحث روجيه إدريس الذى أشرنا إليه ص ١ — ٢٠ من الفصلة وما أورده من مراجع .

(١) ينبه ابن الخطيب إلى احتقار زاوى وأصحابه الصنهاجيين لمظاهر الاكرام التى أسبغت عليهم فى الأندلس ، فيقول : « فأنزلهم المظفر وأكرمهم إلا أنهم كابدوا مشقة من دهرهم الذى أصارهم يخدمون بأبواب الملوك من أعدائهم غيرهم » (الاحاطة ، نشر عنان ص ٤٤٠) .

(٢) « أصحاب » لم ترد إلا فى ا .

(٣) تلقيب أبى جعفر المنصور لعبد الرحمن بن معاوية بصقر قريش أمر مشهور ذائع ، وأول المصادر التى ذكرته كتاب « أخبار مجموعة » ص ١١٨ — ١١٩ وابن عبد ربه فى العقد الفريد ٤٨٨/٤ ؛ ثم يكرر التالون ذلك الخبر : ابن الأبار : الحلة السيراء ٣٥/١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ٥٩/٢ — ٦٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الأندلسى ص ٩ ؛ المقرى : نفح الطيب ٣٣٢/١ .

قال : ولا هذا . قالوا : فَمَنْ يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية [161] الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجميًّا مفرداً ، فمصَّر الأمصار ، وجنَّد الأجناد ، ودوَّن الدواوين ، وأقام ملكاً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته .

الزهرة الثالثة والثمانون :

الأمور التي كانت تَحَارُ فيها خلفاء بنى أمية بالأندلس لا يُنفِذُونها إلا عن مُشاوَرَةِ ثلاثة من الناس ، وهم : قائدُ الجُنْد بِسَرَقُسْطَة قاعدةِ الثَّغْرِ الأعْلى[1] لعظم ذلك الموضع وكوْنه الثَّغْرَ ومَحَلَّ الدِّفاع عن الأندلس ، فلم يكونوا يُقَدِّمُونَ له إلا من اشتهرت نجدته وغناؤه ، وكان فيه انْتِهاضٌ بما حُمِّل من ذلك الوَظِيفِ[2] ؛ والقاضى بقرطبة حضرة الخلافة وموضع توفُّرِ

---

(١) كان المسلمون فى الأندلس منذ أن استقرت دولتهم فى ظل بنى أمية قد اهتموا بتحصين خطوطهم الدفاعية فى المناطق المتاخمة لجيرانهم النصارى فقسموها إلى قسمين رئيسيين : ما يسمى بالثغر الأدنى الممتد من طليطلة فى وسط الأندلس إلى ماردة ثم ما يليها غرباً حتى المحيط الأطلسى ، والثغر الأعلى فى المنطقة الشمالية حتى جبال البرتات (البيرينيه) وكانت سرقسطة قاعدة هذا الثغر ، ثم أضافوا بعد ذلك منطقة عسكرية ثالثة هى الثغر الأوسط فى منتصف الطريق بين طليطلة وسرقسطة وكان مركزه مدينة سالم ، وقد برزت أهمية « الثغر الأعلى » وضرورة تحصينه منذ أن تعرض لحملة شارلمان Charlemagne ملك الفرنجة (فرنسا) فى أيام عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٢ (٧٧٨) وهى الحملة التى منيت بالفشل فى رونسفو Roncevaux (بالاسبانية Roncesvalles) وظل بنو أمية منذ ذلك التاريخ يولون منطقة الثغر الأعلى اهتمامهم حتى نهاية دولتهم . عن الثغر الأعلى ومكانته انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٣/٥٥ وما بعدها ، وكذلك نفس المؤلف : دور الثغر الأعلى فى التاريخ السياسى للاندلس فى ظل خلافة بنى أمية ، فى مجلة معهد الدراسات الخاصة بجبال البيرينيه بسرقسطة : Lévi-Prevençal: *Le rôle de la Marche Supérieure dans l'histoire politique de l'Espagne califienne*, «Revista Pirineos», Zaragoza, núms. 15, 16, 1950, pp. 35-52.

وانظر كذلك الجزء الخاص بالثغر الأعلى من جغرافية العذرى ، بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، نشر معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٦٥ ص ٢١ — ٧٣ ؛ والترجمة الاسبانية لهذا النص الجليل بما فيها من تحقيقات ممتازة للمستشرق الاسبانى فرناندو دى لاجرانخا بعنوان « الثغر الأعلى فى كتاب العذرى » .

Fernando de la Granja: *La Marca Superior en la obra de al-'Udri*, Zaragoza, 1966.

(٢) فى الأصلين : الوضيف .

العلماء ، لما كان يُحْتَاجُ فيمن يتقدَّمُ لقضائها من استجماع شروط الكمال وكريم الخلال ورسوخ القدم في العلم والدين[1] والحكمة[2] ؛ وقائدُ الأسْطولِ بالمَرِيَّةِ[3] لأنها كانت دارَ صَنْعَةِ الإنشاء بالأندلس ، ولتوسُّطِها في بلادهم ، فكان في مُدَّةِ بني أمية قائدُ أسْطولِها[4] قسيمَ الخليفةِ في ملكه : ذاكَ ملِكُ البرِّ ، وهذا ملكُ البحرِ .

الزهرة الرابعة والثمانون :

كان أهــل الأندلس[5] من حين استفتاحها إلى مدة الخليفة الحكم بن

---

(١) هذه الكلمة ناقصة في ب .

(٢) يشهد بصحة ما ذكر المؤلف هنا عن مركز قضاء الجماعة بقرطبة قول ابن سعيد (حسبما ينقل عنه المقري : نفح ١/٢١٧ — ٢١٨) : «وأما خطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي . هذا وضعها في زمان بني أمية » . وحول هذه الخطة انظر تقديم خوليان ريبيرا لترجمته الاسبانية لكتاب القضاة (مدريد ١٩١٤) ، وليفي بروفنسال : تاريخ ٣/١١٧ وما بعدها ، وكذلك ص ١٣٦وما بعدها .

(٣) مدينة المرية Almería مدينة محدثة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٤٤ (٩٥٥ — ٩٥٦) وبنى لها سوراً منيعا من الصخر واتخذ الناس فيها محارس وأربطة ثم بنيت فيها دار صناعة وما زالت حتى أصبحت أهم مركز عسكري وتجاري على ساحل الأندلس الجنوبي . انظر ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ١٨٣ — ١٨٤ ؛ العذري : جغرافية ص ٨٢ — ٨٦ ؛ وانظر كذلك عن اتخاذها قاعدة للاساطيل الأندلسية ليفي بروفنسال : تاريخ ٣/١٣٦ ؛ وانظر كذلك الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٦٩ ص ١٧٨ وما بعدها ، وقد انتفع المؤلفان بهذا النص نفسه (ص ١٧٩ — ١٨٠) معتمدين في إيراد مضمونه على ليفي بروفنسال : إسبانيا الاسلامية في القرن العاشر ص ٨٥ — ٨٦ .

(٤) في ب : أصطولها ، بالصاد .

(٥) ما يورده المؤلف هنا حول تحول الأندلسيين عن مذهب الأوزاعي إلى مذهب الامام مالك ابن أنس وانتشار المذهب المالكي بفضل السلطان في الأندلس أمر شائع كثير التداول في كتب التاريخ والفقه ، ولو أنها تختلف حول الأمير الأندلسي الذي انتشرت المالكية برأيه واختياره ، فهي مرة تذكر عبد الرحمن الداخــل ومرة ابنه هشاما ومرة ثالثة الحكم بن هشام — كما نرى في هذا النص — والحقيقة هي أنه لا صحة لذلك ، بل كان انتشار المذهب المالكي لأسباب أخرى توسعنــا في شرح ظروفها في دراستنا عن « التيارات الثقافية المشرقية وأثرها في تكون ثقافة الأندلس » .

M. A. Makki: *Ensayo sobre las aportaciones orientales en la España Musulmana*, páginas 90-94.

وانظر المراجع المستخدمة في كتابة ذلك الفصل .

هشام على رأى الأَوْزَاعِيِّ (١) ومذهبه ، أقاموا على ذلك مُدَّةً من مائة سنة وعشر سنين ، ثم تحولوا عن ذلك إلى رأى مالك بن أنس ومذهب أهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة [١١ ا] وعَمَرَ بلاد الأندلس ، وذلك برأى الحَكَم واختياره ، وكان السبب فى ذلك أنه كان قد رَحَلَ فى مُدَّتِه ومدة أبيه إلى المشرق جِلَّةٌ من الفقهاء للحج وطلب العلم منهم زياد بن عبد [162] الرحمن اللخْمىُّ المعروف بشَبْطُونَ (٢) ويحيى بن مُضَرَ القيسىُّ (٣) وعيسى بن دينار (٤) وغيرهم ، فسمعوا مالكاً وأخذوا عنه وعادوا إلى الأندلس ، فوصفوا فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره وإمامته لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وانحراف النـاس إلى رأيه ، فانتشر رأى مالك من حينئذٍ بالأندلس ، ومالَ أهلُها عن رأى الأوزاعى بالـكلية .

---

(١) الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى (ولد فى بعلبك سنة ٨٨ / ٧٠٧ وتوفى فى بيروت سنة ١٥٧/٧٧٤) . (انظر فى ترجمته وكتبه دائرة المعارف الاسلامية ٥٤٥/١ (بقلم فنسنك) ؛ بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية : د. عبد الحليم النجار) ٣٠٧/٣ — ٣٠٨) وحول انتشار مذهبه فى الأندلس قبل غلبة المالكية على تلك البلاد انظر دراستنا المشار إليها فى الحاشية السابقة ص ٦٤ — ٦٧

(٢) زياد بن عبد الرحمن اللخمى « شبطون » تلميذ الامام مالك وأول من أدخل موطأه إلى الأندلس وكان أستاذ يحيى بن يحيى الليثى وموجهه للاخذ عن مالك . توفى سنة ٢٠٤ (٨١٩ — ٨٢٠) . انظر فى ترجمة بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ٦٢ — ٦٣ ، ٦٥ — ٦٦ وكذلك تعليقنا رقم ٢٢٦ ص ٤٩٥ على نص كتاب « المقتبس » لابن حيـان بتحقيقنا (ط. بيروت) .

(٣) ترجع شهرة يحيى بن مضر القيسى فى كتب التاريخ الأندلسى إلى سببين : الأول هو ما يذكر من أن الامام مالك بن أنس استفاد منه شيئا حول تفسير آية قرآنية والثـانى هو أنه كان ممن استشهدوا فى ثورة الربض الأولى سنة ١٨٩ (٨٠٤) وأمر الحكم الربضى بصلبه ، وعن ذلك من أول مثالب الحكم . ومع ذلك فإن دوره الحقيقى فى نشر المالكية كان متواضعاً جدا . انظر ابن القوطية تاريخ ص ٥١ ؛ ابن الفرضى ، رقم ١٥٥١ ؛ الحميدى ، رقم ٩٠٢ ؛ الخشنى : القضـاة ص ٦٤ ؛ ابن عذارى : البيـان ٧١/٢ ؛ المقرى : نفح ٣٤٤/١ ، ٩/٢ ؛ ليفى بروفنسال : تـاريخ ١٤٨/١ وكتابنا عن التيارات الثقافية » ص ٩٧ .

(٤) صحبة عيسى بن دينار (ت ٨٢٨/٢١٢) للامام مالك خطأ شائع تناقله كثير من المؤرخين الأندلسيين وغيرهم ، القدماء والمحدثين ، والصحيح أنه لم يلحق الامام مالكا ، وإنما تفقه على تلميذه المصرى عبد الرحمن بن القاسم . انظر حوله كتابنا عن « التيارات الثقافية » ص ٩٧ ، ١٣٥ — ١٣٦ ، وكذلك تعليقنا على نص ابن حيان : المقتبس رقم ٢٠٣ ص ٤٨٨ .

الزهرة الخامسة والثمانون :

كان أهـل الأندلس منذ فتحها العرب إلى مدة الخليفة عبد الرحمن بن الحكم دُونَ سِكَّةٍ(١) ، إنما كانوا يتعاملون بما يُجْلَبُ إليهم من دراهم أهل المشرق ودنانيرهم ، فكان المال قليلا لديهم عديما عندهم ، ومُعَوَّلُهُمْ على أثمانِ غَلَّةِ أرضِهِمْ من القمح والشعير والكَتَّانِ والزيت والحرير وسائر الحبوب إلى غلات معادنها وما أشبهها من فوائدها ، يحملُه أهلُ العُدْوَةِ عنهم فى البحر أيام المَصِيفِ ، فيأخذون به من عَيْنِهِمْ ما يتجاوزونه فى متاجرهم وبُيُوعاتهم . أقاموا على ذلك مدة من مائة سنة وخمس وعشرين سنة إلى أن سبق هذا الخليفة عبد الرحمن إلى ضرب الدنانير والدراهم ، فاتُّخِذَتْ بقرطبة السكة ، وقام

---

(١) هذا الخبر يتفق مع ما يذكره ابن سعيد فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » (٤٦/١) إذ يقول فى ترجمة عبد الرحمن بن الحكم نقلا عن الرازى إنه « أحدث بقرطبة دار السكة وضرب الدراهم باسمه ولم يكن فيها ذلك منذ فتحها العرب » . ولكننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نقبل هذا الرأى ، إذ كيف يمكن أن نصدق أن أهل الأندلس ظلوا يعتمدون على تلك الدنانير والدراهم المشرقية التى كان يأتى بها إليهم أهل العدوة مائة وخمسا وعشرين سنة ؟ وكيف رضيت بهذا الوضع دولة مستقرة قوية مثل بنى أمية فى الأندلس كانت أولى أمصار الاسلام فى نيلهـــا استقلالها السياسى والاقتصادى عن المشرق ؟ مع أن السكة وضرب النقود كانا دائمـــا من أول مظاهر الاستقلال والاستغناء ! . . . وفيما يتعلق بضرب النقود فى المشرق يذكر أبو الحسن على بن يوسف الحكيم فى كتابه « الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة » (بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مدريد ١٩٦٠ ص ٤٧) أن أول من ضرب الدينار والدرهم فى الاسلام هو عبد الملك بن مروان ، وقد علق الدكتور مؤنس على ذلك بأنه خطأ وأن النقود الاسلامية أقدم من هذا الخليفة الأموى بكثير . وأما فى الأندلس فإننا نرد كذلك هذا التاريخ الذى يحدده المؤلف هنا لبداية ضرب النقود واتخاذ السكة (وهو سنة ٨٣٢/٢١٧ وهو معنى قوله : بعد فتح الأندلس بمائة وخمس وعشرين سنة) . والذى نعرفه أن ضرب النقود بدأ فى الأندلس بعد فتحها بما لا يزيد على خمس سنوات ، فأول عملة نعرفها هى التى ضربها موسى بن نصير فاتح الأندلس فى طليطلة سنة ٧١٧/٩٨ وكانت دنانير ذهبية نقشت بالعربية واللاتينية ، إذ كان على وجهها كتابة « محمد رسول الله » تحيط بها عبارة الشهادة مترجمة إلى اللاتينية وعلى ظهرها نجمة مثمنة كتب عليها باللاتينية « ضرب فى إسبانيا » (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٦/١ — ٢٧ ؛ الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠٠ — ١٠١) . ولم يكن هذا شيئاً جديداً إذ أن موسى بن نصير كان قد ضرب من قبل عملة فى افريقية سنة ٩٣ (٧١٢) كانت أيضاً لاتينية عربية . وانظر مناقشة ليفى بروفنسال لهذه القضية فى تاريخه ٤١/٣ — ٤٤

ضربها منقوشةً باسمه مُقَرَّرَةً [١] على عياره ، إلا أنها لم تكثر فى مدته ، ولا غلبت على دراهم أهل العدوة . وكان المشير عليه باتخاذ السكة والمثيرُ لذكرها والهادى إلى منفعتها حارثَ بن أبى الشِّبْل [٢] .

الزهرة السادسة والثمانون :

ذُكِرَ أن أبا القاسم عباسَ بنَ فِرْنَاسَ [٣] — وكان عالماً مُتَفَنِّناً وفيلسوفاً حاذقاً وشاعراً مُفْلِقاً وكاتباً بليغاً ومُنَجِّماً مُحَقِّقاً جيد الاختراع كثير [163] الإبداع — احتال بقرطبة فى تطيير جُثْمَانِه ، فكسا نفسه الريش ومد لنفسه جناحَيْنِ على وزنٍ معلوم وتقديرٍ قَدَّرَه ، فتهيأ له أن استطار فى الجو من ناحية [٤] الرُّصَافَةِ وهى على ستة أميـال من قرطبة ، واسْتَعْلَى فى الهواء فحَلَّق فيه حتى وقع من مكان مطاره على مسافة بعيدة ، وساء على ذلك موقعه ، [١١ ب] لما تأذَّى من عَجْبِ ذَنَبِه ، إذ لم يحسن الاحتيالَ فى وقوعه ولم يقدِّرْ أن الطائر إنما يَقَعُ على زِمِكَّاهُ ، فَلَهَا عن ذلك [٥] . وقد كان أفزع من

---

(١) فى ب : معزرة .

(٢) عن حارث بن أبى الشبل متولى دار السكة أيام عبد الرحمن بن الحكم انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٢٥٧/١ . وكذلك نفس المؤلف : اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ص ٧٥ ، حاشية ٢ .

(٣) أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرنى (ت ٨٨٧/٢٧٤) انظر فى ترجمته وأخباره المقال الجيد الذى كتبه عنه الأستاذ إلياس تيريس سادابا فى مجلة الأندلس :

Elías Terés Sádaba: *'Abbās b. Firnās,* «Al-Andalus», vol. XXV, 1960, pp. 239-249.

وفى هذا المقال قائمة مستوفاة بالمصادر ، على أن هناك أخباراً كثيرة عنه فى المقتبس (بتحقيقنا ، ط. بيروت) وكثير منها جديد لم يكن يعرف من قبل . انظر ص ١٢٤ ، ٢٧٩ — ٢٨٧ والحاشية رقم ٢٧٩ ص ٥١١ وما ورد فيها من مصادر .

(٤) فى ب : نحو .

(٥) خبر تطيير عباس بن فرناس لنفسه ذائع تداولته الكتب ، انظر المقرى : نفح ٣٧٤/٣ ، ابن سعيد : المغرب ٣٣٣/١

عاين مَطارَه من أهل قرطبة ، فكثر تحدثهم عما عاينوه منه ولا يعلمون شأنه[١] .

الزهرة السابعة والثمانون :

قال المأمون لبعض ولده وقد سمعه يلحن فى كلامه : ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أَوَدَه ، ويزين مَشْهَدَه ، ويَفُلَّ حُجَجَ خَصْمِه ، ويُصَحِّحَ كتابَ حُكْمِه ، ويملك مجلس سلطانه ، بظاهر بيانه ؟ أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته فلا يزال الدهرَ أسيرَ كَلِمَتِه ؟ .

الزهوة الثامنة والثمانون :

كتب الكاتب البليغ أبو عبد الله بن عبد العزيز بن عَيَّاشٍ التُّجِيبيّ البُرْشَانِيّ[٢] كتاباً عن الخليفة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن فى شأن يهودى ، فقال فيه « يحمل على البر والكرامة » فقال له الخليفةُ يعقوبُ

---

(١) من مظاهر تحدث الناس عن ذلك بيت قاله معاصر عباس : مؤمن بن سعيد القيسى القرطبي :

يطم على العنقاء فى طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريش قشعم

(انظر نفح الطيب والمغرب فى الموضعين المذكورين فى الحاشية السابقة) . وقد تحدث إلياس تيريس أيضاً عن صدى هذه المحاولة فى الأدب الاسبانى . انظر مقاله « حول مطار عباس بن فرناس » فى مجلة الأندلس :

Elías Terés Sádaba: *Sobre el «vuelo» de ʿAbbās ibn Firnās*, «Al-Andalus», vol. XXIV, 1964, pp. 365-369.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التجيبي (والبرشانى نسبة إلى برشانة Purchena من عمل المرية) . ولد سنة ٥٥٠ (١١٥٥) أخذ عن السهيلى ونبغ فى الكتابة . استكتبه يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين سنة ٥٨٦ (١١٩٠) وتوفى بمراكش سنة ٦١٨ (١٢٢١) . انظر فى ترجمته ابن الأبار : التكملة رقم ٩٥٢ ، ١/٣٢٠ — ٣٢١ (ط. كوديرا) رقم ١٥٩٦ — ٢/٦٠٥ (ط. عزت العطار) ؛ إعتاب الكتاب رقم ٧٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٥ ؛ وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، ط. محمد سعيد العريان ص ١٩٠ — ١٩١ ، ٢٢١ ، ٢٣٨ — ٢٣٩ ؛ صفوان بن إدريس : زاد المسافر ص ٩٤ ؛ ابن سعيد المغرب ٢/٨١ — ٨٢ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ٢/٤٨٢ — ٤٨٧ وهناك رسائل بقلمه فى « مجموع رسائل موحدية » أرقام ٣٥ — ٣٧ .

المنصورُ : من أين يجوز لك هذا ؟ تقول فى كافر « يحمل على البر والكرامة » ؟ قال : ففكرت ساعة وعلمت أن الانفصال عنه يلزمنى ، فقلت : يا مولانا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وهو عامٌّ فى الكافر وغيره . قال : نعم ، هذه الكرامة ، فالمَبَرَّةُ من أين أخذتها ؟ فَسَكَتُّ ولم أجدْ جواباً . قال : فقرأ المنصور أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، [164] « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخْرِجُوكم من ديارِكُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ ... الآية (١) » . قال : فسررت بذلك وشكرته (٢) .

الزهرة التاسعة والثمانون :

دخل أبو دُلاَمَة (٣) على المهدى فأنشده أبياتاً أُعْجِبَ بها ، فقال له : سل يا أبا دلامة واحتَكِمْ وأفرِطْ ما شِئْتَ ! قال : كلبٌ يا أمير المؤمنين أصطاد به . قال : قد أمرنا لك بكلب ، وها هُنا بَلَغَتْ هِمَّتُكَ ، وإلى هنا انتهت أُمْنِيَّتُكَ ؟ قال : لا تعجل على يا أمير المؤمنين ، فإنه بقى على . قال وما بقى عليك ؟ قال : غلامٌ يقودُ الكلبَ . قال : قد أمرنا لك بغلام . قال : وخادمٌ تطبخ لنا الصيد . قال : وخادم تطبخ لك الصيد . قال : ودارٌ

(١) القرآن الكريم ، سورة الممتحنة ، آية ٨ .

(٢) ورد هذا الخبر فى ترجمة ابن عياش فى الإحاطة (٢/٤٨٤ — ٤٨٥) وقد نقله ابن الخطيب عن ابن خميس الذى يسند روايته لخاله ابى عبد الله بن عسكر (صاحب تاريخ مالقة) .

(٣) أبو دلامة زند بن الجون الكوفى مولى بنى أسد ، أدرك آخر زمن بنى أمية واتصل بأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور ، وكانوا يستطيبون مجالسته لفكاهته ونوادره . انظر فى ترجمته ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٥٤ — ٦٢ وابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٧٧٦ وتاريخ بغداد ٨/٤٨٨ ؛ أبو الفرج الإصفهانى : الأغانى ١٠/٢٣٥ وما بعدها . وذكره كثير فى كتب الأدب .

هذا وقد وردت القصة المثبتة هنا فى الأغانى ١٠/٢٣٦ — ٢٣٧ وفى الشعر والشعراء ص ٧٧٦ وفى نهاية الأرب للنويرى ٤/٣٧ — ٣٨ . على أن النويرى جعلها مع السفاح أو المنصور لا المهدى ، وهو شيء نستبعده إذ كان هذان الخليفتان أكثر جداً من ذلك .

نسكُنها . قـال : ودار تسكنها . قال : وجارية آوى إليها . قال : وجارية تأوى إليها . قال : بقى الآن المعـاشُ . قال : قد أقطعناك[١] ألف جريب عامرة وألف جريب غامرة . قال : وما الغامِرة ؟ قال التى لا تُعْمَرُ . قال : أنـا أُقْطِع أمير المؤمنين خمسين ألفاً فى فيافى [١٢ ا] بنى أسد . قال : قد جعلناها لك عامرةً كُلَّها . فقبَّل يَدَهُ وانصرف .

الزهرة التسعون :

قال سَلَمَةُ بنُ سَعيد[٢] : كنا عند مُعَاوِيَةَ بن أبى سفيان ، فقال : ودِدْتُ لو أن عندنا من يُحَدِّثُنا عمَّا مَضَى من الزمان هل يشبه ما نحن فيه أم لا ؟ قيل[٣] له : بِحَضْرَمَوْتَ رجل قد أتت عليه ثلاثمائة سنة . فأرسل إليه معاوية فأُتِى به ، فلما دخل عليه أَجَلَّهُ ، ثم قال له : ما اسمك ؟ قال له : أَمَدُ[٤] بن أَبَد . فقال له : كم أتى عليك من السنين ؟ قال ثلاثمـائة

---

(١) فى ب : أقطعنا لك .

(٢) هذا الخبر نموذج لكثير من الأخبار المشابهة التى ترد فى روايات القصاص والأخبـاريين حول بعض المعمرين ، وهى أخبار بينة الوضع والصنعة ، ويتضح هذا حتى فى أسمـــاء من تنسب إليهم تلك الأخبار ، مثل اسم « امد بن أبد » المذكور فى هذه الزهرة . على أن لهذه الأخبار قيمة فى بيان تصور أولئك القصاص والأخباريين لأحوال ما مضى من الزمان . والطريف أن معظم أولئك «المعمرين» الأسطوريين من أهل اليمن ، وأن كثيراً من أخبارهم مرتبط بذكر الخليفة الأول معـــاوية بن أبى سفيان . أما الخبر الوارد هنا فقد رأينا ما يشبهه فى كتاب «المعمرين» لأبى حاتم السجستانى (المنشور مع كتاب الوصايا لأبى حاتم أيضاً ، بتحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١) . فى هذا الكتاب خبران أحدهما عن معمر من جرهم (ذكر فى حاشية الأصل المخطوط أنه عبيد بن شرية الجرهمى) ومحاورة له مع معـاوية بن أبى سفيان (ص ١٠ — ١١) ثم قصة أخرى تروى عن عبيد بن شرية أيضاً ومحاورة أخرى له مع معاوية (٥٠ — ٥٢) ، وفى هاتين المحاورتين تفاصيل تتفق مع ما نسب هنا لأمد بن أبد ، وإن كانت الروايتان هناك تختلفان عما نجده هنا فى تفاصيل أخرى . وعن أمثال هذه القصص الأسطورية لتاريخ اليمن القديم انظر دراسة فرانز روزنتال عن «علم التاريخ عند المسلمين» ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٣) فى ب : فقال .

(٤) فى ب : أسد ، والاسم كما ورد فى ا أوفق للسياق .

سنة . ثم قال له : حدثنا عما مضى من الزمان ، هل يشبه ما نحن فيه اليوم ؟ فقال : نعم ، كأنه ما ترى : ليل يجيء من هاهنا ونهار يجيء من هاهنا (١) ويذهب [165] من هاهنا . قال : فأخبرنى عن أعجب ما رأيت . قال : رأيت الظَّعينةَ تخرج من بلاد الشام حتى تأتى مكَّةَ لا تحتاج إلى طعام ولا إلى شراب ، تأكل من الثمار وتشرب من العيون ، ثم هى الآن قَفْرٌ كما ترى (٢) . قال فأخبرنى عن خير المال . قال : عَيْنٌ خَرَّارةٌ ، فى تُرْبَةٍ خَوَّارَة . قال : ثم ماذا ؟ قال : فرس فى بطنها فرس تتبعها فرس . قال : فأين أنت عن الدينار والدرهم ؟ قال : حَجَرَانِ إن أخذت منهما نقصا وإن تركتَهُمَا لم يزيدا . قال : فأين أنت عن الغنم والإبل ؟ قال : ليسا مال مثلك ، إنما هو مال من شهدهما بنفسه . قال : فأين أنت عن الرقيق ؟ قال : غَبْنٌ مُسْتَفَادٌ ، وغَبْطٌ بالأوْتادِ (٣) . قال : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، تَرُدُّ علىَّ شبابى . قال : لا أقدر ! قال : فتُنَجِّينِي من النَّار وتُدْخِلُنِى الجَنَّةَ . قال : لا أقدر . قال : فلا أرى عندك دنيا ولا آخرة ! رُدَّنِى إلى بلدى . فأمر به فَرُدَّ إلى بلده .

الزهرة الحادية والتسعون :

كان بُرْهَانُ الدين البَلْخِيُّ (٤) يُضْرَبُ به المثلُ فى العلم والزهد ، وكان قد اختار سكنى دِمَشق ويقول : أَتَذَكَّرُ بها جَنَّةَ الفِرْدَوْس فبينما هو يدرس

---

(١) « ونهار يجيء من هاهنا » لم ترد فى ب .

(٢) يبدو من هذا الحديث وأمثاله فى كتب الأدب العربى القديم أن العرب كانت لديهم ذكريات عن ماضى بلادهم القديم تصورها أقل جدبا وأكثر خضرة ومياها وزرعا مما عرفوها فى جاهليتهم المتأخرة ، وهو تصور تصدقه الأبحاث والمكتشفات الأثرية .

(٣) فى ا : كالأوتاد .

(٤) أبو الحسن على بن الحسن بن محمد بن جعفر أو أبى جعفر البلخى الواعظ الزاهد المشهور ببرهان الدين البلخى . تفقه ببخارى وبرع فى الفقه والحديث فى بلاد ما وراء النهر ، ودرس بحلب ودمشق . وجعلت له دار الأمير طرخان بدمشق مدرسة سنة ٥٢٠ (١١٢٦) ، وهو أول من درس بها . وإليه تنسب المدرسة البلخية . وسفر بين نور الدين محمود بن زنكى هو وأسد الدين شيركوه =

يدرس بمدرسة المسجد الأعظم ويَعِظُ الناس إذ وصل إليه من أبلغه عن السلطانِ محمود بن زَنْـكى[(١)] ما لم يَحْمِلْهُ . فقال — والناس يسمعون — : ما بينى وبين ابن زنكى[(١)] إلا هذه السَّجَّادَة ! ورفع سَجَّادَتَهُ المُرَقَّعَةَ على كتفه واستوى خارجاً عن المدينة . قالوا : ولم يُخَلِّفْ وراءهُ ما يُتَشَوَّفُ إليه . فبلغ الخبر السلطان محموداً ، فعَظُمَ عليه ، فركب وسار حتى لحقه على أميال ، فتَرَجَّلَ وجاء إليه بنفسه وقال : [ب ١٢] هكذا يكون يا برهان الدين ؟ فقال له برهان الدين : أتستقدِرُ عَلَيَّ بسلطانك ؟ فقال : لو كان ذلك ما خرجت لك فى هذه الحـال ! وها أنا أرغَبُ إليك فى الرجوع ، فإن رجعت لى أحسنت[(٢)] ، وإن لم [166] ترجع لم أشْتَكِ منك إلا الجفاء ، ولا أعلم ذنباً أستحِقُّه به . فذكر له ما بلغه عنه . فأقسم أنه كَذِبٌ . فقال : أرجع إذن بشرط ألا يعاقب النَّاقِلُ . قال السلطان : بل بشرط أَلاَّ يُعْرَفَ من هو . فتصالحا ورجعا راجِلَيْنِ حتى أدخلَهُ المدرسةَ ، وحينئذ ركب إلى قصره .

الزهرة الثانية والتسعون :

أوصى عبدُ الملك بن مروان بنيه ، فقال[(٣)] : يا بَنِيَّ إن شرف الدنيا فى ثلاث : الشجاعة ، والمال ، والعلم ، فلا يخلُوَنَّ أحدُكُمْ من أحدها ، ومن

= وبين مجير الدين صاحب دمشق وذلك حينما قام نور الدين بحصارها . وتوفى سنة ٥٤٨ (١١٥٣) . انظر فى ترجمته ابن أبى الوفاء القرشي : الجواهر المضية فى طبقـات الحنفية ، ط . حيدراباد سنة ١٣٣٢ هـ . — ١ / ٣٥٩ — ٣٦٠ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤ / ١٤٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥/١ ٣٠ ؛ العماد الاصبهانى : خريدة القصر ، الجزء الأول من قسم شعراء الشام ، بتحقيق د. شكرى فيصل ١/٣٠٧ — ٣٠٩ وراجع الحاشية فى هذا الموضع .

(١) فى ب : زنكير . والسلطان نور الدين محمود بن زنكى توفى سنة ٥٦٩ (١١٧٤) . انظر عن حياته وأعماله الكتاب القيم الذى أفرده له الدكتور حسين مؤنس بعنوان «نور الدين محمود : سيرة مجاهد صادق» القاهرة ١٩٥٩ .

(٢) فى ب : « حسبت » .

(٣) هناك وصية لعبد الملك بن مروان لبنيه قريبة الشبه بما ورد هنا — وفيها أيضاً وصية للخليفة الاموى لبنيه بالحجاج الثقفى — فى كتاب الوصايا لابى حاتم السجستانى المنشور مع كتاب المعمرين له أيضاً ، بتحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ (ص ١٦٠ — ١٦١) .

استطاع كمالها فقد انقادت له الدنيا بزمامها ، وأعطته قيادَتها ، ومن خلا منهن فهو فى عدد البهائم التى لا تُذْكَرُ بخَصْلَةٍ ولا تُنْسَبُ إلى مَزِيّة ، أوصيكم بتقوى الله فإنها غنيمةٌ باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل ما قُدِّمَ فى المعاد ، وهو أحصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميــل الأمور ، وإياكم والبغى والتحاسد ففيهما هَلَكَ الملوك الماضون ، وذوو العز المكون . يا بَنِيَّ ، أخوكم مَسْلَمَةُ نابكم الذى عنه تَفْتَرُّون ، ومَجِنُّكُمْ الذى به تستجِنُّون ، اصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجاج فإنه الذى وطَّأ لكم هذا الأمر . كونوا أولاداً أبراراً ، وفى الحرب أحراراً ، وللمعروف منارا ، والسلام .

الزهرة الثالثة والتسعون :

أوصى الخليفة الحكم بن هشام[١] بن عبد الرحمن بن معاوية ابنه لما فَوَّضَ الأمر إليه وولاه عهده[٢] فقال : يا بُنَيَّ ، طِبْ نفساً بما يصير إليك

---

(١) لابد أن الامير الحكم عهد بهذه الوصية حينما اشتد به المرض في أواخر سنة ٢٠٦ هـ. (أبريل ٨٢٢) . ويذكر ابن عذارى (بيان ٧٧/١) أن الامير الحكم عقد البيعة يوم الاربعاء ١١ من ذى الحجة أى ثاني يوم عيد الاضحى (٧ مايو ٨٢٢) لابنه عبد الرحمن ثم من بعده لابنه الآخر المغيرة ، وذلك بعد أن استبعد عن ولاية العهد ابنه الاكبر هشاما حينما بلغه أنه كان يتمنى موته حتى يرثه . (انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ١٩٠/١) .

(٢) لم يرد فى المراجع الاندلسية القديمة شيء عن هذه الوصية التى تعد وثيقة على أعظم جانب من القيمة والخطر ، إذ هى أشبه بدستور للحكم وضعه الامير الحكم لابنه عبد الرحمن . والمؤرخ الوحيد الذى أشار إلى وجودها هو الاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه « دولة الاسلام فى الاندلس » الطبعة الرابعة ، نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٤٨ ، إذ نقل هذه الوصية عن مخطوطة « المقتبس » لابن حيان ، القطعة الخاصة بإمارتى الحكم وعبد الرحمن ، وهى قطعة كانت لدى المستشرق الراحل ليفى بروفنسال ، ولم يعرف عنها شيء بعد وفاته ، ونخشى أن تكون هذه القطعة الثمينة قد ضاعت إلى غير رجعة ، ويزيدنا هذا تقديراً لفضل الأستاذ عنان الذى احتفظ لنا بنص تلك الوثيقة ، وقد ذكر فى تعليقه عليها (حاشية رقم ٢) أنها وردت فى مخطوطة ابن حيان بروايتين مختلفتين للرازى ولمعاوية بن هشام الشبينسى ، إلا أنه خلطهما ونسق بينهما ، مما جعلنا لا نعرف الآن على أى =

من سلطاني ، وانبسط منه كيف شئت ، فقد مهّدْتُ لك الملك ، ووطّأْتُ[١] لك الدنيا ، وذلّلْتُ لك الأعداء ، وأمنت عليك الاختلاف والمنازعة ، فأولى الأمور بك وأزينُها لك حِفْظُ أهلك ، ومراعاة عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك ، فهم أولياؤك حقا ، وأنصارك صدقاً ، ومشاركوك فى حلوك ومُرّك ، فبهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وإن رأيت فيمن يرتقى من صَنَائِعك[٢] رجلا لم تنهض به سابقة ويَشِفّ بخصلة وتطمح به نفس وهمة فأعنه [١٣ ا] واختبره وقدّمه واصطنعه ، ولا يريبنّك خمولُ أوّليّته ، فإن أول كل شرف خارجيّة[٣] ، ولا تدعَنّ مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسىء بإساءته ، فإنك عند التزامك لهذين ووضعك لهما مواضِعَهُما يُرْغَبُ فيك ويُرْهَبُ منك ، وملاكُ ذلك كله أن تَتّقِيَ الله ما استطعت وتعدل فى أحكامك ، وتتخير من حُكّامك ، وإلى الله أكلك وإياه[٤] أستحفظك ، فقد هان الموت على إذ خلفنى مثلك .

= رواية من الروايتين اعتمد مؤلف «الزهرات» ، وعلى كل حال فإن التشابه بين نص «الزهرات» والنص الذى أورده الأستاذ عنان يؤكد صحة هذه الوثيقة وكونها منقولة عن أصل قديم ثابت ، لعله « المقتبس » لابن حيان .

(١) فى ب : ووطدت .

(٢) فى ب : صنعائك .

(٣) الخارجى هو الذى يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم . قال كثير عزة :

أبا مروان لست بخارجى　　　وليس قديم مجدك بانتحال

والخارجية هى الخيل التى لا عرق لها فى الجودة فتخرج سوابق . (انظر لسان العرب تحت المادة) ، فمعنى الخارجية هنا السبق والبروز بغير قديم .

هذا وقد اتبع عبد الرحمن بن الحكم ذلك المبدأ الذى وصاه به أبوه : مبدأ اصطناع بعض الرجال دون نظر إلى خمول أوليتهم ، مما نرى له شاهداً فى فعله بمحمد بن سعيد الزجالى (انظر ترجمة الزجالى فى القطعة التى نشرناها من «المقتبس» لابن حيان ، ص ٣٢ وما بعدها) .

(٤) « أكلك وإياه » ناقصتان فى ب .

الزهرة الرابعة والتسعون :

لما حضرت الوفاةُ عُمَرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه قال[١] : أُدْعُ لِي بَنِيَّ . فدعاهم وكانوا اثنى عشر ، فلما نظر إليهم دَمَعَتْ عيناهُ وقال : يا بَنِيّ ، بأبى[٢] مَنْ أتْرُكُهُمْ فُقَرَاء ! فقال له مَسْلَمَةُ بن عبد الملك : وما يمنعك أن تُغْنِيَهُمْ ؟ فوالله لا يرد ذلك بعدك أحد ! فقال له : يامسلمة ، ما كنت تَحَرَّيْتُ فيه[٣] فى الدنيا ، أفأَصْلَى به فى الآخرة ؟ بَنِيَّ رجلان : إما طائع وإما عاص ، فإن يكن طائعاً فالله يرزقُهُ من حيث لا يحتسب ، وإن يكن عاصياً فلستُ أعينُ على عصيانه . ثم قال لهم : يا بَنِيّ ، أتَرْضَوْنَ أن تكونوا أغنياء فى الدنيا ويدخُلَ أبوكُمُ النارَ على ذلك فى الآخرة غداً[٤] ؟ قالوا : لا ! قال لهم : أرجو ألا تَلْقَوْ[٥] امرءاً[٦] إلا وهو مُحِبٌّ فيكم لأنه ما ناله أبوكم بِشَرّ ، اذهبوا عصمكم الله ، رزقكم الله ، لا أفقركم الله . فلَمْ يُرَ أحدٌ من ذُرِّيَّته وهو فقيرٌ قَطُّ .

الزهرة الخامسة والتسعون :

وَقَّعَ المعتصم بالله أبو يحيى بن معن بن صُمادِحَ التُّجِيبِيُّ صاحبُ المَرِيَّة[٧]

---

(١) ورد مثل هذا الخبر فى العقد الفريد لابن عبد ربه (٤/٤٣٩ — ٤٤٠) مع بعض الفروق ، إذ لم يرد فيه ذكر للحوار بين عمر ومسلمة بن عبد الملك . وكذلك فى كتاب « الوصايا » لأبى حاتم السجستانى ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) فى ا : بأبى تركتهم ، وفى ب : من أتركهم .

(٣) فى ا : به . والمقصود ما كنت تحرجت فيه .

(٤) « غدا » ناقصة فى ب .

(٥) فى ا : أرجو أنكم لا تلقون امرءاً .

(٦) فى الخبر الوارد فى العقد (٤/٤٤٠) : « إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله » .

(٧) أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح من ملوك الطوائف صاحب مدينة المرية ، حكمها بعد وفاة أبيه سنة ٤٤٣ (١٠٥١ — ١٠٥٢) حتى دخول المرابطين عليه بلده فى ٤٨٤ (١٠٩١) . =

فى رُقْعَة من ألحَّ عليه فى المزيد من أَوْغَالِ[١] الجند المرتزقين من ديوانه[٢] : «أنتم عالة لا آلة ، ومئونة لا معونة ، و « إنما نُطْعِمُكُمْ لوجه الله لا نريد منكم جَزَاءً ولا شُكُوراً[٣] » » .

ووقع الخليفة الناصر عبد الرحمن بن محمد على كتاب عُثِرَ عليه بقرطبة دَسَّهُ إلى حضرته أميرُ إفريقيَّةَ مَعَدُّ بن إسماعيل الشِّيعىُّ[٤] إذ كانت بينهما منافَرَةٌ وعداوة أفحش فيه السب وأكثر الذَّمَّ : « يا هذا ، عرفتنا فَسَبَبْتَنَا ، وجهلناك نحن فأمسكنا عنك » لم يَزِدْهُ على هذه كلمة واحدة[٥] . قيل :

= انظر فى أخباره كتاب التبيان (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين) تحقيق ليفى بروفنسال (فى مواضع عديدة . راجع الفهرس) ؛ ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٤٧ — ٥١ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٣٥ — ١٣٧ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ٢ / ٧٨ — ٨٨ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/١٩٥ — ١٩٨ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٢/٢٢٦ — ٢٤٢ ؛ ابن دحية : المطرب ص ٣٤ — ٣٨ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ٤/١٣١ — ١٣٦ ؛ ابن عذارى : البيان ٣/١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٩٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٩٠ — ١٩٢ ؛ المقرى : نفح (فى مواضع عديدة ولا سيما فى المجلد الثالث) ؛ وانظر برتو إى فيفى : ملوك الطوائف Prieto y Vives: *Los reyes de Taifas*, Madrid, 1926, pp. 61-62.

(١) جمع وغل (بفتحة فسكون) والوغل هو الضعيف الساقط المقصر فى الأشياء .

(٢) يتفق هذا الخبر فى دلالته مع ما يلح عليه المؤرخون من إخلاد المعتصم بن صمادح إلى الدعة وعزوفه عما نشب فيه أمثاله من ملوك الطوائف من فتن وحروب .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الإنسان ، آية رقم ٩ .

(٤) هو المعز لدين الله الفاطمى رابع الخلفاء الفاطميين ولد بالمهدية سنة ٣١٨ أو ٣١٩ (٩٣٠ — ٩٣١) ، وولى الخلافة بعد موت أبيه سنة ٣٤١ (٩٥٢) ودخلت جيوشه مصر بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ (٩٦٩) وانتقل هو إلى مصر بعد ذلك فى ٣٦٢ ، وفيها توفى سنة ٣٦٥ (٩٧٥) .

(٥) أورد المقرى فى النفح (٣/٥٥٨) والثعالبى (يتيمة الدهر ، نشر الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ١/٣١٠) كتاباً شبيهاً بهذا : « أما بعد ، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك » إلا أنه نسبه إلى « المروانى صاحب الأندلس » دون تحديد إلى « نزار العبيدى » ، ونزار هذا هو الخليفة الفاطمى العزيز بالله بن المعز ، ولو صح ذلك فلابد أن يكون الخليفة المروانى المشار إليه هو الحكم المستنصر لا عبد الرحمن الناصر ، كما جاء فى الخبر هنا . ويبدو لنا أن ما ساقه صاحب الزهرات أصح ، لا سيما إذا ذكرنا أن الحكم المستنصر كان مقتنعا بصحة نسب الفاطميين ، بل إنه سجل ذلك فى تأليف له حول أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب (انظر ابن عذارى : البيان ١/١٥٨ وانظر دراستنا عن « التشيع فى الأندلس » ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ ص ١٢٥) .

فكان هذا أبْلَغَ ما كُتِبَ فى معناه ، وفيه إشارة إلى أنَّهُ مُدَّعٍ فى نَسَبِه وأنه مجهول غير معروف ، ومن لا يُعْرَفُ لا تُعْرَفُ مناقِبُه ولا مثالبه .

وَوَقَّعَ [١٣ ب] الأمير ذو الرياسَتَيْنِ عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبى عامر المَعَافِرىّ (١) فى كتاب ورد عليه من الأمير مجاهد العامرى صاحب دانية (٢) ومولى جِدِّه قال فيه منه (٣) : [من الكامل]

سَبَّتْ نِزَارَ عَبِيدُها فَعَذَرْتُها شِيمُ العبيدِ مَسَبَّةُ الأحرارِ

ووقع ابراهيم بن العباس الصُّولِىُّ (٤) وزير المتوكِّلِ فى ظهر كتاب ورد من بعض العمال بذم رجل ومدح آخر ، فقال : «إذا كان للمحسن من الحق ما يُقْنِعُه ، وللمسىء من النكال ما يَقْمَعُه ، بذل المحسن الحق عليه رغبة ، وانقاد المسىء للحق عليه رهبة» . قال : فوثب الناس عليه يقبِّلون يَدَيْه .

---

(١) عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) بن المنصور بن أبى عامر الملقب بالمنصور ذى السابقتين (لا الرياستين كما جاء فى النص هنا) هو حفيد الحاجب المشهور المنصور بن أبى عامر ، اجتمع على تقديمه صقالبة شرق الأندلس فى بلنسية فى سنة يضطرب فيها المؤرخون بين ٤١٢ و ٤١٧ (١٠٢١ و ١٠٢٦) . وقد طالت إمارته فى بلنسية حتى ٤٥٢ (أواخر ١٠٦٠ أو أوائل ١٠٦١) انظر ابن عذارى : البيان ٣/١٦٤ — ١٦٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال ص ٢٢٤ ؛ وبريتو فيفس : ملوك الطوائف ص ٣٩ — ٤١ .

(٢) أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامرى أكبر ملوك الطوائف من الموالى الصقالبة العامريين فى شرق الأندلس ، استقل بحكم دانية وجزر البليار منذ الفتنة فى نحو سنة ٤٠٠ (١٠٠٩) ، حتى وفاته فى ٤٣٦ (١٠٤٥) .

(٣) ذكر ابن سعيد (المغرب ١/٣٣٢) والمقرى : نفح (٤/١٣٢) أن مجاهداً كان قد كتب إلى المنصور عبد العزيز رقعة لم يضمنها غير بيت الحطيئة :

دع المكارم لا ترحـل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطـاعم الكاسى

فأغضبته وأقامته وأقعدته حتى حضر وزيره وكاتبه أبو عامر ابن التـاكرنى فكتب عنه :

شتمت مواليهـا عبيد نزار شيم العبيـد شتيمة الأحرار

(٤) ابرهيم بن العبـاس الصولى الكاتب المشهور كتب للمعتصم والواثق والمتوكل عاش بين سنتى ١٧٦ و ٢٤٣ (٧٩٢ — ٨٥٧) . انظر فى ترجمته وآثاره بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية) ٢/٤٢ — ٤٣ .

ووقع سليمان [169] المستعين(١) بن الحكم بن سليمان بن الناصر عبد الرحمن بن محمد على كتاب رفعه إليه أبو القاسم بن مُقَدَّمٍ(٢) يشكو إليه ضيق حاله ، وكان معه فى مَحَلتِهِ فى تحوُّلِه مع البربر بالأندلس بشعر أوله(٣) :

[من بحر الوافر]

أَهَلْ تَرْضَى لعبدِكَ أن يُذَالا وأنْ يبقى على الدُّنْيا عِيالاَ

فبعث إليه بصلة وكسوة ووقع على ظهر كتابه : [من الوافر]

معاذَ اللهِ أن تبقَى عِيالا وأن نرضَى لمثلِكَ أن يُذَالا
وكيف وأنت مُنْقَطِعٌ إلينا وقد عَلِقَتْ يداكَ بنَا حِبَالا
وهاءكَ من نوافِلِنَا يسيراً ولكنَّا انْتَقَيْنَاهُ حَلالا

ووقع زاوى بن زيرى بن مَنَاد الصِّنهاجِىُّ(٤) كَبْشُ الحروبِ ومُهَوِّنُ الكروب على رقعة خاطبه بها المرْتَضَى بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد(٥) لما نزل عليه بحضرة غَرْنَاطَةَ بالعساكر الكثيرة والجنود الوافرة من الموالى العامريين وغيرهم من أمراء الأندلس ووجوهها ومن كان

---

(١) سليمان المستعين من خلفاء الفتنة البربرية ثار فى سنة ٤٠٠ (١٠١٠) على محمد بن هشام المهدى ونشبت بين الفريقين حروب هائلة تداولا فيها الخلافة حتى قتل سليمان على يد على بن حمود الحسنى سنة ٤٠٧ (١٠١٦) .

(٢) فى الحلة السيراء (١١/٢) : . . . بن مقدام ، ولقبه هناك بالقاضى .

(٣) ورد الخبر والأبيات كما سبق أن ذكرنا فى الحلة السيراء لابن الأبار ١١/٢ — ١٢

(٤) عن زاوى بن زيرى الصنهاجى انظر ما سبق أن كتبناه فى الحاشية رقم ٢ ص ٣٠

(٥) عبد الرحمن بن محمد المروانى الملقب بالمرتضى . كان قد لجأ فى سنوات الفتنة البربرية إلى بلنسية حيث قام بأمره خيران العامرى صاحب المرية ومنذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة فى سنة ٤٠٧ (١٠١٧) . وفى العاشر من ذى الحجة سنة ٤٠٨ (٢٩ ابريل ١٠١٨) بايعاه على الخلافة وجمعا له جيشا كبيراً انضم إليه بعض الافرنج (من قومسية برشلونة) وساروا إلى قرطبة لمحاربة الخليفة العلوى بها القاسم بن حمود الحسنى . إلا أن المرتضى عرج بمشورة منذر وخيران على غرناطة قبل قرطبة لمحاربة البربر بها . وكان على غرناطة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، فخرج الصنهاجيون فأوقعوا به هزيمة منكرة قتل فيها ومزق جيشه وذلك فى سنة ٤٠٩ . انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٣٢٨/٢ — ٣٣١ والمراجع المذكورة .

معهم من النَّصَارَى الإِفْرَنْجِيّين يَدْعُوه فيها إلى الطاعة ويُجْمِلُ مَوْعِدَهُ إن فاء إليها . فوقع زاوى على ظهر رقعته : «قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون . . . إلى آخر السورة» (١) ؛ فلما بلغت المرتضى أعاد عليه كتاب وعيد وتهديد ، فلمّا قَرَأَهُ زاوى بن زيرى وقع على ظهره : «ألهاكُمُ التكاثُرُ ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون (٢)» لم يزدهم [١١٤] على هذا شيئاً ؛ فازداد المرتضى غيظاً ، وناشبه القتال ، فاقتتلوا أياماً خارج غرناطة ، وزاوى يُحْكِمُ التَّدْبيرَ والمقدارُ يساعدُه إلى أن انهزم عسكر المرتضى وكان فيه وجوهُ الأندلس وجُلُّ أمرائها ، فطاروا على وجوههم مُسْلِمُوهُمْ وإِفْرَنْجُهُمْ لا يلوى أحدٌ على أحد ، وصُرِعَ المرتضى [170] فى ضَنْكِ تلك المضــايق ، وهو يروم الفرار إلى وادى آش (٣) ، ووقع البرابر من صنهاجة ومن كان معهم بغرناطة من نهب تلك المحلات على ما لا كِفاءَ له اتساعاً وكثرة ، وحِيزَتْ فساطيطُ الأمراء ومضارب الرؤساء التى كانوا يتباهون بها إذ كانوا قد تَنَاغَوْا (٤) فى المباهاة ، وجاءوا مجىء من لا يشكُّ فى الظفر ، فساقوا مع أنفسهم رفيعَ الحلية وفاخرَ الزينةِ وفى أَشَكِّ (٥) العُدَّةِ وأوفى العَدَدِ . وأول من انحاز من العسكر منذرُ بنُ يحيى التُجِيبىُّ صاحب بلنسية ودانية (٦) ، ثم

(١) سورة الكافرون . هذا وقد ورد ذكر هذه المكاتبة فى ابن بسام : الذخيرة ق ١ . ١/٣٩٧—٣٩٨ (نقلا عن ابن حيان) وفى البيان المغرب ٣/١٢٥—١٢٦ ، وفى الإحاطة لابن الخطيب (ط. عنان) ١/٥٢٤ ؛ وقد ورد توقيع زيرى الثانى فقط فى كتاب التبيان (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين) ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) سورة التكاثر .

(٣) وادى آش Guadix تقع على مسافة ٥٣ كم . شمال شرق غرناطة . انظر دائرة المعارف الإسلامية (٢/١٨٩ ، مادة بقلم زايبولد) .

(٤) فى ا : تناهوا ، وفى ب كما أثبتنا ، وهو أجود ومعناه تنافسوا .

(٥) فى ا : أشد .

(٦) أخطأ المؤلف هنا إذ ذكر أن منذر بن يحيى كان صاحب بلنسية ودانية ، وإنما كان صاحب سرقسطة والثغر الأعلى . وكان منذر واليا على تطيلة أولا فى سنة ٣٩٦ (١٠٠٥ — ١٠٠٦) فى أيام عبد الملك المظفر بن المنصور العامرى . ثم عهد إليه سليمان بن الحكم المستعين بولاية سرقسطة=

انقلع بعده الأمير خيران العامرى صاحب المرية ثم انتقل بعده (١) الأمير سليمانُ بنُ هُودَ الجُذَامِيُّ صاحب سرقسطة والثغر الأعلى (٢) بمن كان معه من الناس ومن مَدَدِ الفِرَنْجَة ؛ وصبر العامريون حول المرتضى قليلا حتى استحرَّ القتل فيهم وصُرِع كثيرٌ ؛ وجرت بهذه الوقيعة (٣) على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقَرُّوا بالإدبار ، وباءوا بالصَّغارِ ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

الزهرة السادسة والتسعون :

حكى أن شقيقاً البَلْخِيّ (٤) قال يوما لحاتم (٥) : منذ كم صحبتنى يا حاتم ؟ قال : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال شقيق : فماذا تَعَلَّمْتَ منى فى هذه المدة ؟

= سنة ٤٠٠ ، وبقى حاكما للثغر الأعلى كله حتى وفاته سنة ٤١٢ (١٠٢١—١٠٢٢) . (انظر العذرى : جغرافية ص ٤٨) . أما بلنسية فى ذلك الوقت فقد كانت تحت حكم الخصيين الصقلبيين مبارك ومظفر العامريين ، وأما دانية فقد كانت تحت حكم مجاهد بن عبد الله العامرى .

(١) من « الأمير خيران » حتى « . . . بعده » ناقص فى ب .

(٢) لم يكن سليمان بن هود الجذامى فى ذلك الوقت أميراً على سرقسطة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الحاشية السابقة ، بل كانت إمارته لا تتجاوز لاردة وتطيلة من مدن الثغر الأعلى ، وكان تابعاً لمنذر التجيبى . وقد طال عمره حتى إذا قتل منذر بن يحيى بن منذر صاحب سرقسطة والثغر فى سنة ٤٣٠ (١٠٣٨) دخل سليمان سرقسطة وآل إليه حكم الثغر الأعلى كله ، وأسس فيه دولة بنى هود التى ظلت تحكم هذه الجهة حتى سقوط سرقسطة فى يد الملك النصرانى الأذفونش (ألفونسو الملقب بالمحارب ، ملك أرغون) سنة ٥١٢ (١١١٨) .

(٣) فى ا : الواقعة .

(٤) أبو على شقيق بن ابرهم الأزدى البلخى صاحب ابرهيم بن أدهم ، من أكبر مشايخ الصوفية . توفى سنة ١٥٣ (٧٧٠) . انظر ترجمته فى طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ، بتحقيق الأستاذ نور الدين شريبة ، ص ٦١ — ٦٦ ، ٩١ والمراجع المذكورة فى حاشية ذلك الموضع .

(٥) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم البلخى ، أحد من اشتهروا بالزهد والورع وله كلام مدون فى التصوف . أخذ عن شقيق البلخى وقدم بغداد فى أيام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١/٨٥٥) واجتمع به (انظر السلمى : طبقات الصوفية ص ٦١ ، ٦٣ ، ٩١ — ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٤٦ والمراجع المذكورة هناك . وانظر بصفة خاصة تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، ترجمة رقم ٤٣٤٥ — ٨/٢٤١ — ٢٤٥) . أما الخبر الوارد هنا فقد جاء فى حلية الأولياء لأبى نعيم الإصبهانى (٨/٧٩ — ٨٠) ولكن بتفاصيل مختلفة بعض الاختلاف . فعدد المسائل فى الحلية ست بدلا من الثمان التى جاءت فى الزهرات .

فقال : ثمان مسائل . فقال شقيق : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهب عمرى معك يا حاتم ! فقال : يا سيدى ، ما تعلَّمْتُ غيرها ولا أُحِبُّ الكذِب ! فقال شقيق : اذكُرْ هذه المسائل حتى أسمعها . فقال حاتم : نعم يا سيدى . إنى نظرت فرأيتُ كل واحد من هذا الخلق يُحِبُّ محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر ، فإذا وصل إلى القبر فارق محبوبه ، فجعلت [171] الحسنات محبوبى فإذا دخلت قبرى دخل معى محبوبى . قال : أحسنت يا حاتم ، فما الثانية ؟ قال : نظرت فى قول الله عز وجل «وأما من خاف مقام رَبِّهِ وَنَهَى [١٤ ب] النفس عن الهوى ، فإنَّ الجَنَّةَ هى المأوَى (١) » فعلمت أنه الحق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى اسْتَقَرَّتْ على طاعة الله تعالى . قال : أحسنت يا حاتم ، فما الثالثة ؟ قال : نظرت إلى هذا الخلق ، فرأيت كلَّ مَنْ عندَه شىء له خَطَرٌ يحفظُهُ ويبخل به ، فرأيت الله تعالى يقول « ما عندكم ينفَدُ وما عند الله باقٍ (٢) » فخرجت عما وقع إلى من ذلك ابتغاء ثواب الله . قال : أحسنت يا حاتم ، فما الرابعة ؟ قال : رأيت كل واحد من هذا الخلق يَرْجِعُ إلى حَسَبٍ ونَسَبٍ ، فرأيت الله تعالى يقول « إن أكرَمَكُمْ عند الله أتقاكم (٣) » فأعْمَلْتُ نفسى فى التَّقْوَى حتى أكون عند الله كريماً . فقال : أحسنت يا حاتم ، فما الخامسة ؟ قال : رأيت هذا الخلق يَطْغَى بعضُهُمْ على بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وأصل هذا الحسد كله ، فَرَأَيْتُ الحسَدَ (٤) واجْتَنَبْتُ الخلق ، وعلمت أن القِسَمَ من عند الله تعالى . قال : أحسنت يا حاتم ، فما السادسة ؟ [قال :] (٥) رأيت هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويقاتل

---

(١) سورة النازعات ، آية رقم ٤٠ .
(٢) سورة النحل ، آية رقم ٩٦ .
(٣) سورة الحجرات ، آية رقم ١٣ .
(٤) كذا ، ولا معنى لها ، وربما كان الصواب « فرميت » ، أو « فطرحت الحسد » وهكذا جاء فى حلية الأولياء (٨/٨٠) .
(٥) زيادة يقتضيها السياق .

بعضهم بعضاً ، فرأيت الله تعالى يقول « إن الشيطان لكم عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً[(١)] » فعادَيْتُه وَحْدَهُ واجتهدت فى أَخْذِ حِذْرِى منه ، لأن الله تعالى قد شهد عليه بالعداوة ، فتركت عداوة الخلق . قال : أحسنت يا حاتم ، فما السابعة ؟ قال : رأيت كل واحد من هذا الخلق يطلب هذه الكِسْرَةَ ، فيبذُلُ نفسَهُ ويدخل فيما لا يَحِلُّ ، فرأيت الله تعالى يقول « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رِزْقُهَا[(٢)] » فعلمت أنى أحد من هذهِ الدَّوَابِّ التى على الله رزقها ، [172] فاشتغلت بما لله علىَّ وتركت مالى عنده . فقال : أحسنت يا حاتم ، فما الثامنة ؟ قال : رأيت هذا الخلق متوكِّلِينَ هذا على صَنْعَتِه وهذا على تجارته وكل مخلوق متوكِّلٌ على مخلوق ، ورأيت الله تعالى يقول « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على الله فهو حَسْبُه[(٣)] » فتوكلت على الله فهو حسبى . فقال شقيق : يا حاتم ، وفقك الله ، فإنى نظرت فى علم التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ والزَّبُورِ والفُرْقَانِ ، فرأيته يدور على هذه المسائل ، فمنِ اُسْتَعْمَلَها فقد استكمل الكتب الأربعة .

الزهرة السابعة والتسعون :

حُكِىَ عن مَعْرُوفٍ الكَرْخِىِّ[(٤)] أنه جلس يوماً على شاطىء دجلة وحوله جماعة [١٥ ا] من تلامذته إذ نظروا إلى قوم[(٥)] بإزائهِمْ يتغَنَّوْنَ بالعُودِ ، ويتعاطَوْنَ

(١) سورة فاطر ، آية رقم ٦ .
(٢) سورة هود ، آية رقم ٦ .
(٣) سورة الطلاق ، آية رقم ٣ .
(٤) أبو محفوظ معروف بن الفيرزان أو فيروز الكرخى (نسبة إلى كرخ بغداد) . كان أحد مشاهير الزهاد والصوفية . توفى سنة ٢٠٠ (٨١٥ — ٨١٦) كما ذكر الخطيب البغدادى أو بعدها بقليل . انظر ترجمته فى تاريخ بغداد رقم ٧١٧٧ ، ١٣/١٩٩ — ٢٠٩ ؛ السلمى : طبقات الصوفية ص ٨٣ — ٩٠ ؛ حلية الأولياء ٨/٣٦٠ — ٣٦٨ ؛ والمراجع الأخرى المذكورة فى حاشية هذا الموضع من نشرة شربية لطبقات الصوفية .
(٥) فى ب : قومهم ، وقد اخترنا القراءة الواردة فى ا .

ماءَ العنقودِ . فقالوا : أيها الأستاذ ، أما ترى اجتراء هؤلاء على الله ؟ اُدْعُ الله عليهم . فقال معروف : اللهُمَّ كما فرَّحْتَهُمْ فى الدنيا فَفَرِّحْهُمْ فى الآخرة . فقالوا : سألناك أن تدعُوَ عليهم فدعوت لهم ! قال : نعم ، إنه إن فَرَّحَهُمْ فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا .

الزهرة الثامنة والتسعون :

خرج الحسن بن علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه ذات ليلة ، فنظر إلى النجوم تُزْهِرُ ، فحمد الله وسَبَّحَ واعْتَبَر ، ثم قال فى آخر كلامه : اللهم لا تُحْوِجْنِى إلى أحد من خلقك ! فسمعه أبوه رضى الله عنه ، فقال : تطلب من الله شيئاً لم يُعْطَهُ الصَّفْوَةُ من أنبيائه ؟ إنما قل : اللهم لَيِّنْ لى قلوب عبادك .

الزهرة التاسعة والتسعون :

كان سعدُ بن عُبادَة (١) رضى الله عنه يدعو بهذا الدعاء : اللهم إنه لا شَرَفَ [173] إلا بِفَعَالٍ ، ولا فعال إلا بمال ، ولا مال إلا من رزقك ، فارزقنى من فضلك رزقاً كثيراً طيباً واسعاً (٢) مباركاً فيه تبلغنى به شرف الدنيا والآخرة (٣) .

---

(١) اقتباس المؤلف هنا شيئاً من كلام الصحابى المعروف سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى وهو يشرف على الانتهاء من كتابه يرجع إلى التبرك بذكر هذا الصحابى الجليل الذى كان ملوك بنى الأحمر الغرناطيون ينحدرون من نسله كما هو معروف وسوف يكرر المؤلف فى خاتمة الكتاب إشارة إلى ذلك فى حديثه عن السلطان محمد الغنى بالله إذ سيطلق عليه لقب « سلالة سيد الأنصار » .

(٢) هذه الكلمة ناقصة فى ب .

(٣) وجدنا شبيهاً بهذا الدعاء ، إلا أنه جاء منسوباً إلى أحد الأعراب عند الكعبة . وهذا نصه كما نص عليه ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٣/٤٢٣) : « اللهم لا شرف إلا بفعال ولا فعال إلا بمال ، فأعطنى ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة » .

الزهرة المائة :

قيل لأعرابى : أتحسن أن تدعُوَ ربك ؟ قال نعم . قيل : فادْعُ . فقال : اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك ، فلا تَحْرِمْنَا الجَنَّةَ ونحن نَسْأَلُكَ .

* * *

فنسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم ، ألاَّ يحرِمْنَا الجنة ونحن قد سألناه [١] ، ورجوْنا فضله وأمَّلْنَاه [٢] ، كما لم يحرمنا فى هذه الجزيرَة الأندلُسِيَّة جَنَّةَ الدنيا وسوغنا فيها رفاهية العيش وطيب المَحْيَا ، فمصرنا والحمد لله هو قيروان الأمصار ، وعصرنا فيه بفضل الله هو خير الأعصار ، وطاعتنا فيه مُفْتَرَضَةٌ علينا ونِعَمَ الافْتِخَارُ ، لسلالة سيد الأنصار ، فالخيرات عندنا موفورة ، والأرزاق مُسْتَدِرَّةٌ [٣] ، والمِنَّةُ [٤] دائمة بحول الله ومُسْتَمِرَّة ، وكلمة الإسلام فيها ثابتة إلى يوم الدين ومُسْتَقِرَّة ، ورعيتها فاقت [٥] رعايا الملوك فى الثراء والسعة ، واغتبطت بالاسْتِذْرَاء فى كنف الأمن [٦] والدعة ، فَفَشَتِ العِمَارَةُ ، وحَسُنَتِ الشَّارَةُ ، ونَمَتِ المكاسِبُ ، وفَرُهَت [٧] المَرَاكِبُ ، وعزت الجوانب ، وتَرَتَّبَتِ المراتِبُ ، وأُجْزِلَتِ المواهب ، وخَفَّتِ [٨] النَّوائِبُ ، وتألَّفَتْ على

(١) فى ب : أرسلنا .
(٢) فى ب : وأملنا .
(٣) كذا فى ا ، وفى ب : مستورة ، والأول أصح .
(٤) فى ا : والأمانة ، وما جاء فى ب أصح .
(٥) فى ا : أفاقت .
(٦) هاتان الكلمتان ناقصتان فى ا .
(٧) فى ا : وصرعت ، والصواب ما ورد فى ب .
(٨) فى ا : وتحدقت .

الطاعة المذاهب ، فحالنا فيها — معشر المسلمين — أحسن الناس حالا ، وأعمهم صلاحاً وأعدلهم سيرة ، وأقلهم جُناحاً ، وزماننا فيها أبهج (١) زمان ، فليس له من ثان ، ووطننا والحمد لله أبعد وطن عن السوء وأدْفَعُهُ (٢) لِلْحِدْثَان ، وذلك كله بسعادة مُدَبِّرِ شأنِها ومُقيمِها ، إنسان عين الوجود من إقْلِيمِها ، كافى رأينا (٣) وكافِلُه ، [174] العميمة خيراته ونوافله ، المكابد (٤) فيها بخاصة نفسه لتَيّارِها ، والمدارى بحسن سياسته الناجحة لِطَائِفِ كُفَّارِها ، فهـا نحن فيها بين (٥) بحر متلاطم الأمواج ، وسِيفِ (٦) عَدُوّ وافر الجموع كثير الأفواج ، وهو حفظة الله (٧) وخلد ملكه يسهر فى مصالحنا ونحن هاجِعون ، ويجهدُ نفسه النفيسةَ ونحن فى ظل العافية وادعون ، فإلى الله عز وجل نبتهل فى أن يهب لنا من العقول ما نقدِرُ به قَدْرَ سلطـانه العزيز ، وأن يُبْقِيَهُ فى الحمى المنيع والحرز الحريز ، وألا يُعْدِمَ منه هذه الكلمة المحَمَّدِيَّةِ جامع شملهـا ، وحاملها من المناهج القويمة (٨) حَقَّ حَمْلِها .

اللهم إن الدعاء لأمير المؤمنين (٩) ، وخليفة رب العالمين ، فرض على جميع المسلمين ، فأَقِرّ عَيْنَهُ فى الأهل والملك والأحفاد والبَنِينَ . اللهم أوْزِعْنَا شُكْرَ ما أنعمت به علينا من يمن خلافته العادلة ، وتول جزاءه عنا ، وهب له من

---

(١) فى ا : أنجح .
(٢) فى ب : وأبعده ، وفى ا : وأرفمه ، ولعلها محرفة عما أثبتنا .
(٣) فى ا : السماء ، وفى ب : رأسنا ، ولعلها محرفة عما أثبتنا .
(٤) فى ا : الكايد .
(٥) فى ا : من .
(٦) فى ا : وبين . والأصح ما ورد فى ب والسيف بكسر السين هو الشاطىء .
(٧) فى ا : مكان حفظه الله : أبقاه .
(٨) فى ب : القوية .
(٩) لا نعرف أن بنى الأحمر كانوا يتسمون بإمرة المؤمنين ولا بالخلافة ، بل المعروف أنهم كانوا يكتفون بالتسمى بلقب «أمير المسلمين» . وإنما يستخدم المؤلف هنا تلك الألقاب على سبيل التجوز .

إحسانك العميم ، وطولك الجسيم ، أكثر مما يختار وفوق ما يتمنى ، وخَوِّلْهُ من النصر العزيز (١) والسعد الجديد (٢) ما لا يمر بالخواطر تقديراً ولا ظناً . اللهم وأَصْحِبْ رِكابه العالى العصمة والسلامة أى جهة قصد وَيَمَّمَ ، ويسر أموره حيثما كان وأينما خيم . اللهم إن جميع النفوس تستبشر بمشاهَدَةِ مَقَامِهِ الرفيع وتستشرِفُ إلى لُقْيَاهُ ، فلا تحرمنا النظر إلى رؤية وجهه السعيد وبهجة محياه . إنك منتهى الرغائب .

انتهى بحمد الله وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم فى أواخر ربيع النبوى سنة ست وسبعين وألف ؟

الدكتور محمود على مكى
أستاذ بكلية الآداب . جامعة القاهرة

---

(١) فى ب : المزيد ، وقد أثبتنا ما ورد فى ا .
(٢) ينقطع النص فى ا ابتداء من هنا .

الطرق الصوفية وأثرها فى نشر الاسلام فى الصحراء الكبرى

لا يكتمل الكلام على انتشار الإسلام فى البلاد التى انتشر فيها عن طريق الدعوة والكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة وحدها دون وقفة طويلة عند دور الطرق الصوفية فى ذلك ، ففى كل ناحية من هذه النواحى كان لرجال الطرق الصوفية دور حاسم ، لان هذه الطرق تنظيمات تقوم على الدين والايمان ، وتعمل لخير الدين والايمان عملا منظما مستمرا . ولكن ذلك لا يرجع إلى طبيعة التصوف ، فان التصوف فى أصله اعتزال الدنيا والناس وتفرغ لعبادة الله وخلاص النفس ، وهذه هى فكرته الأساسية عند رجاله الأول ، وكان قاصرا على طراز معين من الناس لهم مزاج معين وموقف رفض واضح للحياة كما يعرفها ويقبلها عامة الناس وكان فى هذا الموقف رغم ما فيه من تواضع ظاهر من التمييز ، ومهما قرأت فى كتب المتصوفين الكبار من كلام عن التواضع والتذلل فانك تحس بأن المتكلم يشعر بأنه متميز عن بقيـة الناس وأنه على الأقل أقرب إلى الله منهم . ومن ثم فهو أفضل منهم وأصفى إيماناً وأطهر نفسا . وكل الصوفية أيا كان مذهبهم فى التصوف فيتعاملون مع الناس على أنهم أعلى درجة من سواهم وهم يعتبرون حياتهم فى غمار الناس لونا من التنازل الصامت ، ويتجلى هذا الكبرياء أو قـــل الغرور الصوفى عندما يلتقى الصوفى برجل من الأقوياء وعلية القوم ، فهو يرفع نفسه عنهم ، وهو إذ يفضل ذلك يكشف عن حقيقة موقفه من عامة البشر ، وقد تعود الأقوياء وعليـــة القوم ذلك الموقف منهم وقبلوه علما منهم أن فى تواضعهم لاولئك الصوفية الفقراء فى الظاهر ، تقرب إلى قلوب الناس .

حول أولئك المتصوفة تجمع المريدون وهم ناس من عامة الناس ، وغالبيتهم العظمى لا تفكر فى الوجد أو الحالات ، أو المقامات ، وانما هم يرجون البركة بالتقرب من رجل صالح ، وهذا التبرك يعطيهم قوة على مواجهة مشاكل الحياة ، أو مواجهة المشاكل التى يعجزون عن حلها مثل المرض أو ظلم الحكام أو الضيق المالى ، وتجمعهم حول الرجل الصالح الذى اعتبروه وليا من أولياء الله جعل ذلك الرجل فى ذاته قوة واعطاه جاها عند الحكام وسلطانا على الجماهير ، من هنا أصبح المريد ضرورة للمتصوف وأصبح المتصوف ضرورة للمريد ، ومن هذا التفاعل ظهرت الطرق الصوفية ، أى جماعات المريدين الذين يلتفون حول الصوفى ، وانتسب إليها الناس وكثرت اشكالها فظهرت الصوفية العاملة ، أى الصوفية التى لها وظيفة فى المجتمع ثم الصوفية المجاهدة أى الصوفية التى تعمل على نشر الإسلام وتلك هى التى تهمنا فى هذا البحث . ولم يدرس أحد فيما نعلم هذا التطور ، وهذه الأطوار ربما نبهت بعض الدارسين إلى أهمية الموضوع الذى تناولناه فى ايجاز فى كتابنا « عالم الإسلام » ونتناوله هنا بالقدر الذى يهم انتشار الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة .

* * *

الطرق الصوفية هى جماعات المتصوفين الذين يتبعون فى عبادتهم ورياضاتهم ومجاهداتهم أسلوباً واحدا يضعه لهم شيخ من شيوخ التصوف ويتبعونه فيه وينسبون إليه .

والأصل أن المتصوف والصوفى شىء واحد ، فالمتصوف صوفى أى رجل متقشف زاهد يميل بنفسه وروحه إلى انفاق حياته في التعبد لله وعمل الطاعات للاستزادة من رضى الله والقرب منه ، ويذهب المتصوفون إلى أنهم يصلون بذلك إلى « حالات » نفسية ووجدية تجعلهم يحسون بما يسمى الاشراق أو الوصول .

وقد وجد التصوف من فجر الإسلام ، فقد كان من بين الصحابة رجال نزعوا إلى الزهد فى الدنيا والفراغ للعبادات من أمثال عثمان بن مظعون وسعيد بن زيد بن نفيل ، ولم يقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على اتجاههم هذا

ونصحهم بعدم الاسراف فيه ، لأن المسلم مهما بلغت رغبته فى الانصراف إلى العبادة وطلب الطاعات فلا ينبغى أن يصرفه ذلك عن شئون دنياه وكسب رزقه والاخذ بنصيب من مسئوليته عن الجماعة ، لأن المسلمين أولا وقبل كل شيء أمة مترابطة متعاونة على الخير مؤمنة بالله ورسوله ، متبعة للقرآن والسنة عاملة جماعة على ما فيه خير الإسلام وأمة الإسلام .

ولا شك فى أن للتصوف فى تاريخنا صفحات مشرقة ، فان أهل التصوف الصادقين عرفوا كيف يوفقون بين ما يدعو إليه الإسلام من ضرورة الاهتمام بالدنيا إلى جانب الاهتمام بالآخرة وما تميل إليه نفوسهم بطبعها إلى الزهد فى الدنيا والاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى والشعور بالسعادة فى العبادة والزهد فى متاع الدنيا حتى يكونوا قريبين من الحق سبحانه ، وهذا هو الذى وصل إليه رجال ذوو فهم صادق للاسلام ، ومحبة عميقة لله سبحانه وتعالى وإدراك لواجباتهم حيال أمة الاسلام ، وهذا ما نجده عند رجال مثل عبد الكريم القشيرى وابن طالب المكي والحارث بن أسد المحاسبي وأبى حامد الغزالى ، وهؤلاء هنا يختلفون كل الاختلاف عن المتصوفين الذين لم يوفقوا إلى الوصول إلى هذا التوازن ، فاتجهوا إلى اعتزال الدنيا والناس والانصراف إلى العبادات والرياضيات والمجاهدات للوصول إلى الأحوال والمقامات ، وهؤلاء مع ارتفاع مستواهم الذهنى وطرافة ما يجده الإنسان فى كتاباتهم إلا أنهم لم يفيدوا المجتمع الإسلامى العريض فائدة واضحة ، فهم ثروة فكرية لا ثروة قومية إسلامية ، وهذا ربما هو الذى اثار عليهم الفقهاء ، وجعل رجالا من أمثال ابن الجوزى وابن تيمية وابن القيم الجوزيه يرمون التصوف عن قوس واحدة ويعتبرونه خروجا عن السنن الاسلامى القويم .

وقد أفاد المجتمع الاسلامى كله من المعتدلين من أهل التصوف ، ممن نجحوا فى الوصول إلى التوازن الذى ذكرناه ، لأنهم لم يزهدوا فى الدنيا وانما زهدوا فيما لا يلزم للحياة القوية السليمة منها من اسراف فى متاع أو اقبال على ترف أو استغراق فى مطالب البدن ، وظلوا يعيشون وسط الناس كما يعيش أهل الاعتدال والتصاون والبعد عن الدنيا مع القيام بحقوق الله سبحانه وتعالى من

عبادة ومراعاة شريعة والتمسك بمكارم الأخلاق ، فانتفعوا بذلك ونفعوا الناس بعلمهم وملكاتهم ، لأن هذا الطراز المعتدل من العباد الزهاد لم يكونوا كلهم أهل علم ، بل كان فيهم تجار وأهل حرف أوسع الله عليهم فى الرزق ، فانتفعوا بما أوسع الله لهم فيه فى نفع الناس ببذل أموالهم للجماعة كلما احتاجت الجماعة عون ، وقد أفادوا الناس إذ أنهم جعلوا أنفسهم القدوة الحسنة فى الحياة والسلوك والقدوة الحسنة مدرسة التربية الكبرى .

هؤلاء الصوفية الذين لم ينسوا قط أنهم أفراد فى أمة إسلاميـــــة واحدة تتطلب من كل أفرادها أن يجود كل منهم بما عنده لخير البقية ، هؤلاء هم الذين يعنوننا فى هذا البحث عن انتشار الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة ، لأنهم بمسلكهم هذا قد أفادوا أنفسهم وغيرهم وحملوا الاسلام إلى أمم كثيرة من أهل الأرض ، وكل أهل الأرض فى أشد الحاجة إلى هدى الإسلام . وقد تعود الناس أن يسموهم صوفية لا متصوفين .

هؤلاء الصوفية الذين لم يعتزلوا الناس ولا استغرقتهم التأملات والعبادات والرياضات والمجاهدات ، بل ظلوا وسط الناس يهدونهم سواء السبيل ويضربون لهم المثل الصالح فى الجمع بين خير الدنيا والآخرة ، هم الذين نشأت حولهم الجماعات التى سميت بأهل الطرق . ذلك أنه كان من الطبيعى أن ينشأ لهؤلاء الزهاد أتباع من المعجبين بطريقتهم فى العبادة والحياة والعمل والراغبين فى السير فى دربهم ، هؤلاء هم المريدون ، ومن الشيخ ومريديه تكونت الطريقة الصوفية ، وهى لم تنتهج قط أسلوب المجاهدات الفردية التى كان بعض ذوى المزاج الدينى الحاد يقبلون عليها ، فلا يزالون منفردين بأنفسهم يذكرون ويسبحون ويقرأون ويصلون حتى يصلوا إلى ما يسمى بالحالات والمراد بذلك حالات الوجد والانفصال عن الدنيا والانصراف المطلق إلى المجاهدات ، ثم يترقون بعد ذلك فى الحالات من مقام إلى مقام حتى يصلوا إلى ما يسمى بالولاية ثم القطبية ، وأما الصوفية الذين نقصدهم فى هذا البحث فهم الذين يسيرون فى طريق المجاهدات والانفصال عن الدنيا ، فيظلون مع الله ومع الناس ، ويأمنون الشطحات التى لا تؤمن ، بل انتهز معظمهم من أول الأمر أسلوب العيش بين الناس وكسب المريدين

ووضع الاذكار والأوراد والأحزاب لهم وتحويلهم إلى زهاد وعباد وصوفية دون أن يتخلوا عن طلب العيش أو الزواج أو انشاء الأسرات والقيام بشئون العيال ، ورسموا لاتباعهم طريقة خاصة بهم فى الحياة والعبادة معا ، فأما نظام العبادة عندهم فهو الاجتماع فى المسجد والزاوية والقيام بصلوات وتسبيحات وقراءة أوراد وأحزاب واحدة ، وأما أسلوب الحياة عندهم فيقوم على اعتبار جماعة المريدين أهل طريقة واحدة ، أى أهل جماعة متآخية ومتعاونة فى التغلب على مشاكل الحياة ، ومن هنا فقد أطلق عليها لقب العشيرة ، وسمى شيخ الطريقة بشيخ العشيرة ، وتلك هي الطرق الصوفية الكثيرة التى أصبحت ضرورة من ضروريات الحياة فى المجتمع فى عصور الاضمحلال وضعف النظم الحكومية غير القومية التى وجدت فى عالم الإسلام إبتداء من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى .

ذلك أن ضعف الحكومات وانصرافها إلى الدفاع عن كيانها واهمالها مصالح الناس جعل الناس يشعرون بأنهم فى ضياع ، فلا حكومة ترعاهم ، ولا حاكم يأخذهم مأخذ الجد ويعاملهم معاملة إنسان لانسان ، ولا مؤسسات عامة يمكن أن تحقق لهم حدا أدنى من الأمان والاستقرار . والانسان لا يمكن أن يعيش فى قلق لأمد طويل ، ولا يطمئن قلبه إلا إذا شعر أن له مكانا ما فى المجتمع الذى يعيش فيه ، مكان واضح محدد يربطه نظام الحياة من حوله ، وإلا أهلكه الشعور بالضياع لأنه لابد له من أن يتزوج وينشىء أسرة ، والأسرة لابد لها من قدرة من الأمن : أمن على الأهل والعيال وأمن على الرزق وأمن على المكانة فى المجتمع فإذا امتنع ذلك الأمن ضاعت الأسرة ، وإذا كان الانسان صاحب حرفة فلابد له من الشعور بالأمن ليزاول عمله ، فإذا كان صاحب مصنع كان لابد له من قوة تحمى مصنعه ورأس ماله ، وإذا كان عاملا فلابد من سلطة تضمن له حقوقه عند صاحب العمل أو عند الناس ، وإلا فهو يتوقف عن العمل ، ويتحول إلى متسول والمتسول هو الانسان الوحيد الذى لا يحتاج إلى أمن أو ضمان ، لأنه عندما أصبح متسولا تنازل فى نفس الوقت عن إنسانيته وكرامته وواجباته ومسئولياته .

هنا وفى ظروف العصور الوسطى الحافلة بالظلم والضياع تنبه الناس إلى أهمية رابطة الصوفى ومريديه . فالصوفى قوة ، لأنه إنسان استطاع أن يلقى فى قلوب الناس اعجابا ومقاما ورهبة . وهذه الرهبة هى التى تردع الكبار كما تخيف الصغار ، فقد كان للصوفى القوى صاحب المريدين الكثيرين الذى يتمتع بالجاه الروحى الواسع المدى سلطان على الناس كان يخيف الحكام ، لأن مستوى الحكم العقلى فى تلك العصور لم يكن أرفع من مستوى عقلية جماهير الناس فمعظم الحكام كانوا من القرن الخامس الهجرى فصاعدا أو نازلا — والأمران هنا سيان — أما مماليك اتراك لا يحسنون إلا استعمال السلاح فى معاملاتهم للضعفاء أو مماليك لا يزيد علمهم على القراءة والكتابة وحفظ شىء من القرآن إلا فيما ندر مثلهم فى ذلك مثل عامة رعاياهم وهؤلاء جميعاً يرهبون الصوفى الذى يصل فى عيون الجماهير إلى ما يسمى بالولاية ويعملون له ألف حساب ، وقد روى عن السلطان حسام الدين لاشين ، وكان من أكابر سلاطين المماليك وأعظمهم هيبة — عندما قيل له أن الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر بالباب قام على رجليه وجرى حافيا إلى الباب وحمل نعل الشيخ وسار يصيح كالمجنون : بركة من الله ، بركة من الله . وأعجب ذلك التصرف أبا السعود فجعل يقول : اطيعوا مولاكم ، اطيعوا مولانا السلطان . . فلما سمع المنصور لاشين ذلك جلس على الأرض وقال للشيخ : مرنى أيها الشيخ فأنا طوع أمرك ، فما بقيت للشيخ حاجة إلا قضاها له السلطان .

والذى نستنتجه من ذلك الخبر — وأمثاله كثير — هو أن الصوفى فى ذلك القرن السابع الهجرى أصبح قوة للسلطان ، وأن السلطان كان قوة للصوفى ، كان القرن كله وما تلاه عصور أخطار متوالية وأزمات آخذ بعضها بخناق بعض ، وتجلى فى أثناء ذلك عجز الدول وأصحابها عن حماية الناس ، فاتجه الناس إلى شيوخ الصوفية ، فهم ناس أصحاب جاه عند السلاطين ، ويعتقد الناس أنهم أصحاب جاه عند الله كذلك وكان أولئك الشيوخ من عامة الناس ، يعيشون معهم وأبوابهم مفتحة للمريدين وأصحاب الحاجات فلجأ إليهم الناس إذ لم يعد لهم إلا هذا الملجأ ، فكثر المريدون حول الشيخ وتضخمت الطرق ، حتى أصبح من الأساسى بالنسبة لأى إنسان يريد أن يأمن على نفسه وماله أن ينتسب إلى طريقة صوفية .

الصوفية المجاهدة

ولم يأت هذا الاتجاه عفوا . بل حدث عن قصد ووعى لحاجات المجتمع الاسلامى خلال القرن الخامس الهجرى ، وهو عصر تدهورت فيه دول الخلافة جميعا : خلافة بنى العباس وخلافة الفاطميين وخلافة قرطبة ، وتولى الأمور فى كل ناحية رجال أدنى بكثير من مطالب العصر ومسئوليات القيادة والرياسة ، فأحست أمة الاسلام أنها تقف مكتوفة أمام أخطار متزايدة ولا سند لها إلا نفسها وإيمانها بالاسلام فبدأ العباد والزهاد ونفر من المتصوفة يشعرون أن الأمة فى خطر وأنها تحتاج إلى قيادة سليمة وتنظيم داخلى يحفظ عليها وحدتها الدينية ويصونها من الأخطار المتلاحقة حتى يتداركها الله سبحانه وتعالى برحمته .

فأما فى الغرب الاسلامى حيث كان الخطر الصليبى بالغ الخطورة وخاصة بعد أن أسقط المسلمون فى الأندلس خلافتهم القرطبية ، وكانت درعهم الواقى . هنا نجد أن العباد والزهاد يتحولون إلى مجاهدين فى سبيل الاسلام ، وظهر من بين المسلمين المدركين لمسئوليتهم عن مصير جماعة الاسلام رجال مثل عبد الله بن ياسين الجزولى ويحيى بن ابراهيم الجدالى وكلاهما من أبناء قبائل صنهاجة الصحراء التى كانت تسكن على الحدود الجنوبية لعالم الاسلام المغربى بين الحدود الجنوبية للمغرب الأقصى وحوض نهر السنغال وكان أهل هذه القبائل يعيشون فى صحرائهم محصورين بين قوى معادية لهم من الذين ذكرنا بعضهم بأن الضرورة تقضى بأن يدعو رجالهم من الشمال والجنوب ، فأحس زعماؤهم هؤلاء إلى الخروج بحياة الزهد والتقشف والعبادة السلبية إلى حياة الجهاد فى سبيل الدين أى تحويل الجماعة الصوفية إلى جماعة مجاهدة فى سبيل الله أى أن عبد الله بن ياسين الجزولى ويحيى بن ابراهيم الجدالى ومن تبعهم بدأوا ما يعرف بالصوفية المجاهدة ، وهو طراز من الصوفية سيستمر من ذلك الحين وهو النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فصاعدا وسيكون له أبعد الأثر فى الحفاظ على أمة الاسلام فى الغرب أولا ثم فى الشرق بعد ذلك ، فقد حول عبد الله بن ياسين جماعة العباد والزهاد الذين التفوا حوله إلى جماعة « المرابطين »

أى حراس حدود الاسلام والعاملين على مد رواقه والعودة بالاسلام إلى عصر النهوض والفتوح ، وتلك هى الرسالة التى تلقفها يحيى بن عمر ثم أبو بكر بن عمر من أمراء قبيلة عتونة ثم يوسف بن تاشفين وأقاموا عليها دولة المرابطين المجاهدة التى أعادت المغرب الأقصى ثم المغرب كله إلى صفاء السنة ثم عبر رجالها إلى الأندلس وجاهدوا النصارى واوقفوا تقدمهم بانتصاراتهم العسكرية فى مواقع مثل الزلاقة واقليش وافراغه فعاش الاسلام بعد ذلك أربعة قرون أخرى على الأرض الأوربية فى الأندلس . وفى نفس الوقت سار أبو بكر بن عمر وهو بن عم يوسف بن تاشفين مجاهدا فى سبيل الاسلام فى افريقية المدارية الغربية ، وقد تمكن هؤلاء المرابطون من تحويل مملكة غانة فى حوض النيجر إلى مملكة إسلامية ، ومعنى ذلك أنهم جعلوا بلاد غانة الواسعة بلادا إسلامية .

وهذه الصوفية المجاهدة استمرت حية بعد ذلك فى عالم الاسلام ، وإليها يرجع الفضل فى انقاذه من أزمات الصليبيات والمغول ، فقد كان رجال هذه الطرق هم القوة الضاربة المقاتلة فى كل معارك الاسلام الكبرى مثل حطين وعين جالوت بحمص وكان أولئك الصوفيون المجاهدون يسمون فى المراجع بالمطوعة وهم زهاد ومتصوفة ومريدون يخرجون للقتال حسبة لله تعالى ويبلون أعظم مما يبلى الجنود المحترفون وأخبارهم كثيرة متناثرة فيما بين أيدينا من المراجع ، وأصحاب هذه المراجع التاريخية كانوا مؤرخين رسميين أى أنهم كانوا يتقاضون جوائزهم وأحيانا رواتبهم من السلاطين ورجال السلاطين فلم يهتموا باظهار دور المطوعة العظيم فضاع فصل كبير من فصول تاريخ المسلمون وبتعبير أصح كاد يضيع لأننا نستطيع أن نجمع شذرات الأخبار التى صدرت عن أولئك المؤرخين دون قصد .

وسيستمر تيار هذه الصوفية المجاهدة حيا متجددا حتى أيامنا هذه ، وما حركات الوهابية والمهدية السودانية والسنوسية المغربية إلا استمرار لهذا التيار وهو صاحب الفضل الأكبر فى انقاذ الإسلام من الوهدة التى تردى فيها أواخر العصر الوسيط ومد رواقه بالدعوة والحكمة والموعظة الحسنة على بلاد واسعة .

الصوفية العاملة :

فى نفس الوقت ظهر من بين الصوفية رجال رأوا أنه لا يكفى للقيام بحق الإسلام أن يهتم الصوفى بنجاة نفسه وخلاصها ، ولا يكفى كذلك أن يعمل الشيخ هو ومريدوه للنجاة بأنفسهم للوصول إلى الحق ، بل لابد أن يدخل الصوفية ميدان العمل العمرانى المستمر ، فلا يبتعدون عن الناس أو يعيشون على هامش الحياة دون عمل ، ولا يتركون أمة الإسلام دون قيادة إسلامية سليمة .

ولم يحدث هذا التطور من تفكير الصوفية أنفسهم ، بل دفعتهم إلى ذلك الجماهير دفعا ، فما دامت هذه الجماهير تعطيهم التقدير والتأييد حتى لتصدق ما يقولون به من الولاية وتغدق عليهم وعلى من يتبعهم من مالها فلا بد أن يقوموا بعمل فى مقابل ذلك ولم يتم ذلك دفعة واحدة بل حدث ذلك خطوة خطوة وعلى أيدى نفر من الصوفية ذوى الاستعداد الفطرى لخدمة الناس .

وأول من بدأ هذا الطريق من الصوفية — فيما نعلم — هو الشيخ أحمد الرفاعى (٥١٢ — ٥٧٨ / ١١١٨ — ١١٨٢) الذى عاش وعمل فى عنفوان المد الصليبى (توفى قبل معركة حطين بخمس سنوات) وكان له أثر عظيم فى إيقاظ أمة الإسلام ودفعها إلى مواجهة الخطر الصليبى . حقاً أن الرفاعى لم يتدخل فى السياسة ، ولا هو داخل أحدا من أولى الأمر مستحثا له على الجهاد ، فيبدو أنه كان يائساً من هذه الناحية ، ولكنه أيقظ شعلة الإسلام فى النفوس ، وخرج بالصوفية المشرقية من السلبية والهرب من الحياة إلى الايجابية والعيش فى غمار الناس . وكان هذا وحده كافياً ، فإن الإسلام إذا عمر قلوب المسلمين وامتلأت منه نفوسهم اندفعوا إلى تحقيق رسالته والتزام منهاجه . ومن الغريب أن أجداد الرفاعى طافوا معالم الإسلام من العراق إلى مكة إلى الأندلس والمغرب ، وعندما ولد أحمد الرفاعى فى قرية حسن من أعمال واسط فى العراق ورث عن آبائه ذلك الشعور الشامل بوحدة أمة الإسلام والقلق على مصيرها .

وليس هذا موضع دراسة حياة الشيخ أحمد الرفاعى ، ولكننا نجده من أول سلوكه الطريق يتمسك بالسنة الواضحة ، فهو يقول فى كتابه « البرهان »[١] « أى سادة ! منكم الفقهاء والعلماء أيضاً ، ولكم مجالس وعظات ودروس تقرأ وأحكام شرعية تذكرونها وتعلمونها الناس بذلك أخذت نفسى ولم أترك طريقاً إلا سلكته وعرفت صحته بصدق النية والمجاهدة . فلم أجد أقرب ولا أوضح وأحب من العمل بالسنة المحمدية ، والتخلق بخلق أهل الذل والانكسار والحيرة والافتقار » .

ولم يسر الرفاعى فى الطريق الذى سار فيه الكثير من الصوفية ، وهو طريق معاداة الفقهاء والوزراء مستهزئين بعلمهم وحفظهم زاعمين أن العلم الحق يأتى لدنيا ، أى يلقيه الله فى صدر من يريد دون درس أو طلب أو معاناه ، وتلك دعوة صريحة للكسل والتواكل بل الجهل ، قال الرفاعى فى كتابه « البرهان المؤيد » : عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم شأن الأولياء والعرفاء ، فإن الطريق واحد ، وهؤلاء ورثة ظاهر الشريعة وحملة أحكامها الذين يعلمونها للناس ، وبها يصل الواصلون إلى الله . ولا فائدة بالسعى والعمل على الطريق المغاير للشرع » .

ثم خطا الرفاعى خطوتين حاسمتين للخروج بالصوفية من عزلتها والسير بها فى طريق العمل لكسب العيش . قال صلاح عزام فى كتابه « أقطاب التصوف الثلاثة » لقد كان الرفاعى يعمل فى الاحتطاب وأعمال أخرى ليضمن لقمة العيش التى تمكنه من عدم الاعتماد على أحد ، وكان يشترط على كل من يستمع إلى درسه أن يكون له عمل فان لم يكن فليبحث . فان عجز هيأ له أى حرفة يقتات منها ، وإلا فلن يسلك فى طريقته إذ لا ينضم فى صفوفنا عاطل[٢] .

والخطوة الثانية تهمنا أكثر فى هذا البحث ، وهى نظرة إلى نفسه ومريديه على أنهم عائلة واحدة يربط الحب والتعاون بين أعضائها وهذه العائلة فى خدمة

---

(١) البرهان المؤيد للرفاعى ، تحقيق صفوت السقا ص ٥٤ .

(٢) رواه عامر النجار فى كتابه القيم « الطرق الصوفية ، نشأتها ، نظمها ، روادها : الرفاعى ، الجيلانى ، البدوى ، الشاذلى . القاهرة ١٩٧٨ ص ٩٢ .

أمة الاسلام كلها وخاصة المحتاجين من أفرادها والضعفاء . قال صلاح عزام فى كتابه الآنف الذكر : « وهو — يريد الرفاعى — إلى جانب مسئولياته الثقافية والتعليمية كان يبحث عن اتباعه ومريديه واليتامى من أبناء المسلمين ، فإذا كان بأى واحد منهم حاجة سعى إلى قضائها حتى ولو كان فى حاجة إلى توصيل المياه إلى منزله حملها هو له ، وفى ذلك يقول رضى الله عنه عندما سئل يوما أن يجلس فى المسجد وفى داره معلما فقيها ، وأن يقوم غيره بما يفعل فأجاب « أن تجارتى خدمة للنساء والأرامل واليتامى ، وأحب أن أشهد نفسى فى خدمتهم دائمـا ، وإذا رأيت يتيما يبكى تهتز مفاصلى وترعد أعضائى حنانا له وشفقة عليه ، وأخاف من بكائه » [١] . يقول الشعرانى في « الطبقات الكبرى » وكان إذا سمع بمريض فى قرية ولو على بعد يمضى إليه يعوده ، ويرجع بعد يوم أو يومين ، وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان ، حتى إذا جاءوا يأخذ بأيديهم ويقودهم وكان إذا رأى شيخاً كبيراً يذهب إلى أهـل حارته ويوصيهم عليه . وكان رضى الله عنه لا يجازى قط السيئة بالسيئة » [٢] .

ويعنى ذلك أن « الطريق الذى فتحه الرفاعى فى تاريخ الصوفية هو طريق الحياة ، طريق جعل الصوفية أسرة واحدة متعاونة ، وجعل أهل طريقة كلهم خدما للمجتمع الإسلامى ، لأن أمة الإسلام فى عصره كانت قد فقدت الحب والتعاون أو بتعبير آخر نسيت قول الرسول صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . . وتلك قاعدة أساسية فى بناء أمة المسلمين ، وقد طبقها الرسول وطبقها أبو بكر وعمر وبقية الصحابة ، ولكن الذين جاءوا بعدهم نسوها بسبب سوء الحكم وظلم الحكام وتوالى المصاعب على المسلمين ، ونسيان بعض أهل العلم أن المسلمين أمة قبل أن يكونوا دولة ، وأن وظيفتهم الأولى هى الدعوة إلى فكرة الأمة ووحدتها وضرورة تكافل أفرادها ، نسوا ذلك واشتغلوا بالتنـافس فيما بين بعضهم وبعض على الوظائف وتنافسوا فى تلك العصور فى الحصول على رضى الحكام وأموالهم ووظائفهم .

---

(١) صلاح عزام ، الاقطاب الثلاثة ص ٣٢ .
(٢) طبقات الشعرانى ص ١٢٣ .

ظلت اذن قضية وحدة الأمة وترابطها وضرورة تكافل أفرادها عاطلة إذ لم تجد من يمثلها ويذكر بها ويقوم عليها ، فكان ذلك الفراغ الواسع فى التركيب الاجتماعى لأمة الإسلام شاغرا حتى جاء الرفاعى فنبه إليه وبدأ فى البحث عن طريقة لسده ولكن الذى تولى الفكرة ونهض بها وفتح للمخلصين من أمة الإسلام بابا واسعاً للنشاط والعمل كان عبد القادر الجيلانى .

عبد القادر الجيلانى محيى الدين
أبو محمد بن أبى صالح زنجى دست
(٤٧١ — ٥٦١/١٠٧٧ — ١١٦٦)

كان عبد القادر الجيلانى متصوفا صادقا وفقيها راسخ العلم . درس دراسة واسعة وتمكن من علوم الدين فكان فقيها ، ولكنه كان يحس بفراغ القيادة الذى أشرنا إليه فتصدى له ، وكان بطبعه شيخاً قوى الشخصية ذا تأثير كبير على المريدين ، فامتلأت نفوسهم بحبه ، وقد خطا خطوة واسعة بعد الرفاعى فجعل مريديه جماعة متحدة يعمل أفرادها معاً ويكونون فيما بينهم جيشا عاملا فى خدمة الناس ، وإذا كان الرفاعى قد انكر أن يكون من بين مريديه عاطل ، فقد اشترط الجيلانى على المريد أن يكون عاملا فى شىء نافع لنفسه وللمسلمين ، وفى العصر الذى عاش فيه ، وهو عصر تدهور سياسى خطر نجد الجيلانى يخطو بقدم ثابتة وينتزع قيادة الجماهير بما كان يحض اتباعه عليه من ضرورة العمل فى سبيل الجماعة ، وفى أيامه وبين صفوف رجاله بدأت الجماعة الصوفية تسمى العشيرة ، وشيخها يسمى شيخ العشيرة .

وقد تميزت الطريقة الجيلانية بكثرة انتساب جماعات الحرفيين إليها ، فكثر بين صفوف الجيلانيين التجار والنجارون والحدادون والبناؤون والحصريون ومن إليهم وبدأت كل جماعة من هؤلاء تكون وحدة خاصة بها داخل الجماعة ، وربما لم يكن هذا من عمل عبد القادر الجيلانى وإنما نتيجة لاتجاهه فى العمل ومهارته فى التنظيم وإحساسه الواعى بحاجة جماهير الأمة إلى قادة ومرشدين ،

فوجه أصحابه هذا التوجيه أو قل أنه وضعهم على أول الطريق ، وساروا هم فى نفس الاتجاه وتطورت الحركة من نفسها ذلك التطور الذى جعل للصوفية وطرقها دورا ايجابيا فعالا فى حياة الناس . وهذا فى الأغلب هو الذى جعل الطريقة الجيلانية أوسع الطرق الصوفية انتشاراً فى العالم الإسلامي ، وقد تفرعت عنها فروع حملت أسماء منشئيها ، ولكنها كلها كانت جيلانية أو قادرية .

المهم لدينا أن تفكير عبد القادر الجيلانى هو الذى أوجد بالفعل الصوفية العاملة ، الصوفية ذات الدور الحقيقى فى حياة الجماعة ، فأصبح الشيخ الصوفى عمادا من أعمدة المجتمع بما له من جهد وعمل فى تنظيم مريديه وخدمتهم وخدمة المجتمع كله عن هذا السبيل .

وكان أكثر المنتسبين إلى الطريقة الجيلانية هم التجار لأنهم أحوج من غيرهم إلى الحماية والعمل جماعة ، والتاجر مهما كان قدره صاحب رأس مال ، وصاحب رأس المال في حاجة إلى من يحميه ويحمى ماله وخاصة فى عصر كذلك الذى عاش فيه الجيلانى أهملت الحكومات فيه واجباتها وتركت الناس بغير حماية .

ومن نتائج هذا التطور الذى أدخله الجيلانيون على الحركة الصوفية ان تحولت الجماعة الصوفية إلى وحدة اقتصادية اجتماعية ، فالشيخ يشعر بأنه مسئول عن عمل مريده ورزقه ، فهو يبحث له عن عمل إذا احتاج العمل ، وهو يتدخل لحمايته من الغبن إذا وقع عليه غبن ، وهو يتوسط لدى أولى الأمر ، ويحصل لهم على أموالهم التى يميل هؤلاء إلى أكلها ، ويتدخل فى مسائل الضرائب ، فيتكلم مع الحكام فى تخفيفها وتخفيف عبئها عن الناس ، أى أن الشيخ الصوفى أصبح بهذه الطريقة عاملا فعالا فى النظام الاجتماعى العام ، وأصبح رئيس جماهير الناس والمتحدث باسمهم والعامل على ما فيه نفعهم . وهنا لا يتعجب الناس من الانتشار الواسع للطرق الصوفية الجيلانية (وما تفرع عنها) ومريديها ، وابتداء من القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى ، يندر ان نجد إنسانا الا وهو منتسب لطريقة صوفية وصاحب عهد على واحد من الشيوخ ، فان العهد لم يعد مجرد الالتزام باتباع طريقة معينة فى العبادة أو أحزاب يتلوها

المريدون فى المساجد وأوراد يرتلونها فرادى أو جماعات ، وانما أصبح انتساب الناس للجماعة الصوفية ضرورة فى بحثها عن الأمن على النفس والمال ، فرجال الطريقة يتدخلون إذا ألقى رجال الحكومة القبض على واحد منهم وإذا كان برئيا سعوا فى خلاصه ، وإذا سافر رجل منهم تولت الجماعة الصوفية رعاية أسرته أثناء غيابه ، حتى المسائل العائلية الصرفة كان الشيخ أو شيخ العشيرة يتدخل فيها إذا لزم الأمر ، فيصلح بين الأزواج ، ويصلح بين الأب وأبنائه ، ويدير أمر الزواج للعوانس والأرامل والأيامى . وهو شاهد على الودائع والديون وضامن فى القروض ، أى أنه أصبح ركنا أصيلا فى المجتمع ، هذا هو التطور العظيم القيمة الذى دخل على الطرق الصوفية بفضل الخطوة التى بدأها عبد القادر الجيلانى ، ثم عمت كل الطرق الصوفية ، فأصبحت جميعها وحدات اجتماعية واقتصادية .

وكان هذا الاتجاه عاملا فى بث النشاط فى جماعات الطرق الصوفية ، فاجتهد المريدون من أصحاب الميول الدينية فى العبادات والرياضات والمجاهدات ، وانصرفوا إلى خدمة النـــاس وإلى جانب ذلك يترقى المريد الموهوب فى مراتب الصوفية جميعا من المريد إلى الشيخ إلى الولى إلى القطب ، أما بقية المريدين فقد اكتفوا بالفوائد الاقتصادية والاجتماعية التى تعود عليهم من وراء الانتساب إلى الطريقة الصوفية ، وهى فوائد أساسية بالنسبة لحياتهم .

ونحن نتكلم عن الناحية العملية الإجتماعية من الطرق الصوفية دون أن نبدى حكما على موضوع الولاية والكرامات التى كان المريدون ينسبونها إلى شيوخهم ، فهذا موضوع آخر ، لأن الذى يهمنا الآن هو أن جماهير المسلمين جعلوا من الطرق الصوفية أداة لخدمة المجتمع وحماية اطاراته من التدهور فى وقت كان فى أشد الحاجة فيه إلى بناء إطارات جديدة تحفظه وتصونه من التدهور بعد تداعى الاطارات السياسية القائمة وذلك حفاظا على سلامة الأمة الإسلامية ، وكان هذا التحول أساسا نتجت عنه قوة دفع جديدة للدعوة للاسلام خارج حدود دار الإسلام عن طريق التجارة وطرقها لأن التجار والحرفيين جميعا فى تلك العصور

كانوا أعضاء فى طرق صوفية ، وفى ظل هذه التبعية للطرق اكتسبوا قوة وقدرة على السفر خارج مملكة الإسلام للتجارة والدعوة للاسلام وكسب الانصار له كما سنرى .

أبو مدين شعيب بن الحسين

وقد تتلمذ على عبد القادر الجيلانى عدد كبير من المريدين الذين علا شأنهم بعد ذلك حتى أصبحوا هم بدورهم شيوخ طرق جديدة كان لها من الاثر ما يقارب الطريقة الجيلانية فى تثبيت دعائم المجتمع ونشر الإسلام .

واشهر هؤلاء جميعاً بالنسبة للمغرب — وهو الذى يمنينا الآن — هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسى المتوفى سنة ٥٩٤/١١٩٧ — ١١٩٨ ، وهو أندلسى المولد والنشأة فقد ولد فى قطنيانه من أعمال اشبيلية فى الأندلس ، ولكنه مغربى الحياة والعمل والأثر .

ولد أبو مدين فقيراً ، ونشأ وفى نفسه نزوع شديد إلى العبادة ، وكان ذا مزاج دينى غالب ، فاحترف النسج فى مطالع حياته . ثم اتجه إلى الدراسة الدينية ، فدرس فى بلده ثم رحل إلى فارس حيث سمع على الشيوخ دون أن يترك حرفة النسج التى كان يعيش منها ، وكان عصره عصر حماس دينى وجهاد فى المغرب فقد كان ذلك أواخر أيام المرابطين وأوائل أيام الموحدين ، وكانت المعركة بين الإسلام والنصرانية على أشدها فى الأندلس ، فأذكت تلك المعركة الكبرى النزوع الدينى عند أبى مدين . واتجه إلى أن يكون صوفياً وداعياً للجهاد فى سبيل الله ، ولعله تأثر فى ذلك بعبد الله بن ياسين ومحمد بن تومرت مهدى الموحدين وكلاهما يندرج فى جملة الصوفية العاملين المجاهدين .

ثم رحل إلى المشرق ، فحج إلى بيت الله الحرام ولقى الشيوخ ، وذهب إلى العراق حيث لقى عبد القادر الجيلانى ولبس الخرقة على يديه ، وعاد إلى المغرب وهو صاحب طريقة جيلانية ولكنها تتميز بتعمق أكثر فى شئون العلم ودراسته وحماس عظيم لخدمة الاسلام والمسلمين ، فارتقى فى صفوف الصوفية ، ثم أصبح وليا فقيها واطلق عليه الناس لقب الغوث أو القطب الغوث ، وكثر

أتباعه ومريدوه كثرة زائدة فى البلد الذى نزل فيه وهو بجاية وخافته الدولة الموحدية ، وهى محقة فى ذلك الخوف ، لأن منشئها وهو محمد بن تومرت بدأ عمله كذلك صوفياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ثم انتهى أمره بازالة الدولة المرابطية .

ويقول أصحاب التراجم أن أبا يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين خاف أمره ، وتقول أنه لقيه وحادثه ، ثم توفى أبو مدين بعد ذلك فى طريق عودته إلى بجاية قريباً من تلمسان ودفن فى قرية العباد قريباً منها .

ويستلفت النظر كثرة تلاميذ أبى مدين وأثره البعيد فيهم . لقد أحصى منهم القادلى فى كتاب التشوف نحو مائتين ، وقال السلاوى أن تلاميذه يناهزون الألف ويقص القادلى عنه من القصص ما يدل على حرص أبى مدين على جمع مريديه حوله وتحويلهم إلى جماعة وظيفتها خدمة الأمة ورعايتها ، والمحافظة عليها والعمل على نشر الإسلام ، ويستوقف النظر كثرة التجار بين مريديه وحثه إياهم على العمل على هداية الناس إلى الإسلام ، وهنا يكمن السبب فى اهتمامنا هنا بأبى مدين ، فقد كان رجلا ذا رسالة إسلامية بعيدة المدى ، ولعل هذا هو الذى أخاف أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى منه . ويتبين لنا من الفارق الكبير بين تصوف أبى مدين وتصوف شيوخه من أمثال أبى الحسن على بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم المتوفى سنة ٥٩٥ / ١١٩٩ والشيخ أبى يعزى يلنور بن ميمون المتوفى سنة ٥٧٢ / ١١٧٦ فهذان كانا صوفيين تقليدين مباعدين للناس عاملين على نجاة نفسيهما أما أبو مدين فقد كان متجهاً إلى خدمة أمة الإسلام وصيانتها وتحويل جماعة مريديه إلى جماعة خادمة للاسلام سواء داخل بلاد الإسلام أو خارجها .

أبو الحسن الشاذلى

ولكن تحول الاتجاه الصوفى من الداخل إلى الخارج الذى بشر به أبو مدين وتوسع فيه عبد السلام بن مشيش وأبو الفتح الواسطى ظهر فى صورته الواضحة

فى حياة تلميذهما الشاذلى وعمله ، فإن أبا الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار الزويلى المشهور بالشاذلى المتوفى فى حميثرا فى صحراء العلاتى بمصر سنة ٦٥٦/١٢٥٨ كان بالفعل مدرسة جديدة فى الصوفية العاملة ، فقد عرف بالفعل كيف يجمع فى طريقته ربما أكبر عدد من المريدين استطاع أن يجمعه صوفى قبله ، وتمكن كذلك من توجيههم إلى العمل النافع للجماعة ، وإذا كانت الأحزاب هى الأناشيد التى كان شيوخ الصوفية ينظمونها لمريديهم لكى يرددوها فى حلقات ذكرهم ونوافلهم التى يقومون بها جماعة فى المساجد أو الزوايا ، فإن الشاذلى يعتبر بالفعل أكبر مؤلف للاحزاب التى يرددها الصوفية والمريدون فى نواحى العالم كله إلى يومنا هذا ، فهو صاحب حزب البحر وحزب البر والحزب الكبير وحزب اللطف وحزب الفتح وحزب النصر وحزب الأنوار ، هذه الاحزاب أو أناشيد القلوب تتضمن الحث على مكارم الأخلاق الإسلامية فى أصفى صورها وتحث المسلم على العمل فى سبيل الجماعة . وكان الشاذلى ينص نصاً شديداً على ضرورة كسب العيش بالعمل ، بل كان لا يرضى عن مريده إذا وجده يميل إلى ترك العمل والانصراف إلى الزهد ، بل كان رأيه أن المريد ينبغى أن يظل فى معترك الحياة عاملا بيده كاسباً رزقه متعاوناً مع غيره على فعل الخير وخدمة أمة الإسلام .

لا غرابة إذن فى أن نرى أن معظم مريدى الشاذلى كانوا من أهل الحرف ومن التجار خاصة ، وأن نجد هؤلاء المريدين يؤمنون بأن انتسابهم إلى الطريقة الشاذلية يؤمن أموالهم ويزيد أرباحهم الحلال ويوسع دوائر أعمالهم ، ومعنى ذلك أن الشاذلى عرف كيف يجعل الصوفى خادماً للجماعة الإسلامية بدلا من أن تكون الأمة كلها فى خدمة المتصوف كما نجد عند معظم من سبقوه . وقبـل السنوسى لم ينشىء أتباع أى شيخ من الزوايا قدر ما أنشأ الشاذلية والدرقاوية والغـالبية العظمى من الطرق الصوفية المغربية والافريقية متفرعة من الشاذلية ويكفى أن نذكر هنا الوقائية والجزولية والعروسية والحفناوية ، وهى طرق كان لرجالها أبعد الأثر فى نشر الإسلام وتعميق جذوره فى افريقية المدارية والاستوائية .

ذلك أن التجار وأصحاب الحرف وجدوا أن الانتساب للطريقة الشاذلية أو أى طريقة متفرعة منها يؤمنهم من الخوف على النفس والعيال والمال الذى كانوا

يشعرون به فى عصور الفوضى والقلق السياسى والاجتماعى ، فتماسكت صفوفهم والتزموا مكارم الأخلاق وأقبلوا على العمل والعيش جماعة فى الزوايا الكثيرة التى أنشأوها ، لقد كانت تلاوتهم لأحزاب الشيخ تقوى قلوبهم وتشعرهم بالأمان ، لأنهم كانوا يحسون إحساساً واعياً حقيقياً بأنهم يعيشون فى رعاية قطب من أقطاب الله فى هذه الأرض ، فمن ذا يستطيع أن ينال منهم ؟ لقد بلغ من إيمانهم بنفع أحزابه أن قال بعضهم إن أهل بغداد لو قدر لهم أن يتلوا حزب البحر للشاذلى لردوا به غزو المغول عن بلدهم وتخريبه .

بهذه القوة الروحية الكبرى وهذا الإيمان العميق تكونت زوايا الشاذلية وما تفرع منها ، وتجمع فيها أهل الحرف والتجار ، وفى حماية ولى الله الكبير سار أولئك التجار يقطعون الفيافى طالبين الرزق الحلال ، وحيثما حلوا انشأوا زاوية هى مسجد ومدرسة ومأوى ورمز للاسلام وأخلاقياته الرفيعة .

وكانت كل جماعة من المريدين وحدة اقتصادية اجتماعية متعاونة يرأسها شيخ الزاوية ، وهو الأب الروحى لكل المريدين كما ذكرنا ، فكان التجار التابعون لنفس الطريقة يتأمن بعضهم بعضا ويقرض بعضهم بعضا ويودعون نقودهم عند بعضهم البعض ، وكانوا لا يأمنون إلا فى شيوخ طريقتهم وأصحاب العهد الذين أخذوه من شيخ من شيوخ الطريقة وفى مخاوف الصحراء أمنت زاوية الصوفية فلم يعد يجرؤ على العدوان عليها أحد ، ومعنى ذلك أن الطريقة الصوفية حملت الإسلام إلى المجاهل والفيافى ، وفى أبعد منازل القبائل الافريقية قامت الزاوية الصوفية الإسلامية رمزاً للأمان والاطمئنان .

وفى تلك البلاد البعيدة كان لابد للتاجر الافريقى الراغب فى المتاجرة مع المسلمين أن يسلم ويدخل طريقة من يعاملهم حتى يأمنوا على مالهم عنده ويأمن على أمواله عندهم ، فإذا أصبح عضواً فى جماعتهم وجد عندهم الخلق المتين والشهامة والوفاء ، فازدادت محبته للاسلام ، هذا إلى جانب ما يعود عليه — الكسب بانضمامه إلى الطريقة .

لهذا يدهش الإنسان إذ يجد عالمَ الإسلام كله خلال القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وما بعده داخلا فى هذه الطرق موزعا بينها ، فقد كان الانتساب إلى الطريقة دخولا فى أسرة متماسكة تهىء لصاحبها الحماية والشعور بالأمان وتجعله فى أمن من عدوان الحكام ، لأن شيخ الطريقة رجل جليل موهوب ، وهو يستطيع التدخل لحماية المظلوم وإخراج المسجون ورد المغصوب وحماية الأولاد والحريم وكان شيوخ الصوفية قادرين على تقريع الحكام ومخاطبتهم فى عنف وإصدار الأوامر إليهم ، وكان هؤلاء يطيعون إما عن خوف حقيق من الصوفى وصلته الوثيقة بالله سبحانه وتعالى أو سياسة منهم وبعد نظر حتى يؤيدهم الشيخ الصوفى ويدعو أتباعه إلى طاعتهم وكما رأينا فيما حدث بين السلطان سيف الدين لاشين والشيخ أبى السعود بن أبى العشائر .

وقد وجدت هذه الطرق الصوفية قبولا عظيما فى بلاد افريقية شمالا وجنوباً ففى المغرب إلى جانب الشاذلية نجد الجزولية والتيجانية والدرقاوية والحبيبية والعيساوية والعزوزية وفى تافللت وواحات الصحراء الافريقية نجد الحبيبية والحداوة وفى الصومال واريتريا نجد القادرية واليافعية وفى الكانم والبورنو وواداى نجد الكرزالية والشاذلية والعروسية والحمارات وفى الهند وما يليها شرقا نجد البناوية والفوقية والقادرية والأشرفية والهندية والخلوصية وفى إيران نجد الحلاقية والقلندرية والجيلانية وفى الصين نجد النقشهندية وفرعاها الخفية والكبراوية (فى خراسان خاصة) وفى تركيا وما وراء النهر نجد الشيبانية والطيفورية والبسطامية ، وفى أندونيسيا نجد الشاذلية بشتى فروعها ، وهكذا .

ولكل من هذه الطرق زواياها وشيوخها ، والمريدون فيها وحدة اقتصادية اجتماعية تعمل باستمرار على مد رواقها وتوسيع مجالها وكسب المريدين وإنشاء الزوايا وهى كما قلنا مساجد وأماكن يجتمع فيها المسلمون بعد صلاة المغرب يؤدون صلواتهم ويرددون أحزابهم وأورادهم ويجددون إسلامهم ويكسبون الأتباع والأصدقاء ، وقد ذكر كاتب هولندى زاوية زارها فى ناحية كليسمتتان فى شمال جزيرة بورينو نشرت الإسلام بين قبائل يعد أفرادها بالألوف ، وقد قال هذا

الرجل إن تلك الزاوية ، الصغيرة الخافية فى ركن بجبال شمال مورفيو كسبت للاسلام أضعاف ما كسب أسقفيات ضخمة أنفق عليها الألوف .

وأجمل ما فى هذه الطرق الصوفية العاملة أنها منشآت شعبية خالصة ، مثلها فى ذلك مثل كل المؤسسات التي قامت عليها سلامة المجتمع الإسلامي ، واستقرار مجتمعه وتقدمه أيضاً كالقضاء والتعليم والفقه والعلم بشقيه الدينى والدنيوى ونقابات العمال والتجار ومراكز بناء السفن التجارية وتنظيم تجارة البحر وإعداد القوافل ، فهذه كلها نظم ومؤسسات وأوجه نشاط قامت بها أمة الإسلام مستقلة عن الحكومات ، فقد كانت الأمة هى التى تعلم أبناءها من الكتاب إلى الدراسات العالية على الشيوخ ومن أولئك الشيوخ التى كانت الأمة تضطلع بتكوينهم كانت الدولة تختار القضاة . حتى هذا كرهته الأمة فامتنع الأتقياء من القضاء عن أخذ رواتب من الدولة حتى يكون القضاء كله — تكوينا وممارسة من عمل الأمة ، وكره أهل التقى والتصاون من العلماء تردد رجل العلم والقاضى وصاحب الفتيا على السلطان بل كان أهل الفضل من أصحاب العلوم الدنيوية كالأطباء يأبون أن يعالجوا أهل الحكم بأجر حتى لا يكون لهم عليهم فضل ، كما فعل أحمد بن ابراهيم الجزار الطبيب القيروانى الجليل ، فقد كان يداوى خلفاء الفاطميين دون أجر صونا لعلمه عن المال الحرام كما قال .

قارن بذلك استظلال جماعات الرهبان المسيحيين أمثال الفرنشسكية والدومينيكيه والجزوتية على البابوية واعتمادها عليه تنظيما وسياسة وتمويلا قام سلطانها فى الغرب إلى يومنا هذا . هيئات لها قوتها وماليتها وسياستها وكل الهيئات الديرية الكاثوليكية مركزها فى روما ، والبابا يختار رؤساءها أو يعينهم فى مراكزهم على الأقل . أما الطرق الصوفية الإسلامية فهيئات دينية مستقلة لا سلطان عليها إلا الله سبحانه .

كذلك كانت تنظيمات الصوفية العاملة والمجاهدة من منشأت الأمة ، لم تشارك فيها الدول ، فكان أهل الطريقة ينظمون أنفسهم بأنفسهم وينشئون زواياهم بأموال الناس ، وكان الناس يتسابقون فى انشاء الزوايا والإنفاق عليها ورعاية

النازلين فيها ، ولم تكن هذه النفقة قليلة ، فقد كانت الزاوية مأوى للغرباء وأبناء السبيـــل ، وكان القائمون بأمر الزاوية يقدمون المأوى والطعام للغرباء والفقراء وأبناء السبيل تنفيذاً لأمر الله تعالى بالعناية بابن السبيل ، فلم يكونوا يرون فى ذلك الإنفاق صدقة أو تفضلا لأن أبناء الصدقات أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى والعناية بابن السبيل أمر آخر ، وأداء الواجبين مطلوب ، وهذه الحقيقة واضحة جداً من كلام ابن بطوطة ، فهذا رجل طاف بأرجاء العالم الإسلامي كله مدى خمسة وعشرين سنة على نفقة أمة الإسلام : كان ينزل دائماً فى الزوايا والمدارس وفيها كان يتناول طعامه ، وهو يحدثنا عن شبكة الزوايا التى أنشأها أهل الطرق وغطوا بها صفحة العالم الإسلامي وحديثه هذا أبلغ من كل مقال .

هذه الزوايا الصوفية كانت من أكبر العوامل فى زيادة انتشار الإسلام خارج حدوده ، فقد كان الإسلام يزحف فى الصحراء الكبرى الافريقية وفى نواحى افريقية المدارية والاستوائية عن طريق رجال الطرق ، وكلما وصل موضعاً أقامت إحدى الطرق الصوفية زاوية ، والزاوية مسجد ومدرسة وملتقى للتجار والسفار ومكان لتلاوة القرآن الكريم والأحزاب والأوراد ، يلتقى فيها الشيخ أو المريد بمن يريد أن يلتقى به من الناس لمطالب الدين وتعلمه والقيام بما تقرره الطريقة من نوافل وأذكار ثم للتحدث فى مصالح الدنيا ، فهى مراكز زيارة وتجـارة وهذا مظهر من الحقيقة العظيمة التى لا تقدرها قدرها عندما تقول أن الاسلام دين ودنيـا .

وفيها أيضاً كان التجار يلتقون ويتبادلون الأموال والبضائع والاتفاقات بالضبط كما كان تجار العالم الاسلامى كله يتلاقون فى مكة كل عام ليعقدوا اتفاقاتهم ويضعوا معاملاتهم فكانت الزاوية اجتماعاً مصغرا فى حين كانت المدن والموانى مراكز تصفية أعمال أكبر . أما أضخم اجتماع فى التاريخ فهو مكة دون شك وهنا يصدق — حرفياً تقريباً — قول الله سبحانه وتعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (الحج ٢٦—٢٨) .

انتشر الاسلام انتشاراً واسعاً عن طريق الصوفية ورجالها ، ففى سكون الزوايا التى انتشرت فى فجاج الأرض كان الوثنى يقبل طالبـا الطعام والمأوى فيجدهما ويجد ما هو أسمى من كل شيء آخر وهو الإسلام فيدخل فيه لأنه يرى ناحية الخير التى يقدمها الإسلام للناس طواعية ودون التماس أجر .

وأختم هذا الكلام عن نصيب الصوفية العاملة المجاهدة فى نشر الإسلام عن طريق الزوايا وتنظيم القوافل بعبارة أوردها واحد من مؤرخى الصحراء الكبرى وهو ادوارد وليام بوفيل قال : اننا نتصور الصحراء الكبرى خلاء قواء لا يجرؤ على اجتيازها أحد خوفاً من الطوارق وأهل النهب من بدو الصحراء ، ولكنها على رهبتها من آمن بلاد الدنيا لمن يعرف كيف يستفيد من شبكة الزوايا الواسعة التى نشرها رجال الطرق الصوفية المسلمون فى أرجائها جميعاً ، فالغريب والقريب والغنى والفقير فى الزوايا سواء ، وشيخ الزاوية حاكم قوى يحكم بسلطان الدين والعرف وكل ما يراه عدلا . هذه الصحراء الشاسعة دخلت الاسلام بكل ما فيها من بشر بفضل المرابط (أى رجل الطريقة الصوفية) وعمله الدءوب بصبره وإيمانه وعشقه للحرية الذى يجعله يفضل الحرية مع شظف الحياة على الخضوع لسلطان الدول والاستمتاع بخفض العيش ، ولكل شيء فى الدنيا ثمن .

الصوفية العاملة المجاهدة ويقظة الاسلام

ومن صفوف هذه الجماعات الصوفية العاملة المجاهدة وما جرى مجراها من جماعات المؤمنين الصادقين خرجت حركات الدفاع عن الإسلام وداره عندما تجلب عليها الاستعمار واقتحم حدودها وصور له الغرور أنه يستطيع سيادة بلاد الإسلام ودراك ثأره منها ، وهو ثأر قديم يرجع أولا إلى ما تصورته أوربا المسيحية من أن الإسلام عدا على بعض بــلاد النصرانية وأدخلها فى رحابه بالسيف ، وثانياً إلى ما توهمه بعض الجاهلين منهم بالإسلام وحقيقته والقوة الكامنة فى كيانه فحسبوا أنهم إذا سيطروا على بلد إسلامى استطاعوا أن ينشروا فيه المسيحية .

وقد اخطأوا فى الأمرين جميعاً ، فمن الأمر الأول نردد هنا ما سبق أن ذكرناه فى دراسة أخرى[١] من أن الإسلام فى حقيقة الأمر لم يفتح بلداً بالسيف ، وانما هو استعمل السيف فى القضاء على القوى الغاشمة التى كانت تستذل الناس وتستعبدهم وتحول دون وصول إليهم ، فما حارب المسلمون أهل الشام أو مصر أو العراق ، وإنما هم حاربوا الطغاة من الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعذبون الناس ويرفضون أن تصل إليهم رحمة الله التى يتضمنها الاسلام ، فما أرغم عراقى أو فارسى أو شامى أو مصرى أو مغربى أو أندلسى على دخول الإسلام ، وإنما هو الإسلام الذى فتح مغاليق القلوب ونفذ إلى صميمها وشملتها بركاته . بل لم ينتزع الإسلام من الفرس أو الروم أرضاً لأن مصر والشام لم تكن قط بأرض الروم ، وإنما كانت أملاكا لدولة الروم أو مستعمرات لها إذا استخدمنا مصطلح العصر ، وقد حازها الروم بالقوة وحكموها بالسيف فكيف يعد انتزاع المسلمين إياها من الروم انتقاصاً من أرضهم . وما كانت أرض هذه البلاد ملكا ولا إرثاً لقيصر الروم وإنما هى لأهلها إذا كان ولابد أن يملك كل قطعة أرض انسان ليعمرها بجهده ، وهذا هو الذى فعله الإسلام : رد أرض الله لله واستعمل عباد الله فى عمارتها وإخراج طيباتها .

وأما فى الثانية فما تيسر لهم رغم الاستعمار أن يكسبوا نفساً واحداً مستها بشاشة الإسلام ، فما هم كسبوا إلا شذاذ افاق يعدون عداً وجمعوا بعض غلمة الشوارع ممن فقد الأب والعائل وربوهم فى الديور وأرادوا تنشئتهم على المسيحية ، ومن بدائع صنع الله للاسلام أن الكثيرين من هؤلاء الصغار ما أن شبوا عن الطوق وعقلوا حتى نزع بهم عرق الهداية إلى الإسلام فعادوا إليه دون أن يستحثهم على ذلك مستحث وذلك كثير جداً فى بلاد الجزائر والمغرب التى طهرها الله بدينه الحنيف تطهيراً .

ولقد استعمر أولئك الناس الأرض واستغلوها وغصبوا خيرها ولكنهم لم ينالوا من الاسلام منالا ، بل كان دخولهم أرض الاسلام دافعاً للناس إلى مزيد

(١) الاسلام الفاتح لكاتب هذا المقال . سلسلة دعوة الحق التى تصدرها رابطة العالم الاسلامى باشراف الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق فى مكة المكرمة هذا الكتاب تحت الطبع .

من الاستمساك بالإسلام ، فصحا الغافل واستيقظ النائم . والإسلام نفسه عزيز لا يناله أحد بسوء . ولقد كان الإسلام هو الذى أيقظ قلوب المسلمين وأنهضهم على أقدامهم .

بعد هذا المدخل عن تطور الصوفية من تصوف مادى ومعنوى سلبى يقتصر على الزهد فى الدنيا وممارسة الرياضات والمجاهدات زهداً فى الدنيا ومحبة فى الله أو يقصد الوصول إلى المقامات والحالات إلى صوفية عاملة وصوفية مجاهدة تعمل لخدمة المجتمع أو لخدمة الإسلام ، ننتقل إلى الكلام على نصيب الطرق الصوفية فى إدخال الصحراء الكبرى ومعظم افريقيــة المدارية والاستوائية شمالى خط الاستواء فى الإسلام .

ولابد لذلك من التعريف بالصحراء الكبرى . وسنرى فى نهاية كلامنا عنها أن هذه الصحراء الكبرى لم يكن من الممكن أن تدخل فى الاسلام إلا عن طريق زحف بطىء تقوم بها جماعات من المؤمنين يقصد أفرادها إلى نشر الاسلام قصدا ، أو يكون انتشار الإسلام نتيجة طبيعية أو حتمية لجهودهم .

الصحراء الافريقية الكبرى

« الصحراء فى اللغة من الأرض المستوية فى لين وغلظ دون القف وقيل : هى الفضاء الواسع . زاد ابن سيدة : لا نبــات فيه . الجوهرى : الصحراء : البرية ، غير معروفة وإن لم تكن صفة . . . وأصحر المكان أى اتسع ، وأصحر الرجل نزل الصحراء . وأصحر القوم إذا برزوا إلى الصحراء [1] » .

ولم آت بهذه العبارة لأتقصى بها أصل معنى اللفظ واستعماله فى اللغة ، وإنما لكى أدل على قلة معلومات أهل اللغة عندنا عن الصحراء وطبيعتها ، ولنقارن بذلك ما يقوله جغرافى عارف بطبيعة الأرض وأشكال سطحها والخصائص الطبيعية والتكوينية والأوروجرافية والطبوغرافية والايكولوجية لـكل نوع من أنواع الأرض .

---

(١) لسان العرب . مادة صحر .

ولكى يتضح ما نريد أن نقوله نورد هنا فقرات مما يقوله الجغرافى الضليع جمال حمدان عن صحراء مصر الغربية . وهو بكلامه هذا يعفينا من الاستشهاد برجل مثل E. F. Gautier الذى ألف عن الصحراء الافريقية كتابا يعتبر من أضعف ما كتب بسبب الخلفية التى وجهت كلامه ، وهى خلفيـــة استعمارية ستتضح حقائقها فى أثناء هذا المقال .

يقول الدكتور جمال حمدان تحت عنوان : صحراء هضبة ومنخفض : « الصحراء الغربية ، فى الدرجة الأولى صحراء هضبة ومنخفض plateau and depression ، فجسمها مصوغ أساساً فى قالب هضبة عظمى واحدة ، تفصصها إلى عدد من الهضاب الاقليمية الثانوية سلسلة من المنخفضات الكبيرة أو الصغيرة ، تستقر على سطحها أو تغور فيه بدرجة أو بأخرى ، ورغم صعوبة تحديد مساحات المنخفضات لتباين حدودها كنتورياً ، فالقدر أن مجموعها لا يقل عن ١٠٠ ألف كم مربع ، أى أكثر من سبع مساحة الهضبة كلها . الهضبة إذن مائدة صحراوية من مقياس عظيم ، إلا أنها مائدة مخرم سطحها — كقطعة من جبن الجرير — بعديد من الثقوب المتفاوتة تتركها فى النهاية متموجة متغضنة بوضوح » .

ثم يتحدث عن « مائدة الصحراء » أى هضبة الصحراء ، ومن الواضح أنه يستعمل لفظ « مائدة » هنا مقتبسا اياه من اللفظ الاسبانى meseta وهو الاسم الاسبانى للهضبة ، فيقول ان الهضبة تنحدر من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق ، ويقول : « فى انزلاقها التدريجى نحو الشمال ، يتنـاوب سطح هضبتنا المسطحات الواسعة كالسرير ، أو التـــلال المسطحة mesas فى جانب والمنخفضات وحافاتها الكويستية (من cuesta وهى المصعد البطىء) فى الجانب الآخر ، فإن ميل الطبقات العـــام هو نحو الشمال فان الحافات الجرفية أو الكويستات تتكون عند حدود التكاوين الجيولوجية المختلفة ، ولأن حضيض الكويستات يمثل مقعرات حادة ، فان الواحات تتكون بدورها تحت أقدام الكويستات وفى ظلها . وهكذا نجد أن كل المنخفضات تقريباً تتميز بحافة شمالية بارزة ، بينما أنها تتفتح على الجنوب بالتدريج إلى مستوى الصحراء المحيطة ،

وصانع الحافات escarptment maker في كل هذه الكويستات الشمالية هو طبقة من الحجر الجيرى الصلب التى تغطى الرمال المفككة أو الطفـــل السهل التعرية » .

ويقول تحت عنوان « الصحراء الرملية » : « فى نوعين من الغطاءات تتألف الغطاءات الرملية والخطوط الرملية ، والأخيرة تقع وتتحلق حول الأولى بحيث تستطيع أن تنظر إلى الصحراء الغربية الرملية برمتها كنظام رملى حلقى Concentric أو نصف دائرى كامل ، ذواته ومركزه قلب بحر الرمال العظيم ، ثم يتخلخل ويضعف كلما بعدنا عنه تجاه الأطراف والأقواس الخارجية إلى أن يتلاشى فى النهاية غرب وادى النيل ، ويلاحظ فى عناصر هذه الصحراء الرملية أن مواقعها ثابتة اقليمياً بصفة عريضة ، فهى تظهر على الخرائط بلا تغير على السنين وسطحها وحده هو الذى يتغير ، ويبدو أن هذه المواقع قد حددتها التضاريس العامة كما يرجح أن هذا حدث فى عصر مناخ أرطب نوعاً حيث تم تثبيت هذه المسطحات الرملية الشاسعة »[1] .

وفى كلامه عن رياح الصحراء يقول جمال حمدان : « وأخيراً فهنا ، أكثر من أى منطقـــة أخرى من صحارى مصر ، يمكن أن نقول مع دى مارتون ودون المبالغة فى التقليل من العوامل الأخرى ، ان الرياح هى سيدة طبوغرافية الصحراء بلا منازع[1] فالجفاف المطلق يكاد يلغى التعرية المائية ، ويترك المسرح خالياً مكشوفاً تماماً للتعرية الهوائية . . »[1] .

وهذا الكلام كله ينطبق على بقية الصحراء الكبرى التى نحاول الآن أن نفهمها لكى نتصور طبيعتها وطبيعة سكانها وكيفية حركة التاريخ فيها ، لكى نعرف فى النهاية كيف دخلت الإسلام .

فمثل هذه الصحراء عسيرة على العيش ، لا تتيسر فيها الحياة إلا بالقدر الذى تسمح به المياه التى توجد فى الواحات ، وهى منخفضات ووهدات تنبجس

---

(١) De Martonne: *A Shorter physical geography*, p. 238.

جمال حمدان ، شخصية مصر الطبعة الثانية ١٩٨٠ ، ص ٢٨٩ وما يليها .

فى قيعانها عيون ماء ، قد تكون من الكثرة والوفرة بحيث ينشأ فيها إقليم زراعى صغير تعيش فيه أعداد طيبة من السكان وتمارس الزراعة ، فتنشأ قرى كبيرة أو صغيرة . وقد تكون المياه من الوفرة بحيث يتكون حول فتحات العيون أشبه بالبركة الواسعة ، وفى هذه الحالة يشق الفلاحون قنوات بين عين وعين وتنشأ عن ذلك قنوات تحمل الماء الوفير ، وهذه هى التى يسميها ابن خلدون بالأنهار كما سنرى فى نصه الذى سنأتى به بعد قليل . هذا ويندر أن تظهر عين واحدة فى المنخفض أو الموقع ، بل فى العادة تكون العيون مجموعات صغيرة أو كبيرة . وقد يحفر الناس بئراً أو أكثر فى بعض المواضع التى يتوقعون العثور على المياه فيها ، فتنشأ واحة صغيرة مؤقتة ، لأن معظم الآبار يجف ماؤها بعد فترة طويلة أو قصيرة من الزمن ، ولهذا فإننا نجد مواضع الصحراء المسماة بئر كذا أو آبار كذا متغيرة غير دائمة ، فقد توجد فى زمان ولا توجد فى غيره ، وقد تجف زمانا ثم تتوفر فيها المياه من جديد ، فيعود الناس إليها وتأخذ اسماً جديدا .

وجدير بالذكر أن لفظ الواحة والواحات لا يستعمل إلا فى الحديث على واحات مصر ، فلفظ واح مصرى قديم ومعناه الماء . أما الواحات فى غير مصر فتسمى جزائر أو قرى أو بلاد ، والجزائر جمع جزيرة والمراد جزائر الصحراء ، لأن الصحراء عند العرب هى بحر الرمال ، وحافات أو سواحل ذلك البحر ، أى مناطق الانتقال من الصحراء القاحلة إلى الأرض المسكونة ذات النبات القليل أو الكثير تسمى « الساحل » ، ففى جنوبى بلاد تونس الحالية توجد منطقة الساحل ، والشريط الطويل من أرض الاستب التى تمتد على حافة الأرض الخصبة فى حوض نهر النيجر وما يجاوره تسمى بلاد الساحل ، وهو اسم عام يطلق اليوم على بلاد مالى وموريتانيا والنيجر وتشاد .

وفى صحراء واسعة مثل الصحراء الافريقية الكبرى تعتبر تلك الجزائر أو القرى مراكز الحياة ونقط الارتكاز أو محطات للطرق التجارية . ولولاها لما استطاع أحد عبور هذه الصحراء الشاسعة من شمال لجنوب أو من شرق لغرب .

ذلك أن مساحة الصحراء الكبرى سبعة ملايين من الكيلومترات المربعة ، فهي ربع القارة الافريقية كلها ، وهي أرض صحراء قاحلة في معظم نواحيها ، تبدأ في الشمال بالعرق وهو شريط متصل من الرمال السائلة التي تسفيها الرياح وتمطيها شكل كثبان الرمال المعروفة بهيئاتها الهرمية التي تنتهي في العادة بقمة طويلة كحد السكين ، وهي في تنقل مستمر بفعل الرياح . وقد قال جمال حمدان عن رمال الصحراء : « وأخيراً ، فهنا أكثر من أي منطقة أخرى من صحارى مصر ، يمكن أن نقول مع دي مارتون ، ودون مبالغة في التقليل من العوامل الأخرى ، ان الرياح هي سيدة طبوغرافية الصحراء بلا منازع [١] ، فالجفاف المطلق يكاد يلغي التعرية المائية ، ويترك المسرح خالياً مكشوفاً تمـــاماً للتعرية الهوائية ، التي يضاعف من انطلاقها انخفاض السطح وانبساطه العام أيضاً . والغريب أن فعل الرياح يعود بدوره فيضاعف من هذا الانخفاض والانبساط بما ينحت من المرتفعات ، ويرسمه في المنخفضات مما يؤدي في النهاية إلى خفض السطح وتسويته واستوائه أكثر degradation, denivellement [١] .

هي إذن صحراء شاسعة من صنع الجفاف المتوالي والرياح السافية أحقابا بعد أحقاب : بعد العرق ، حزام الرمال الذي يتجلى في أوضح صوره في العرق الغربي والعرق الكبير الشرقي جنوبي الجزائر ، نجد أنفسنا أمام أصناف مختلفة من التربة ، فهناك مساحات يغطيها الزلط أو جشيش الحجر ، ومساحات أخرى من أرض صحراوية حجرة أي صخرية لا ينبت فيها شيء ، وتلك هي الحماة ، صحراء الموت الحقيقي ، وهناك هضاب صخرية محطمة السطح بفعـــل الرياح وتغير الجو ، وهنا تتوالى أمامنا أشكال صخرية رهيبة من أخاديد عميقة إلى وديان بعيد المهوى ، إلى قمم جبال عالية ، إلى مسطحات هضبية بلا نهاية ، وهكذا حتى نصل إلى بلاد الساحل ، وهنا يظهر العشب وتدخـــل في مناطق أستب هي التمهيد الطبيعي للدخول في أراضي السفانا ، الحشائش الطويلة وهذه السفانا هي افريقية المدارية : أرض الأعشاب الطويلة والنعام والزراف والغزلان

---

(١) شخصية مصر ، جـ ١ ص ٢٩٠

والوغول واللمط ، صنف من الوعول سميك الجلد ، ومن هذا الجلد تصنع دروع الجلد التى تعرف باسم الدرقات .

وقد أوجز E. F. Gautier وصف سطح هذه الصحراء بقوله : « سهول أفقية ذات سطح نجده فى بعض الأحيان منبسطا متجانسا كما نرى فى صحراء الجزائر المعروفة باسم بلاد ريغ ، وفى أحيان أخرى نجده مغطى بالزلط والحصى مما يجعل السير مؤلما أشد الألم كما نرى فى الصحراء الليبية ، وأحياناً ثالثة يكون هذا السطح قاحلا تماماً فى أراضى الموت المعروفة فى البربرية باسم تاتزردقت (١) .

ونقطع هذا الامتداد القاحل المنخفضات والوهاد التى تقوم فيها الواحات أو القرى . ونظرة إلى الخريطة ترينا ذلك بوضوح ، فبعد أن نغادر مصر متجهين غرباً مخلفين وراءنا منخفض القطارة ومنخفض واحات سيوة ، وكانت تسمى فى القديم سنترية ، أما سيوة فهم قبيل من العرب كان يسكن إلى جوارها نجد أنفسنا أمام منخفض طولى آخر يتمثل فى واحات الجغبوب ثم الكفرة ، ثم تتوالى أمامنا أنواع السطح الصحراوى : « سرير كلانشو ، والسرير هو المرتفع من الرمال المتماسكة ، وتربته رملية هشة ، وصخو الحروج الأسود . وسرير تبيستى الذى يؤدى فى اتجاه الجنوب إلى مرتفعات تيستى التى تصل أحياناً إلى ٣٠٠٠ متراً ارتفاعاً . وبعد ذلك يلقانا منخفض طولى حافل بالواحات : ذلك هو خط زويلة وودان وفزان ثم كاوار التى تصلنا باقليم بحيرة تشاد . هنا نجد أضخم مجموع من جزائر الصحراء الكبرى ، وهنا أيضاً نجد أنفسنا فى مهد من مهاد الاسلام المغربى . فهذه بلاد فتحها عقبة بن نافع الفهرى فيما بين ٤٠ و ٤٥ هجرية . فتحها ووضع فيها بذور الإسلام والعروبة التى لم تلبث ان صارت غايات عروبة وإيمان . وخلال هذا المنخفض عبر الإسلام عبوره الأول إلى افريقيــــة المدارية ، فاخترق إقليم كوار الذى يوصف بأنه دهليز واحات un ceuleir d'oases .

---

(١) E. F. Gautier, *Le Sahara*, 120

ثم نتقحم أراضى صحراوة واسعة حتى نصل إلى سلسلة أخرى من أراضى الخضرة تبدأ بجبل نفوسة جنوبى طرابلس ، وجبل نفوسة جبل أخضر بسبب ما حباه الله به من عيون ماء لا تجف ، هنا ، وفى الخضرة الباهرة وسط رمال الصحراء نجد ملجأ من ملاجىء الاباضيه المغربية ، فهنا وبعيداً عن متناول يد رجال السلطان فى افريقية ازدهرت الخارجيـــة الاباضية التى نشأت أولا فى البصرة وحملها إلى المغرب شيوخ يقال أن منهم عكرمة مولى ابن عباس. وإلى الجنوب الشرق قليـــلا نجد جزيرة غدامس ، وهى محطة قوافل واسعة الشهرة ، وهى أولى مراكز العمران الصحراوى التى تتوالى أمامنا فى مسيرنا غرباً ، فأمامنا وإلى الجنوب — بعيداً — من بجاية نجد بسكرة أجمل واحات الدنيا فيما يقال ، وهنا كتب ابن خلدون نسخة مقدمته التى لا زالت باقية بخطه فى إحدى مكتبات اسطامبول أو إلى جنوبها نجد تقروت أو توجورت ، مركز عمران وتجارة عظيما وسط الصحراء .

ونتجه غرباً قاطعين صحارى فسيحة معطشة مهلكة لنصل فى النهاية إلى الأغواط وهى المدخل إلى أخدود طولى يخترق بلاد مزاب أو مصاب ، وعاصمته غرداية ، وهذا الأخدود بما فيه من مراكز العمران انما هو واحة ماء قليـل وخضرة أقل ، ولكن هنا أيضاً مراكز عمران دينى روحى إسلامى ، فهذا إقليم مزاب المشهور بإيمان أهله وعزتهم واتقهم وجمال مبانيهم ومساجدهم .

ونواصل سيرنا نحو الغرب لنلتقى بأكبر صحراوين رمليتين خارج الجزيرة العربية ، ونعنى بذلك العرق الشرقى الكبير والعرق الغربى الكبير . بحران من الرمال السائلة المتحركة فى جنوبى جمهورية الجزائر . لا يعدل هذين الصحراوين إلا الربع الخالى فى الجزيرة العربية . هنا أرض موات حقـا ، لا يعيش فيها حيوان ولا حشرة ولا طائر ولا ينبث نبـات ، لأن الرمال ناعمة كالدقيق ، والرياح تنقلها من مكان لمكان ، ولكن المنظر جميل حقاً ، فان منظر الكثبان المتوالية التى تصوغها الرياح فى هيئة واحدة منظر يروع النفس ، وسكون الصحراء كذلك أروع .

ونفضى بعد ذلك ، فى منطقة الحدود بين الجمهورية الجزائرية والمملكة المغربية على منخفض فجيج ، تلك الواحة الجميلة التي هى استمرار لنفس المنخفض الذى يبدأ جنوبى تلمسان ويتصل فى الصحراء حتى يبلغ فجيج وما يليها جنوبا إلى تغازى فى إقليم العير أو الآير . هنا منطقة جبلية كثيرة الواحات تشبه منطقة مزاب وغرداية .

ثم نعبر بمنابع نهر الملوية ، هذا النهر الطويـــل الذى ينبع شمالى واحات إقليم تافللت ويسير شمالا يشرق حتى يصب فى البحر المتوسط غربى مليله . هنا منطقة عمران حقيق : هنا نجد مدة وجده وتاوريرت وجرادة أبى القيس واجرسيف (على النهر) وعلى طول تاريخ المغرب كانت تلك منازل الزناتية ثم عرب المعقل من بنى هلال .

جنوبى منابع الملوية نجد نهر زيز . نهر ينبع من جبال الأطلس ، ويدور فى الرمال قوسا واسعا ثم يختفى فى الرميل . معظم الناس ظنوه فرعا من فروع الملوية إلا ابن خلدون فقد قرر حقيقـــة أنه نهر قائم بنفسه . هذا النهر أو النهير فى ذاته صغير ، ولكن حوضه يعرف بمنطقة تافلات التى تسمى اليوم بالريصانى وعاصمتها سجلماسة من أشهر الأسماء فى تاريخ المغرب الاسلامى . . موسى بن نصير عندما اتم فتح المغرب أطلق على ولايته الجنوبية — جنوبى وادى أم الربيع — اسم ولاية سجلماسة أو السوس . وسجلماسة كانت دائماً مركز دولة ، وقد اشتهرت ببنى مدرار الذين انشأوا دولة خارجية صفرية فى النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى . هنا فى واحات سجلماسة قامت واحدة من أشهر جزائر الصحراء فى عالم الإسلام . فقد أجرى الناس ماء العيون ووصلوا بين بعضها وبعض بقنوات تسمى أنهارا وزرعوا القمح والشعير والارز والقطن والفاكهة . هنا مثال ناطق لجزائر الصحراء ، فالى جنوبى سجلماسة أمامنا صحراء واسعة تقطع فى شهرين ، منها واحد بدون ماء تماماً . أخيراً نصل إلى جزيرة أخرى على أبواب افريقية المدارية هى أودغشت : مركز إسلام وحضارة وعمران أقامه الاسلام في موات الصحراء ، هنا رأى ابن حوقل أكبر

صك مالى رآه فى حياته : صك بمبلغ : ٤٠٠٠ دينار صادر لتاجر من أودغشت ، وأودغشت كانت المركز التجارى المقابل لسجلماسة بعد أن تعبر الصحراء الكبرى . كان التجار يخرجون من سجلماسة في القوافل ويقطعون الصحراء فى شهرين : شهر منها فيه ماء وشهر بلا ماء أصلا . وهذه الصحراء يسميها البكرى صحراء تنسر (دون شكل) وقد تكون صحتها ينسر أو نسر .

وبعد تافللت وسجلماسة ليس أمامنا حتى البحر المحيط إلا واحات قليلة أهمها تندوف ، ومنها يصل الانسان إلى البحر . هنا وفى مواجهة تندوف على البحر يجد الانسان جنوبى أغادير قرضه صغيرة على البحر تسمى ايغيران يطوف ، وهى التى وصل عقبة بن نافع إلى البحر عندها وأدخل فرسه فيه وأشهد الله على أنه وصل براية الإسلام إلى آخر المعمور ، ولو وجد أرضا لسار فاتحا حتى بلغ مغرب الشمس الذى بلغه ذو القرنين .

ووصول عقبة بن نافع إلى هذا الطرف القصى من العالم ضربة من ضربات عبقرية رجال الإسلام الأول لم يوفق إلى مثلها الاسكندر المقدونى (وهو غير ذى القرنين) ولا قيصر ولا أحد من فاتحى الدنيا . وقد تيسرت لعقبة العظيم ورجاله لأنهم كانوا أهل عقيدة وإيمان راسخ ورسالة فى الحياة . والانسان إذا آمن بالله وحمل قلبه على كفه أتى بالعجائب .

وأعجب ما فى عمل عقبة بن نافع أن بذرة الإسلام التى تركها هناك أينعت وأنبتت نباتا زكياً ، فهنا تبدأ بلاد صنهاجة الصحراء ، وهى مجموعة من القبائل العفية التى جددت شباب الإسلام المغربى عندما قامت بحركة المرابطين . قامت بها قبائل لمتونة ومسوفة وجزولة وبنى وارث وتارجا وغيرها . هذه القبائل كانت تمتد حتى تعبر الصحراء فى جنوب المغرب الأقصى حتى تصل إلى حوض السنغال وهو مهد الحركة المرابطية . فى الطريق من وادى درعة إلى وادى السنغال نمر بمنطقة الساقية الحمراء ، وانه لغريب أن يقوم فى هذا الموضع القاحل مركز عمران يسمى الساقية الحمراء . كيف وصل لفظ الساقية إلى هناك . وصل عن طريق مهاجرة الأندلسيين بعد نهاية مأساة المسلمين فى الأندلس ، فقد وصل

بعضهم إلى هناك وحفروا الآبار ونصبوا السواقى والنواعير وانشأوا عمرانا وسط المحل الرهيب . وسنرى بعد قليل أن ناحية الساقية الحمراء كانت هى الأخرى — فى القرن السابع عشر الميلادى — مركزا من مراكز تجديد نشاط الإسلام فى افريقية المدارية هذه المرة ، فيما يعرف الآن بموريتانيا والنيجر ومالى وما كان يعرف باسم بلاد غانة . لقد زادت معلوماتنا عن المرابطين وأصولهم وتفريعاتهم وما نشأ بفضلهم من حركات إصلاحية وطرق صوفية كان لها أبعد الأثر فى إسلام الصحراء الكبرى كما سنرى .

وصف بلاد الصحراء عند المسلمين

من أسف أن أكبر مرجع كنا نملكه عن غربى الصحراء الكبرى فقيد اليوم والأمل كبير فى العثور عليه . انه كتاب الرحالة المغربى أبى عبد الله محمد بن فاطمة ، ولكن لدينا إشارات منه عند من عثرنا على كتبهم من المؤلفين مثل ابن خلدون والحسن الوزان المسمى بليون الافريقى وابن بطوطة ، هذا بالاضافة إلى الكنز الأكبر من معلوماتنا عن جغرافية المغرب والصحراء وهو الجزء الصغير من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد عبد العزيز البكرى وكتاب صورة الأرض لأبى القاسم ابن حوقل النصيبى الرحالة .

ولكن معظم هؤلاء يتحدثون عن الناس دون الأرض ، فهم يحدثوننا عن القبائل والناس ونادراً ما يحدثوننا عن ظواهر جغرافية تتصل بالأرض وطبيعتها ، فكل الذى كان يهمهم من ذلك هى عيون الماء والآبار .

ولكن لدينا الآن معلومات غزيرة عن الصحراء جنوبى نطاق الواحات الجنوبية للمغرب المعروفة باسم القبلات ، ومفردها قبلة ، والقبلة فى مصطلح ابن خلدون فى كلامه عن المغرب هى اقليم جزائر الصحراء أو الواحات . وهذه الاقاليم العامرة الصحراوية قليلة ومحدودة المساحة ، ولكنها تتصل من شرق لغرب فيتكون منها نطاق أو خط عمرانى ، وقد أشرنا إلى تلك الحقيقة وسنؤكدها بنص ابن خلدون عظيم القيمة ، فهى تبدأ كما قلنا عند واحتى سيوة

(سنترية) والفرافرة التى كان المسلمون يسمونها الفرفرون ، ولابن حوقل عنها وعن أصحابها كلام طويل غنى بالمعلومات ، ثم فزان قبلة طرابلس فغداس قبلة افريقية (تونس الحالية) فتقروت (توجور) فغرداية ففجيج ثم تافلالت وسجلماسة .

وجنوبى هذه ، وفى وسط الصحراء تقريباً سلسلة أخرى من مناطق العمران ، وهى ليست فى خط واحد عرضى ، ولكن عروضها متفاوتة وهى على الترتيب زويلة وطراغن والقطرون جنوبى إقليم فزان وكانت عاصمته فى الماضى مرزق أما قاعدته اليوم فهى سبها ، وجنوبيها بلاد السرير فى منطقة جبال التبستى ، وهى اليوم من قواعد الطوارق ، وجنوبيها بلاد كوار وقاعدته فى الماضى كانت قرية تسمى كاوار أما اليوم فهى بلما وهو الاسم الحديث لكاوار ، ويلى ذلك تمو وهى آخر واحات كاوار ، ومنها المدخل إلى جمهورية النيجر الحالية . ثم أغادس وكانت فى الماضى قاعدة مملكة إسلامية صحراوية ، وهى اليوم المدخل لجمهورية نيجريا الإسلامية العظيمة ، فمنها يبدأ الطريق المؤدى إلى كانو عاصمة الإسلام النيجرى .

ثم نتجه غرباً فنجد إقليمى تغاذى وتاوديني ، وكان هذا الاقليم مركز دولة إسلامية انشأها رجال الصوفية . وإلى جنوب ذلك نجد الاقليم الأعلى لمنحنى نهر النيجر العظيم الذى كان المسلمون وخاصة الإدريسى وعلى بن سعيد فى «بسط الأرض فى طولها والعرض» . يسمونه بنيل غانة .

وجنوبى هذه المنطقة (تغازى وتاوديني) ندخل فى افريقية المدارية ، وأول ما يلقانا منها بلاد منعطف النيجر . هنا كانت دول الإسلام الافريقية الكبرى : غانة ثم مالى ثم صنغاى ، و كلها من آثار حركة المرابطين . هنا نجد مدن ولاته وتمبكتو التى يكتبها المسلمون تنبكت ومدينة غانة التى زالت الآن وحلت محلها قرية صغيرة تسمى كومبى صالح ومدينتا جاد وكوغه على مجرى النيجر .

هنا ، وفى محاذاة تنبكت نجد مدينة أودغشت التى تحدثنا عنها ، ولا زالت قائمة إلى اليوم على أبواب حوضى نهرى السنغال وغمبيا ، وكلاهما دار إسلام .

هنا يظن أنه كان مهد حركة المرابطين . تلك هى بلاد شعوب التكرور والفولا ، وهما كانا عماد الاسلام المدارى الافريقى .

واستمرار هذه المنطقـــة شرقاً هو إقليم البرنو والكانم ، وهو اقليم إسلام قديم ، إنه اقليم بحيرة تشاد حالياً ، وجنوبه نجد شعب الادماوة الذى يرجع إليه الفضل فى إدخال الإسلام فى الكمرون والجابون وهما مدخل الإسلام إلى افريقية الاستوائية من هذه الناحية .

من ناحية السكان نجد هنا شعوباً إسلامية جليلة القدر تسكن اقاليم واسعة هى دار الإسلام ، فنبدأ عند حوضى السنغال والغامبيا بشعبى التكرور والفولا وامتدادات الفولا وفتوحهم شرقاً فى اقاليم الماسينا والباوول وليتاكو ، وإلى شمال هذه نجد شعب الطوارق الذى يسود الصحراء كلها ولكنه يتركز فى اقليم الهقار الجزائرى وقاعدته مدينة جليلة هى تامنغست التى يكتبها البعض تامنراست وهى كتابة خاطئة ترجع إلى أن الفرنسيين ينطقون الراء غينا ، فيكتبون الغين أحياناً راء ومن أغرب تحريفاتهم تلك قولهم : بنو الارلب يريدون بنى الأغلب .

ويلى ذلك شرقا فيما بين حوضى النيجر ومنطقة بحيرة تشاد وهى بلاد الكانم والبرنو نجد اقليم جوبير وهو اقليم إسلامى يسكنه شعب الهاوزا أو الحوصه ، وهو شعب إسلام وحضارة ، له لغته الخاصة التى يكتبها بالحروف العربية ، ولغته تلك قريبة جداً من اللغة السواحلية ، وهى أصلا لغة تجار العرب الذين نزلوا السواحل الشرقية الافريقية ، ثم اختلطوا بأهل البلاد ، ونشأت عن اختلاطهم اللغة السواحلية أو السواحيلى ، وهى لغة عربية إفريقية أو إفريقية عربية بتعبير أصح تكتب بالحروف العربية .

وهذه المعلومات عن الصحراء والمنطقة المدارية التى عرفناها عن طريق كتابات المسلمين بالعربية أو اللغـــات المحلية يجملها الفرنسيون فى قولهم إن الصحراء الكبرى تتكون من الأقاليم التالية من الشرق إلى الغرب : فزان وكوار ثم اقليم تبستى ثم بلاد عير فبلاد الهقـــار فوادى ريغ فاقليم زبان ثم ناحية فيدكلت ثم توات وغدامس ثم تغازى ثم تافللت ثم تندوف والساقية الحمراء .

وقد قسم الحسن الوزان الصحراء إلى خمس مناطق أو ممالك هى :

١ — بلاد زناقة من المحيط الأطلسى إلى ملاحات تغازى .

٢ — صحراء وانزيقة من ملاحات تغازى فى إقليم العير شرقى صحراء سجلماسة .

٣ — صحراء تارجا أو ترجة وهى بلاد الطوارق ويحدها من الغرب بلد ايغيدى ، وشمالها توات وجرارة وإقليم مزاب أو مصاب وفى جنوبه مملكة اغادس .

٤ — صحراء ورجلا أو واريجلا أو واركلان وغدامس فى الشمال ، وتحد فى الجنوب بالصحراء التى تصل إلى كانو .

٥ — صحراء برداوة بين صحراء لمطة فى الغرب وصحراء أوجلة فى الشرق .

وهذا التقسيم غير سليم ولا منطقى ، وفيه تناقض جغرافى واضح ، ولكن ليس هذا موضع نقده ، إنما موضعه تحقيق دقيق لجغرافية الحسن الوزان .

ونختم هذه الفقرة عن أوصاف الصحراء الكبرى عند المسلمين بكلام ابن خلدون ، وهو إلى يومنا هذا أصح ما لدينا عن الصحراء الكبرى قبل العصر الحديث ، وكلام ابن خلدون هنا من أكبر الشواهد على عبقريته التاريخية والجغرافية فى آن معاً .

قال فى الجزء السادس من تاريخه طبعة بولاق فى ختام الفصل الذى يديره على مواطن البربر فى افريقية والمغرب [١] « هذا وصف هذا البحر الرومى الذى هو حد المغرب من جهة الشمال . وأما حده من جهة القبلة (أى الجنوب الغربى) والجنوب فالجبال المتهيلة المائلة حجزاً بين بلاد السودان وبلاد البربر ، وتعرف عند العرب الرحالة البادية [٢] بالعرق . وهذا العرق سياج على المغرب

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ص ١٠٠ وما يليها . والنص فيه غوامض وبياضات كثيرة لا تستطيع الآن تحقيقها وملء فراغاتها . ونرجو أن يعين الله يوما على نشر هذا الجزء من ابن خلدون نشراً علمياً محققاً .

(٢) يريد هنا عرب بنى هلال بن عامر بن صعصعة وعرب سليم بن منصور الذين كانوا قد انتشروا فى المغرب كله فى أيام ابن خلدون ، وقد حققنا ذلك فى كتابنا) تاريخ المغرب من القرن السادس إلى السادس عشر الميلادى) وهو يطبع حاليا فى دار المعارف فى القاهرة .

من جهة الجنوب ، مبتدىء من البحر المحيط وذاهب فى جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيـل الهابط من الجنوب إلى مصر ، فهنالك ينقطع وعرضه ثلاثة مراحل وأزيد » .

« ويعترضه فى جهة المغرب الأوسط أرض محجرة تسمى عند العرب الحمادة من دوتر (؟) [إلى بلاد الجزيرة] (١) إلى بلاد ريغ ، ووراءه من جهة الجنوب . وبعض بلاد الجزيرة ذات نخيل وأنهار معدودة فى جملة بلاد المغرب مثل بلاد بودة وتمنطيط (٢) فى قبلة المغرب الأقصى .

وتسابيت وتيكورارين (٣) فى قبلة المغرب الأقصى .

وغدامس وفزان وودان فى قبلة طرابلس .

كل واحدا من هذه إقليم يشتمل على بلدان عامرة ذات قرى ونخيل وأنهار ، ينتهى عدد كل واحدة منها إلى المائة فأكثر .

وإلى هذه العدوة الجنوبية من هذا العرق ينتهى فى بعض السنين مجالات أهل الشام (٤) من صنهاجة ومتقلبهم الجائلون هناك إلى بلاد السودان .

وفى العدوة الشمالية منه مجالات البادية من الأعراب الظواعن بالمغرب .

وكانت قبلهم مجالات للبربر كما نذكره بعد .

هذا حد المغرب من جهة الجنوب .

ومن دون هذا العرق سياج آخر على المغرب مما يلى التلول منه ، وهى الجبال التى هى تخوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط فى الغرب إلى برنيق (٥)

---

(١) الاغلب أن المراد هنا ببلاد الجزيرة تلك جزيرة (واحة) فجيج .

(٢) هل المراد هنا بلاد واركلا أو رجلا وجبل راشد ؟

(٣) المراد فى الغالب بلاد الاغواط ومصاب وقاعدتها اليوم غرداية .

(٤) أى المرابطين والطوارق . وفى الأصل الشأم .

(٥) برنيق هى Berenica واحدة من البلاد الخمس التى كانت تتكون منها ناحية برقة وكانت تسمى سيرينايكا أو انطابلس وهو تعريب بنطا بلس Penta-polis أى المدن الخمس .

من بلاد برقة . وهناك تنقطع هذه الجبال . ويسمى مبدؤها من المغرب جبال درن [١] .

وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول [٢] وبين العرق الذى وصفناه آنفا بسائط وقفار أكثر نباتها الشجر وفيما يلى التلول منها .

ويقاربها بلاد الجريد ذات نخل وأنهار .

ففى أرض السوس قبلة مراكش ترودانت والقرى قرويان [٣] وغيرها ، بلاد ذات نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة .

وفى قبلة فاس سجلماسة وقراها بلد معروف .
ودرعة أيضاً وهى معروفة .

وفى قبلة تلمسان قصور متعددة ذات نخل وأنهار .

وفى قبلة تاهرت القصور أيضاً ، بلاد متقابلة على سطر من المشرق إلى المغرب أقرب ما فيها جبل راشد ، وهى ذات نخل ومزارع وأنهار وقصور معينات تناهز المائة وأكثر ، قبلة الجزائر ذات نخل وأنهار .

ثم بلد واركلى قبلة بجاية ، بلد واحد مستبحر العمران كثير النخل .

وفى سمته إلى جهة التلول (أى إلى الشمال) بلاد ريغ تناهز الثلاثمائة منتظمة على حفافى نهر واد ينحدر من المغرب إلى المشرق يناهز المائة من البلاد فأكثر قاعدتها بسكرة ، من كبار الأمصار بالمغرب ، وتشتمل كلها على النخل والأنهار والفدن والقرى والمزارع .

---

(١) واضح هنا أن هذه الجبال يراد بها جبال الاطلس . وهنا يتبين أن نص ابن خلدون الذى بين أيدينا فيه خروم لم ينبه لها الناشر . ومن نتائج هذه الخروم أن ابن خلدون خلط بين سياج العرق وسياج جبال الأطلس .

(٢) التلول جمع تل ، والتل يرد به منطقة السفوح الشمالية لجبال الأطلس ثم الشريط الساحلى . وسيتضح ذلك بعد قليل .

(٣) لم أستطع تحقيق هذين اللفظين بصورة تطمئن إليها النفس . ولكن ما دام الكلام عن ترودانت فالمراد حوض السوس . فلعل صحة القراءة : ترودانت والقرى وودیان .

ثم بلاد الجريد قبلة تونس ، وهى نقطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة ، وتسمى كلها بلاد قسطيلة . مستبحرة العمران مستحكمة الحضارة ، ومشتملة على النخل والأنهار .

ثم قابس قبلة سوسة ، وهى حاضرة البحر من أعظم أمصار افريقية ، وكانت دار ملك لابن غانية كما نذكره بعد ، وتشتمل على النخل والأنهار والمزارع .

ثم فزان وودان قبلة طرابلس ، قصور متعددة ذات نخل وأنهار ، وهى أول ما افتتح المسلمون من أرض افريقية لما اغزاها عمر ابن الخطاب عمرو بن العاص .

« ثم الواحات قبلة برقة ، ذكرها المسعودى فى كتابه » .

« وما وراء هذه كلها فى جهة الجنوب فقفار ورمال لا تنبت زرعاً ولا مرعى إلى أن تنتهى إلى العرق الذى ذكرناه » .

« ومن ورائه مجالات المتلثمين كما قلناه ، مفاوز معطشة إلى بلاد السودان [١] » .

وما بين بلاد هذه والجبال التى هى سياج التلول [٢] بسائط متلون مزاجها : مرة بمزاج التلول [٣] ، وتارة بمزاج الصحراء [٤] ، بهوائها ومياهها ومنابتها ، وفيها القيروان . وجبل أوراس معترض وسطها . وبلاد الحضنة حيث كانت طبنة ما بين الزاب والتل . وفيها مدية [٥] والمسيلة ، وفيها السرسو قبلة تلمسان حيث تاهرت . فيها جبل دمر ، وقبلة فاس معترض فى تلك البسائط .

هذا حد المغرب من جهة القبلة والجنوب » .

إلى هنا ينتهى ما نقلناه من ابن خلدون .

ويلاحظ أنه يجعل آخر حد المغرب خط أو نطاق القبلات التى ذكرناها .

---

(١) تلك هى بلاد الصحراء التى تحدثنا عنها ونحاول الآن أن ندرس كيف دخلت الإسلام .

(٢) التلول يراد بها هنا منطقة البحر المتوسط وهى الشريط الساحلى والسفوح الشمالية لجبال الأطلس .

(٣) يريد ابن خلدون بلفظ مزاج هنا ما نسميه اليوم مناخ ، والمراد مناخ البحر المتوسط .

(٤) المراد مناخ الصحراء .

(٥) فى الأصل مغرة وهو خطأ .

وتلى خط القبلات بلاد الصحراء الإفريقية ، وقد أخذنا فكرة عنها . انها بسائط معطشة كما يقول ابن خلدون ، وهى بلاد الملثمين أى الطوارق ، وتمتد إلى إفريقية المدارية وبلاد كهذه لا تفتح بجيوش وإنما تفتح وتدخل نطاق الحضارة بعملية زحف دينى حضارى يقوم به ناس مؤمنون وهبوا أنفسهم للعقيدة وتجار يدخلون فى زمرة أولئك المؤمنين ويتعاون الجانبان على إدخال هذا العالم الصحراوى الإفريقى فى نطاق الحضارة العربية الإسلامية .

وقبل أن نختم هذا التعريف العام بالصحراء ومناطقها المعمورة نضيف فقرتين اقتبسناهما من كتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديداً وتخطيطاً وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك لأحمد بن الأمين الشنقيطى نزيل القاهرة [١] » .

الفقرة الأولى عن شنقيط أو شنجيط وهى تقابل الجزء الشمالى من جمهورية موريتانيا الحالية ، وهى :

الكلام على شنقيط ، هل هى من بلاد السودان أو من المغرب ؟

« شنقيط من المغرب على ما كنا نعهد ، وذلك معروف عند أهل شنقيط (ثم يتكلم كلاما طويلا ليثبت أن شنقيط من المغرب لا من بلد السودان ، والحقيقة أنها لا من المغرب ولا من بلد السودان — أى إفريقية الغربية المدارية والاستوائية — ولكنها من بلاد الصحراء ، ولم يكن القدماء يرون أن الصحراء إقليم قائم بذاته ، ويرون أن نصفها الشمالى من المغرب ونصفها الجنوبى من بلد السودان . ولكننا نعتبر الصحراء اليوم إقليماً قائماً بذاته . فى الماضى ومن الناحية الجغرافية على الأقل) . ثم يقول الشنقيطى بعد ذلك :

---

(١) هذا الكتاب يعتبر من أهم مراجعنا عن الصحراء الافريقية وخاصة فى جانبها الغربى أى فيما بين جنوبى المغرب الأقصى وحوض نهر النيجر . وقد طبع هذا الكتاب طبعة واحدة (القاهرة ١٩١١/١٣٣٩ وناشره هو محمد أمين الخانجى رحمه الله رحمة واسعة) .

«كانت شنقيط عيوناً تشرب منها الخيل كما تقدم ، وقد مضى من تاريخ عمارتها إلى وقتنا هذا ، وهو عام ١٣٢٩ (١٩١١ م) خمسمائة سنة تقريباً[1] ، وقد بنيت فى أول الأمر على موضع مستو مشتد ، فانتقلت إليها الرمال ، حتى إن جوانبها يخشى عليها أن تواريها الحصباء فيما بعد . وهذا يوجد فى تلك البلاد ، فان منها أماكن دهسة ، فالريح تنقلها على طول الأزمنة كما هو مشاهد . ومن أغرب ما يحكى أن فى بعض صحارى إدر أوداء[2] عامرة بالنخل إلى الآن فيما يقال لا أنيس بها ، ويقال أنها كانت بها قرى فدفنتها الريح وأن بعض أودائها عامر بالنخل ، وأن الريح تلفحه لكثرته وقرب بعضه من بعض ، لأنها تنسف الطلع إلى النخل المحاذى له ، فيغنيه ذلك عن تأبير[3] الناس ، وإذا أفرك[4] فان الريح تسقط ثمره تحت النخل فتأكله الوحوش» .

«. . . قال العلامة سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوى فى رسالته» صحيحة النقل فى «علوية إدوعل وبكرية محمد غل[5]» : وهم — يعنى العلويين — كانوا زمانا قبل توطنهم آبير وشنجيط بتبلبالت[6] . أخبرنى الثقة عن سيدى المختار الكنتى رضى الله عنه أنهم كانت لهم مائة ساقية . وإلى الآن يذكر من مر بتلك الجهة أن موالى العلويين بها ، ويتراجون أحدا منهم أن يكون لهم أساسا . . .» ثم يذكر الشنقيطى أن جده يحيي هو الذى عمر شنقيط ، وذلك أنه كان فى الأصل من أهل تبلبالت ، ثم طرده أهلها ، ثم قتل إنسانا ، ولم يشأ الناس قتله به لعلو مقامه فأخرجوه من بلدهم ، قال : «فجال فى البلاد ،

---

(١) وبناء على هذا يمكننا القول ان تعمير شنقيط وتحويلها إلى منطقة عمران دائم يرجع إلى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وقد وجدت شنقيط وعيون الماء فيها قبل ذلك بزمن طويل ، ولكن عمرانها جاء بعد تعمير منطقة الساقية الحمراء — وسنتكلم عنها — وهى تقع جنوبى وادى درعة .

(٢) يريد : وديان .

(٣) أى القيام بعملية تلقيح اناث النخل بطلع الذكور .

(٤) أى إذا نضج .

(٥) أى فى صحة نسب قبائل ادوعل إلى على ابن أبى طالب رحمه الله وصحة انتساب قبائل «محمد غل» إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

(٦) تبلبالت (فيما يقول الشنقيطى) مدينة لم تزل معمورة بين ادر وتافلات (= تافللت) من جهة البحر .

ثم أتى شنجيط ، وقد بنيت فيه بيوت قليلة فيها (قبيلة) امر يبثى و (قبيلة) «جد أديجر» و (قبيلة) محمد غل ، فأراد النزول معهم ، فقال بعضهم : خلوه ينزل معكم لكن سيستبد بالأمر عليكم ، فسكن معهم» (١) .

وبلاد شاسعة صحراوية كهذه ما كان من الممكن أن تدخل فى رحاب الإسلام بالفتح العسكرى أو بالدعوة المنظمة التى تقوم بها الدول أو يقوم بها الدعاة من أهل الإيمان والاحتساب ، فلا يمكن أن ينتشر فيها دين إلا عن طريق جماعات من أهل الإخلاص للاسلام والرغبة فى نشره ، يقومون بذلك العمل جماعة ، ويتقدمون فى الصحراء على مهل ، أى يحملون الإسلام إلى منطقة بعد منطقة من مناطق الصحراء وجدير بالذكر هنا أن بلاد المغرب تنقسم إلى مناطق عرضية تسير من الشرق إلى الغرب ثم من الشمال إلى الجنوب محاذية سواحل البحر الأبيض أولا ثم ساحل المحيط الأطلسى ، وقد ذكرنا هذه المناطق أو النطاقات . أما بلاد الصحراء فتنقسم مناطقها العامرة إلى مناطق طولية ، أى يمكن تصور مجموعات القرى أو الواحات فى خطوط تمتد من الشمال إلى الجنوب فهناك الخط الممتد من أوجلة والجغبوب والكفرة (جنوبى برقة) ثم الخط الممتد من طرابلس وجبل تغوسة إلى فزان وكوار (جنوبى طرابلس) ، ثم الخط الممتد من بلاد الجريد التونسى إلى غداس وغات ، وفى وسط وجنوب المغرب الأوسط نجد مجموعة كبيرة من هذه الواحات تسير فى خطين . واحد منها من بسكرة ويصل إلى تقروت (توجورت) ، وخط آخر يسير من الأغواط إلى غرداية قاعدة إقليم مزاب أو مصاب ، وكلا هذين الخطين يتلاقيان فى إقليم الهجار أو الهقار وقاعدته تامنفست (وهذه كلها فى الجمهورية الجزائرية) ثم خط وجدة وفجيج ووراكلا أو ورجلا ثم الخط الممتد من فاس إلى إقليم تافللت وقاعدته سجلماسة ، وتسمى الآن بالريصانى وأخيراً هناك الخط الساحلى الذى يسير قريباً من ساحل الأطلسى جنوباً فيصل إلى إقليم الساقية الحمراء واقليم أدرار وشنقيط ويصل فى النهاية إلى حوض النيجر حيث قامت الممالك الإسلامية الكبيرة .

---

(١) الوسيط ، ص ٤١٢ — ٤١٣

ولو ترك الإسلام لينتشر على مهل عن طريق هذه الخطوط من مناطق المزروع والقرى لاستلزم الأمر وقتاً طويلا جداً . ولكن القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى شهد حركة دينية إسلامية ذات طابع جديد سياسى ودينى فى وقت واحد ، وأصحاب الفضل فى هذه الحركة هم قوم من بربر الصحراء يسمون بصنهاجة الصحراء أو صنهاجة الجيل الثانى كما يقول ابن خلدون . وعلى أيدى هؤلاء قامت حركة تصوفية جديدة يمكن أن نسميها بالصوفية المرابطة .

الصوفية المرابطة

وقد درس الباحثون قيام دولة صنهاجة الصحراء هذه التى عرفت بالدولة المرابطية دراسة وافية ، ولكن لدينا الآن معلومات جديدة تدل على أن فكرة الرباط والمرابطة هذه لم تطرأ على الحركة أثناء عمل عبد الله بن ياسين المنشىء الحقيق والإمام الروحى للحركة المرابطية . . وإنما هي بدأت فى منطقة تافلالت وعاصمتها سجلماسة على يد الشيخ وجاج بن زللو ، فيبدو الآن أن هذا الرجل المغربى الافريقى لم يتخذ منطقة تافلالت مقاما له لمجرد أنها وطنه ، بل لأنه كان منظم حركة لنشر الإسلام الصحيح أى السنى فى إقليم تافلالت ثم الامتداد بالإسلام إلى الجنوب عن طريق طرق التجارة وخاصة ما يؤدى منها إلى أودغشت . وهذا التصور الجديد يغير بعض الشيء الصورة التاريخية التقليدية التى تجعل من وجاج بن زللو مجرد شخصية عابرة فى تاريخ الحركة المرابطية ، ومما يزيد فى قدر هذا الرجل هو أنه هو الذى سمى دار تدريسه فى سجلماسة دار المرابطين ، فكأن الحركة ولدت مع هذا الرجـــل لا مع عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر كما كان يظن .

المهم أن هذا الرجل هو صاحب فكرة الرباط الدينى فى هذا الجزء من عالم الإسلام ، وعلى أساس تفكيره نشط وعمل عبد الله بن ياسين الذى جعل دار المرابطين دار جهاد فى سبيل الله ، ومع أن وجاج بن زللو وعبد الله بن ياسين لم يكونا من أهل التصوف أو أصحاب الطريق إلا أنهما انشآ فى تاريخ حركة التصوف الإسلامى تيارا جديدا سميناه بالصوفية المرابطة ، وهذه الصوفية المرابطة

لم تكن صوفية بقدر ما كانت مرابطة ، أى أن الجانب السياسى فيها غلب على الجانب الروحى ، فلم تنشأ على يد هذه الجماعة طريقة صوفية وإنما دولة مرابطية . وهذه الدولة المرابطية تحولت إلى حركة سياسية كبرى لأن الظروف فى المغرب الأقصى والأندلس ثم فى بلاد السودان كانت تستدعى الجهاد الدينى ، وقد قام المرابطون بالجهاد على أحسن ما يكون ، فقام فرعهم الشمالى بقيادة يوسف بن تاشفين بالقضاء على بقايا زندقة برغواطة فى شمال المغرب الأقصى وجعل هذا الجزء من وطن الإسلام بلاد سنة وجماعة ثم عبر إلى الأندلس وقام بالدور الجليل المعروف الذى أنقذ الأندلس الإسلامى ومد فى عمره ما يقرب من أربعة قرون .

وقد كان لحركة المرابطين فى بلد السودان أثر لا يقل أهمية عما كان لها فى شمال المغرب الأقصى ثم فى غربى المغرب الأوسط والأندلس ، فانتشر الإسلام فى بلد السودان وضرب جذوراً عميقا بفضل جهاد أبي بكر بن عمر من ناحية ، ثم بفضل تلميذ من تلاميذ عبد الله بن ياسين يسمى أحمد الحضرمى ، والحضرمى هذا ذهب إلى بلده الماندى أو الماندجى فى حوضى السنغال وغمبيا ، وأنشأ حركة دينية زادت الإسلام انتشاراً ، ومن المعروف أن المرابطين هم الذين حولوا مملكة غانة إلى مملكة إسلامية جعلت بلد السودان بلد إسلام .

وعندما انتشرت الحركة الصوفية واتسع نطاقها فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى واتسع نطاق الطرق الصوفية حتى شملت المغرب الأقصى كله ، وحل العصب الدينى محل العصب الدنيوى تأصلت الطريقة الجزولية وما تفرع عنها مثل العروسية فى المغرب ، وعبرت الصحراء مع طرق التجارة ، ومن القادرية تفرعت الناصرية والرحمانية والمشيخية وغيرهما مما عبر الصحراء إلى بلد السودان وانتشر فيه .

وعلى أساس من هذه الطرق نشأت طرق صوفية سودانية صرفة أهمها الطريقة الكنتية ، ولدينا الآن معلومات طيبة عنها بفضل حفيد لمحمد الكنتى أو محمد كنتا منشىء الطريقة ، وهذا الحفيد هو محمد الخليفة بن سيدى مختار الكنتى .

وسيدى محمد الكونتى هذا كان إسم أسرته الأصلى كونتا أو تكتب أحياناً كناتة ، وأنصاره يجعلون سلسلة نسبه هكذا : محمد الكونتى بن سيدى

على بن يحيى بن عثمان بن دومان (أو عمر) بن عبد الله ياس (أو يحس) عبد الله بن شاكر بن يعقوب بن عقب بن عقبة المستجاب بن نافع . وقد وجدنا هذا النسب فى كتاب رسالة الغلويات . الذى ألفه محمد بن الخليفة بن سيدى مختار الكونتى الذى ذكرناه .

وهذا النسب غير مقبول — ولا معقول — لأنه يجمع فى آباء ذلك الرجل بين عقبة بن نافع وعبد الله بن ياسين وشاكر . وشاكر هذا لا نعرف إسمه الكامل وإنما هو كان واحدا من رجال عقبة بن نافع تركه عند عودته من غزوته الكبرى فى موضع لا يزال موجوداً إلى اليوم على وادى أم الربيع وأمره بإنشاء قاعدة للرباط فيه سميت بإسم رباط شاكر أو شيكر كما يرد إسمه فى نص الشيخ الصالح صالح بن عبد الحليم الذي أثبت لنا بصورة قاطعة أن عقبة وصل بالفعل إلى ساحل المحيط الأطلسى عند قرضة صغيرة على البحر تسمى إيفيران يطوف جنوبى أغادير . وهذا الرجل يقول كذلك فى نصه الذي أشرنا إليه أن أهل اغمات هيلانة جنوبى مدينة مراكش أسلموا فى ذلك الحين وانشأوا مسجداً فى أغمات على وادى نفيس المتفرع من نهر تنسيفت .

ولا يمكن أن يكون شاكر هذا حفيدا ثالثا لعقبة بن نافع لأنه كان معه فى غزوته الكبرى التى انتهت باستشهاده فى تهوده . ولا يمكن كذلك أن يكون عبد الله بن ياسين من أحفاد عقبة بن نافع . فهو نفسه لم يقل ذلك ، ولكن العبرة هنا فى اجتهاد هذا الزعيم الافريقى المنديجى فى ربط نفسه وقبيله بأسماء عظيمة فى تاريخ الإسلام ، وربط نفسه بعصر التابعين ، فقد كان عقبة تابعيا ، فقد كان أبوه نافع بن عبد القيس صحابيا ، إذ انه كان زوج أخت عمرو بن العاص .

وقد أنشأ محمد الكنتى طريقة صوفية متفرعة عن القادرية ، وقال أصحابه كما نقرأ فى رسالة « الغلويات [1] » التى كتبها سيدى محمد الخليفة بن سيدى

---

(١) هذه الرسالة لم تنشر بعد . وقد عثر عليه المستشرق ا. ا. بتران A. A. Batran . وقال انه وجده فى مجوعة كتب الطريقة البكائية فى تمبكتو (تنبكت) ، والأصل محفوظ فى مركز التوثيق العربى فى ايبادان Center of Arabic Documentation in Ibadan وقد نشر مقالا عنه مجلة الأبحاث Research Bulletin. المجلد الثالث سنة ١٩٦٧ . وكذلك كتب عن سيدى محمد الكونتى بحثاً قيما فى كتاب : *Studies in West African Islamic History*, edited by J. R. Willes, London, 1979.

المختار الكنتى أن جده وصل إلى درجة القطبانية العظمى أى أصبح قطبا فى مستوى أبى مدين القطب الغوث ، وكذلك كان حفيده سيدى مختار الكنتى . وكان محمد الكنتى قد اتخذ له مقاما فى قرية صغيرة بين ناحية تيريس والساقية الحمراء . وكلا الموضعين مذكور فى كتاب الوسيط لأحمد بن الأمين الشنجيطى .

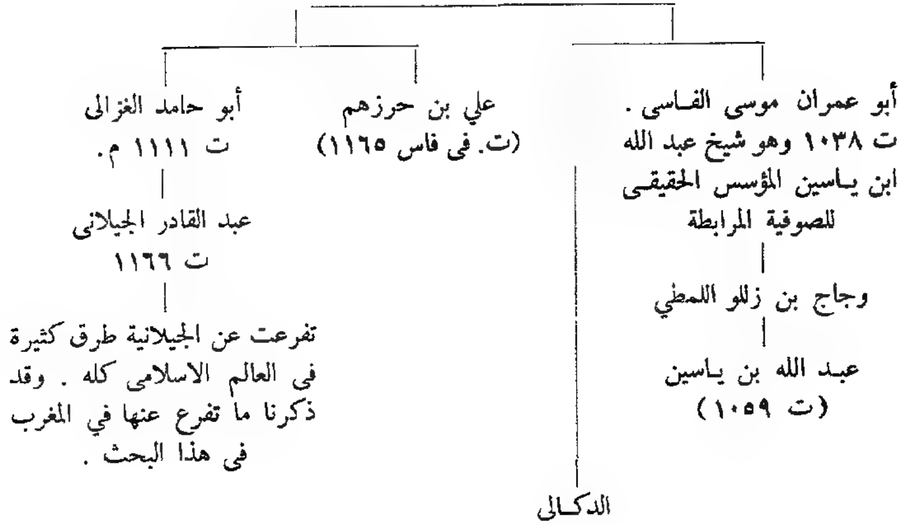
ومن أجداد سيدى المختار الكنتى على المذكور فى نسبه ، وعلى هذا تزهد ووهب نفسه للسياحة فى الأرض واستقر فى آخر عمره فى قرية تسمى عزى قرب تغازى وهناك كان الريدون يتوافدون عليه . وكان ذلك فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى فى أواخر أيام بنى مرين .

ومن الطريقة الكونتية تفرعت الطريقة البكائية وقاعدتها فى توات من كبار مراكز العمران فيما بين المغرب الأقصى وبلد السودان . وقد انتشرت الطريقة البكائية فى كل بلاد الصحراء الغربية ، وكثرت زواياها حتى لا نجد قرية فى غرب افريقية أو فى الصحراء إلا وجدنا فيها زاوية كونتية أو بكائية أو قادرية .

ومعنى ذلك أن الصوفية التى نشأت زهدا واعتكافا عن الناس تحولت إلى صوفية عاملة ثم مجاهدة فى العالم الإسلامى كله وصوفية مرابطة فى بلاد السودان . فكل زوايا هذه الطرق رباطات للجهاد فى سبيل نشر الإسلام ، وكما كانت الشاذلية والجزتانية والمشيشية والتيجانية تزحف من الشمال كانت الكونتية والبكائية وغيرها تزحفان من الجنوب حتى تم بفضل هذين التيارين تحويل وسط الصحراء الكبرى وغربها إلى بلاد إسلام والشيخ ماء العينين الشلقمى ، وهو أكبر شيوخ موريتانيا وأوليائها ينتسب إلى هذه الصوفية المرابطة . فقد كان فى الأصل قادريا ولكنه يربط نفسه بالمرابطين ، وهو صوفى مجاهد مرابط بالسيف والقلم كما يقولون .

* * *

ويطول الأمر لو مضينا نتعقب تاريخ هذه الطرق الصوفية ما بين مجاهدة ومرابطة وما كان لها من الأثر فى نشر الإسلام فى الصحراء الكبرى ، ولكننا نكتفى بأن نورد فيما يلى جدولين بأهم هذه الطرق ننقلها عن بحث قيم نشره R. J. Jenkins فى بحث له عن الطرق الصوفية فى المغرب وبلاد السودان نشره فى كتاب Studies in west African Islamic History الذى ذكرناه فى تعليق سابق فى مقالنا هذا .



يمثل هذا الجدول تسلسل أهم مشيخات الصوفية المغربية عن شيوخ الصوفية فى المشرق

جدول زمني بأهم
الطرق الصوفية في المغرب وبلد السودان

الطريقة	موطنها ومؤسسها ومقر زاويتها الأم	شمال المغرب الأقصى وجنوبه وبلد السودان	المغرب الأوسط	تونس وليبيا
القرن ١٥ م				
العيسوية	مؤسسها أبو عيسى ت ١٥٣٣ قاعدتها مكناس			
الكنية القادرية	محمد الكنتي قاعدتها في الساقية الحمراء	جنوب المغرب الأقصى وبلد السودان		
البكائية	وزواياها منتشرة في كل بلاد السودان	جنوب المغرب الأقصى		
القرن ١٦ م				
الكرزازية	مؤسسها الكرزازى وقاعدتها كرزاز	جنوب المغرب الأقصى		
الشيخية	مؤسسها سيدى الشيخ الابيوضى ت ١٦١٨			
الناصرية	محمد الناصر ت ١٦١٦	قاعدتها في تمجروت جنوب المغرب الأقصى		
الوزانية	سيدى عبد الله الوزاني قاعدتها وزان			

الطريقة	موطنها ومؤسسها ومقر زاويتها الأم	شمال المغرب الأقصى وجنوبه وبلد السودان	المغرب الأوسط	تونس وليبيا
القرن ١٧ م				
الحنظلية	الشيخ محمد الحنظل ت ١٧٠٢ قاعدتها دادس		المغرب الأوسط	
الزياتية	أبو زيات ت ١٧٣٣		قاعدتها كنداسة جنوبي المغرب الأوسط	
التيجانية	التيجاني ت ١٧٨١			
الرحمانية	سيدى عبد الرحمن		قاعدتها ايت اسماعيل فى الحوجرة فى الجزائر	
القرن ١٨ م				
الدرقاوية	العربى الدرقاوى	قاعدتها في بوبرى فى المغرب الأوسط		
الدينية	أبو مدين شعيب			
السنوسية	محمد بن علي السنوسى			قاعدتهافى الجغبوب فى مصر فى ذلك الزمن (ت ١٨١٣) وهى الآن فى ليبيا
العينينية	الشيخ ماء العينين ت ١٨٩٠	قاعدتها فى سمارة في موريتانيا		

إلى هنا نقف بهذا البحث الذى طال . وكان بودنا أن نتحدث فى إسهاب عن السنوسية التى تعتبر من أكبر العوامل فى نشر الإسلام فى الصحراء الافريقية كلها ، وزواياها تعد بالمئات منتشرة فى شبكة واسعة من مصر إلى بلاد الكانم والبرنوفى تشاد الحالية . وهى نموذج عظيم للصوفية المجاهدة المرابطة . فان السنوسيين نشروا الاسلام فى جزء كبير من الصحراء الكبرى ، ثم تصدوا للاحتلال الايطالى وانضم إليهم كل أهل الصحراء وخاصة الطوارق . ولكن المعلومات عن السنوسية والمؤلفات فى تاريخها الحافل كثيرة ، ولهذا نكتفى بهذه الاشارات إليها لنستكمل الكلام عن فضل الطرق الصوفية فى تحويل الصحراء الكبرى وبلاد السودان إلى بلد إسلام م ؟

د. حسين مؤنس

«من جديد حول التأثيرات الأندلسية في العمـارة المصرية الاسلاميـة»

كنت قد أثرت فى مقال سابق صدر منذ نحو ربع قرن [١] موضوع التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الإسلامية ، وعزوت تلك التأثيرات إلى نزول أفواج متتـابعة من المغاربة وأهل الأندلس فى مصر وذلك منذ قيام الدولة الفاطمية ، وأرجعت انتشارها فى المنشآت المصرية فى العصرين الأيوبى والممـــلوكى إلى تزايد عدد الوافدين إلى مصر ، على الأخص فى هذا العصر الأخير ، بازدياد نشاط حركة الاسترداد المسيحى فى أعقاب هزيمة الموحدين فى العقاب سنة ٦٠٩ هـ. وبداية انفراط عقد دولة الإسلام فى الأندلس ، وما ترتب على ذلك من سقوط أهم قواعد الاندلس فى أيدى القشتاليين والأرغونيين والبرتغاليين الأمر الذى أدى إلى هجرة السواد الأعظم من سكان هذه المدن إما إلى القواعد الإسلامية الباقية فى الأندلس التى ظلت تتلقى سيلا متصلا من هذه الهجرات حتى سقوط مملكة غرناطة ، أو إلى أرض المغرب حيث نزلوا فى حواضره المختلفة وداخلوا أهلها وشاركوهم فى الصناعات والفنون والآداب [٢] ،

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الإسلامية ، مقال بمجلة « المجلة » العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٨٨ — ٩٩

(٢) أشار ابن مرزوق فى كتابه « المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن » إلى بعض الصناعات الأندلسية التى راجت فى بلاد المغرب لتوافر البنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفـارين (انظر : Lévi-Provençal, *Un nouveau texte d'histoire mérinide; le Musnad d'Ibn Marzouk*, Hespéris, t. V, année 1925, p. 38. وانظر النص الأصلى المسند ، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ومحمد بوعياد ، الجزائر ١٩٨١ ص ٤٤٨ ، وراجع الأثر الأندلسى فى هذه الصنـائع فى : عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، ج ٢ ١٩٥٨ ص ٩٣ — ٩٥ وفى الأثر الأندلسى بتونس راجع ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٥٩ ص ٧١٧ و ٧٥٠ و ١٠٣٩ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٧٩ — ٢٨٠) .

أو إلى مصر(١) القاهرة والاسكندرية حيث شاركوا أهلها بما لديهم من صنائع وأسهموا بنشاطهم فى البنـاء الحضرى المصرى فى عصر دولة المماليك . وكان لذلك الاتصال الوثيق بين هؤلاء الأندلسيين النازحين إلى مصر وبين أهلها أثره الكبير فى ظهور بصمات أولئك الأندلسيين فى جميع مناحى الحياة المصرية أدبية ومادية ، وأخذت التقاليد الأندلسية ترسخ فى الفنون والصنائع وتتداخل مع التقاليد المحلية . وقد أوضحت فى مقال طويل باللغة الإسبانية فى طريقه للنشر(٢) بعض مظاهر هذه التأثيرات الأندلسية فى العمارة وفنون الزخرفة المصرية منذ العصر الفاطمى حتى نهاية عصر دولة المماليك الجراكسة ، ويتمثل فى نظام المآذن ذات القاعدة المربعة ، وفى القبوات التى تختلط فيها المقرنصات بالضلوع البارزة المصلبة ، وفى الأشكال المتعددة للعقود الأندلسية التى انتشرت فى المنشآت المصرية وعمرت واجهات المساجد والمدارس والأضرحة ، والمآذن : كالعقود المتجاوزة لنصف الدائرة ، والعقود المفصصة ، والعقود متعددة الفصوص ، والعقود التى تتداخـل فيها الخطوط بالمنحنيات Mixtilíneos ، والعقود المتشابكة entrelazados والمتقـاطعة entrecruzados . وتتمثـل معظم هذه التأثيرات الأندلسية بحق فى ضريح السيدة رقية الذى يعرف أيضاً بمسجد الأندلس(٣) لكثرة ما يزدان به من الزخارف والتنميقات أندلسية الطابع .

ومن الغريب أن التأثيرات الأندلسية طغت أيضاً على النظـام المعمارى لأسوار الاسكندرية فى العصر الأيوبى ، وهذا هو الجديد فى موضوع التأثيرات . ولتوضيح ذلك تجدر الإشارة إلى أن مدينة الاسكندرية شهدت على الأخص

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٨٠

(٢) *Influencias del arte hispano musulmán sobre el arte islámico de Egipto,* en «Cuadernos de la Alhambra» (el número próximo).

(٣) المقريزى ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، طبعة القاهرة ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ص ٤٤٦ ، ٤٤٨ .

فى العصر الفاطمى تطوراً عمرانيا واسع النطاق أدى إلى امتداد العمران خارج نطاق السور الذى كان ابن طولون قد طوّق به المناطق المأهولة بالسكان فى الثغر السكندرى فى عهده ، على الأرجح عند زيارته له فى شعبان سنة ٢٥٩ هـ. (٨٧٢ م.) ولم تلبث الاسكندرية أن اكتظت فى العصر الفاطمى بالمنشآت الدينية والمدنية التى ينعكس فى معظمها التأثير الأندلسى ؛ ومن الواضح أن هذا التأثير اقترن باستقرار جالية أندلسية بالثغر السكندرى نذكر من أبرز رجالاتها الشيخ أبو بكر محمد الطرطوشى الأندلسى الذى أسس مسجده عند باب البحر فى سنة ٥١٦ هـ.(١) .

والقاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديدى الذى نرجح أصله الأندلسى(٢) .

ومن مظاهر هذا التأثير الجامع الشرقى المعروف بجامع العطارين أو جامع الجيوشى الذى جدده أمير الجيوش بدر الجمالى المستنصرى بالبناء فى سنة ٤٧٧ هـ(٣) واتخذ فى صحنه روضة(٤) على غرار مساجد الأندلس ، وفيها يقول النويرى :

حوى روضة خضراء فى وسط صحنه ... فأصبح ذاك الروض ريان منزعا(٥)

ويعتبر جامع العطارين لذلك الجامع الوحيد فى الديار المصرية الذى اتخذت

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد ، ص ٩٢

(٢) لعله من أسرة قاضى طليطلة أحمد بن حديدى وأسرته كانت من الأسرات العربية المرموقة فى طليطلة ، وقد تولى الوزارة فى أيام اسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة ، وقد انتهى أمر ابن حديدى المذكور بالقتل على يدى القادر بالله يحي بن ذى النون بطليطلة (٤٦٧ — ٤٧٢ هـ) ولعل بقية أسرته هاجرت من طليطلة بعد نكبته ، فتفرق شملها ، وقد يكون بعضهم قد لجأ إلى الاسكندرية فى العصر الفاطمى . (راجع عن ابن حديدى : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٤٠٣) .

(٣) طالع النقش التذكارى فى اللوحة التأسيسية المثبتة بأدنى المئذنة والمنشور فى *Repretoire chronologique d'Epigraphie arabe*, t. 7, p. 225.

(٤) النويرى السكندرى ، مخطوطة الإلمام بما جرت به الأحكام ، ص ١٦٣ ب

(٥) نفس المصدر .

بصحنه روضة ، ومن المعروف أن أول من أدخل نظام الرياض فى صحون المساجد هو الأمير عبد الرحمن الداخل الذى عهد إلى عبد الله بن صعصعة بن سلام (ت ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد بأن يغرس صحن المسجد بالأشجار ، ففعل واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك ، فطبق فى بقية مساجد الأندلس .

ومن المعروف أن التقاليد الأندلسية تفشت فى فنون البناء والزخرفة وانتشرت انتشاراً واسعا فى الزخارف الجصية والحجرية التى تكسو بنيقات التربيعات المحيطة بعقود المحاريب فى أضرحة ومشاهد السيدة عاتكة والجعفرى والحصوانى وأخوة يوسف والسيدة رقية ، وفى التوريقات والتوشيحات التى تزدان بها بعض نوافذ الجامع الحاكمى ، وواجهات المئذنتين ، وتشبه نظائرها فى الكسوات الحائطية بقصور الزهراء ، وتظهر هذه التوريقات كذلك فى حدائر العقود بمسجد الصالح طلائع بن رزيك ، وفى عقود واجهة المسجد الأقمر .

ولقد استلزم الأمر بعد أن فاض العمران السكندرى فى العصر الفاطمى خارج نطاق الأسوار الطولونية التى لم تقو على إيقاف فيضه على الأخص من جهتى الجنوب والشرق ، تطويق المناطق المستجدة خارج المدينة بسور يضمها ، أرجح أن يكون قد أنشىء فى بداية سلطنة الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى خصّ الاسكندرية بجانب كبير من اهتمامه وعنايته [١] ، فقد شرع فى بناء هذا السور عند زيارته الأولى لهذه المدينة وهو بعد وزير للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله (فى ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م) [٢] ، وأتمه

---

(١) راجع تفاصيل ذلك فى مقالى : « العمران السكندرى فى عصر شمس الدين السخاوى » ، بحث ألقى فى ندوة السخاوى التى نظمها المجلس الأعلى للثقافة فى نوفمبر ١٩٨٠ بالقاهرة (تحت الطبع) .

(٢) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ٢ ص ٤٨٦ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ص ٣٢ .

عند زيارته الثانية للثغر فى سنة ٥٧٢ ﻫ (١١٧٦ م)[٣] ، أى أن أعمال البناء وعمارة السور استمرت ست سنوات . ثم زار صلاح الدين الاسكندرية فى ٢٥ من شوال سنة ٥٧٧ ، فخيم عند السوارى وشاهد الأسوار التى جددها وأمر بالإتمام والاهتمام[٤] . هذا وقد اعتمدت فى اثبات هذا الرأى بالإضافة إلى النصوص التاريخية على أدلة أثرية قوامها التشابه الواضح فى نوع الحجارة المسنمة التى تظهر فى أحد الأبراج المتبقية من سور الاسكندرية الشرقى (فى حدائق الشلالات) من حجارة بعض أبراج قلعة الجبل ، وأحجار برج الظفر ، وأحجار سور الفسطاط وكلها من عصر صلاح الدين .

كان هذا السور الذى أنشئ حسب اعتقادى على يد صلاح الدين مزوداً بأسوار أمامية على النحو المعروف فى أسوار إشبيلية وبطليوس زمن الموحدين ، فكان السور السكندرى مزدوجاً ؛ ينفتح فى السور الأمامى باب واحد ، بينما ينفتح فى الستارة الرئيسية بابان . ونستدل على ذلك من الوصف الذى ساقه النويرى السكندرى لزيارة السلطان الأشرف شعبان للاسكندرية فى سنة ٧٧٠ ﻫ (١٣٦٨ م) ، وهو وصف يؤكد ذلك ، ويتمثل فى قول النويرى أن السلطان خرج « من باب البحر الذى يلى البلد ، فنثر عليه مقابل دار العدل ودار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس ، ثم سار من باب البحر الثانى ثم الثالث ، فشاهد البحرالملح والمينة بها مراكب الفرنج » وقوله عند إشارته إلى دخول السلطان المدينة من خلال أبواب الباب الأخضر « ثم إنه دخل من الباب الأخضر وسار إلى أن اجتاز بضريح الشيخ الصالح الفقيه العالم العلامة أبى بكر الطرطوشى . . . فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب وفتح له الباب الأول والثانى مما يلى البلد وسار به وزيره سيف الدين الأكز المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين السورين

---

(١) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية فى التاريخ ، ج ١٢ ص ٢٩٦

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٢ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١١٢

إلى أن أتى به دار الطراز »[١] ونستنبط من هذا الوصف أن السلطان خرج من البابين الأول والثانى من جهة المدينة فألقى نفسه بين السورين ، ثم خرج من الباب الثالث فشاهد الميناء ، بمعنى أن الباب الواحد كان له ثلاثة بوابات . ويتضح ذلك أيضاً فى وصف النويرى السكندرى لأعمال التخريب التى قام بها القبارصة فى الإسكندرية ، ومن جملتها أنهم أحرقوا الأبواب الثلاثة للباب الأخضر[٢] . ويؤكد غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى نائب السلطنة بالإسكندرية وصاحب كتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ازدواج السور السكندرى فى قوله : « يشتمل على سورين محكمين » وقوله أن لكل باب من أبواب الاسكندرية ثلاثة أبواب من الحديد[٣] .

ومن المعروف أن أسوار إشبيلية المرابطية أضيف إليها فى عهد أبى العلاء إدريس المأمون بن المنصور الموحدى أسواراً أمامية فى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢١ م)[٤] ، وان كانت الأسوار الأمامية قد ظهرت لأول مرة فى الأندلس فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ، وفى عهده زودت أسوار قلعة جابر بالأسوار الأمامية ، كما شيد أسوار قصبة بطليوس ، ثم انتشر هذا النوع من الأسوار فى الأندلس وطبقت فى أسوار قصبة بطليوس ، وأسوار الجزيرة الخضراء وبسطة ولوشة ومالقة وجيان وشريش . ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين كان معاصرا للمنصور الموحدى وأنه اتصل به وكاتبه[٥] .

---

(١) النويرى ، مخطوطة الإلمام ، نسخة دار الكتب المصرية ١٤١ أ ، ١٤٢ أ

(٢) النويرى ، نفس المصدر ، نسخة الهند لوحة ١٨٤

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشره بول رافيس ، باريس ١٨٩٤ ص ٣٩

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، طبعة تورنبرج ، أبسالة ، ص ١٨١ — الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبى شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠ ص ٥٨

(٥) سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن الموحدى ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ١٩٥٣ ، ص ٨٤ — ١٠١ مختار العبادى ، البحرية الإسلامية فى مصر والشام فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٨٨ .

وفى عهد صلاح كثر توافد المجاهدين المغاربة المتمرسين فى شئون البحر[١] المشاركة فى الجهاد ضد قوى الفرنج ، واستقرت بالاسكندرية طائفة كبيرة منهم ومن أهل الأندلس ، نذكر منهم على سبيل المثال :

اليسع بن حزم الغافقى الأندلسى الجيانى (ت ٥٧٥ هـ)[٢]

أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد الدانى (ت ٦٢٤ هـ)[٣]

الفقيه أبو بكر محمد بن على بن خلف الجيانى (ت ٥٩٦ هـ)[٤]

أبو على الحسن بن محمد بن الحسن الأنصارى المرى المعروف بابن الرهبيل (ت ٥٨٥ هـ)[٥]

أبو أحمد جعفر بن لب بن محمد اليحصبي الشاطبى (ت بعد ٥٩٠ هـ)[٦]

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الشاطبى البلنسى (توفى بالإسكندرية فى ٦١٤ هـ)[٧]

أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربى الإشبيلى (توفى بالاسكندرية فى ٦١٧)[٨]

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان الأنصاري البلنسى (ت ٥٩٨)[٩]

وغير هؤلاء كثيرون ، لا يتسع المجال لذكر أسمائهم . ولعل تدفق المغاربة والأندلسيين على الاسكندرية واشتراكهم فى أحداثها السياسية ونشاطها العلمى

---

(١) مختار العبادى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ، طبعة مصر ١٣٢١ هـ ص ٢٣٦ — المقرى ، نفح الطيب ج ٣ ص ١٤٠

(٣) المقرى ، ج ٣ ص ٢٦٢

(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٢٦٤

(٥) نفسه ، ج ٣ ص ٢٦٦

(٦) نفسه ، ص ٢٦١

(٧) نفسه ، ج ٣ ص ٢٤٦

(٨) نفسه ، ج ٢ ص ٢٨٢

(٩) نفسه ، ص ٩

وفى الجهاد أكبر[١] الأثر فى حمل صلاح الدين على إنشاء دار لهم بالإسكندرية ومارستان ومدرسة وحمام . وظـل المغاربة والأندلسيون ينزلون الاسكندرية ويتخذونها دار رباط حتى نهاية عصر المماليك ، وقد لعبوا دوراً هاماً فى الدفاع عن الاسكندرية فى وقعة القبارصة لخبرتهم فى القتال البحرى ، وقد عرّفهم النويرى بأنهم فرسان البحر لاعتيادهم ذلك[٢] .

ولا نستبعد أن يكون من بين هؤلاء الأندلسيين العلماء أو المرابطين من كان يعمل بالبناء والزخرفة ويتكسب منهما بالاضافة إلى اشتغاله بالعلم أو ايثاره للجهاد ، ومن هؤلاء أبو القاسم بن حاضر الجزيرى الخزرجى (ت ٦٣٩ بالقاهرة) وكان عالماً بصناعة التوريق[٣] ، وهى الزخرفة النباتية التى كان يجيدها الأندلسيون . ولا نستبعد كذلك أن يكون جماعة من هؤلاء الوافدين الأندلسيين تركوا بصماتهم فى الفنون الزخرفية والمعمارية بمصر الإسلامية ونقل بعضهم نظام الأسوار الأمامية وطبقه على أسوار الاسكندرية .

دكتور السيد عبد العزيز سالم

(١) النويرى ، مخطوطة الإلمام ، ص ٢٧٧ ب ويبرر النويرى الاستكثار منهم بقوله : « لأن الفرنج ليس يقهرهم سوى المغاربة وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم فى بر وبحر » (النويرى ، ص ٢٧٧ ب)
(٢) النويرى ، مخطوطة الإلمام ، ص ١١٦ ب
(٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤١١

الأهوانى ...

رائد الدراسات الأندلسية

— ١ —

كانت الدراسات الأندلسية فى مصر والعالم العربى — قبل الأهوانى — دراسات اجتهادية ، سواء فيما يتصل بتحقيق النصوص أو ما يتعلق بالبحوث . وذلك لأن وسائل الدراسة المنهجية لم تكن قد توفرت بعد ؛ فلم تكن المادة المعينة على الدرس متوفرة ، ولم تكن الرؤية العلمية للدراسات الأندلسية واضحة . . فالنصوص المنشورة لم تكن تعدو كتاب « نفح الطيب للمقرى » ، وكتابى « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » لابن خاقان ، ويضاف إلى تلك الكتب الثلاثة ما يتصل بالأندلس من « تاريخ ابن خلدون » . . وأما الرؤية العلمية فقد كانت مشوبة بكثير من العاطفية التى تتعلق بمأساة الفردوس المفقود ، ولا ترى من الأندلس إلا هذه الطبيعة الفاتنة التى عصفت بها ريح الضياع . . ولذا كانت الدراسات المتصلة بالأندلس ينقصها كثير من المنهجية والوسائل العلمية والنظرة الموضوعية . وإذا استثنينا كتاب الدكتور أحمد ضيف « بلاغة العرب فى الأندلس » فإننا لا نكاد نجد فى المكتبة العربية — حتى الأربعينيات من هذا القرن — دراسة علمية أندلسية منهجية جادة . .

وشاء الله أن يصنع رائدا للدراسات الأندلسية ، وأن يكون هذا الرائد إنساناً جديرا فعلا بمسئولية الريادة ؛ ففيه ذكاء لماح ، وفيه إقبال وصبر على

العلم ، وفيه طموح واختيار لما هو صعب ، وفيه سماحة وحب للعطاء ، وفيه زهد وصوفية من أجل الحقيقة ، وفيه أستاذية وأبوة يجملهما تواضع كريم وحب غامر للناس والطلاب منهم بصفة خاصة .

وكانت بداية اتصال الأهوانى بالدراسات الأندلسية أيام أن كان طالبا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة . فقد درس شيئا عن الأندلس وتاريخها وأدبها فى حدود ما كان يدرسه الطلاب فى تلك السنوات على أساتذة كبار ، ولكنهم كانوا مجتهدين فيما يتصل بالأندلس . وليس من شك أنه استمع أيضاً إلى محاضرات الأستاذ ليفى بروفنسال — المستشرق الفرنسى — الذى كان أستاذ زائر بكلية الآداب سنة ١٩٣٧ . وأغلب الظن أن الأهوانى قد قرأ فى نفح الطيب ونحوه من تلك الكتب المتصلة بالأندلسية والمعروفة حينذاك .

وهذا كله قد جذب الفتى الواعد إلى الدراسات الأندلسية ، ولكن هذا الجذب كان حتى تلك السنوات مشوبا بالعاطفية والنظرة « الرمانسية » التى كانت ترتبط بالأندلس عادة عند الدارسين العرب وعند الشباب منهم بصفة خاصة . .

ثم تخرج الأهوانى من كلية الآداب سنة ١٩٣٨ ، فألحقه الدكتور طه حسين بلجنة تحقيق كتاب « الذخيرة » لابن بسام . وهو الكتاب الذى كان قد أحضره الأستاذ ليفى بروفنسال إلى مصر ، فاتفق معه الدكتور طه حسين على نشر الكتاب عن طريق لجنة من أساتذة كلية الآداب ومعهم الأستاذ ليفى . . وقد عمل الأهوانى مع لجنة تحقيق « الذخيرة » نحو ست سنوات ، من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٥ ، وشارك فى إخراج ثلاثة مجلدات من هذا الكتاب القيم ، وهى : مجلدان يمثلان القسم الأول من الذخيرة ، ثم مجلد من القسم الرابع منها . . ولا شك أن عمل الأهوانى فى تحقيق هذا المرجع الأندلسى القيم قد فتح عينيه على كثير من الحقائق ، وعدل نظرته إلى الدراسات الأندلسية تعديلا قربه من الأصول المنهجية . فبالإضافة إلى وقوفه على المادة التاريخية

والأدبية الغزيرة ، قد عرف أمرين بالغى الأهمية ، أولهما : أنه لا غنى للمشتغل بالأندلسيات عن الاتصال المباشر بالمراجع والمصادر التى لا يزال أكثرها مخطوطا ، وثانيهما : أنه لا بد للمقدم على الدراسات الأندلسية من معرفة اللغة التى كانت تخالط العربية فى الأندلس ، وهى اللغـة المسماة « رمانثى » التى هى إحدى عاميات اللاتينية ، فكثير من ألفاظ تلك اللغة يتخلل النصوص التاريخية والأدبية ، ولا سبيل إلى فهم تلك النصوص على وجهها إلا بمعرفة تلك اللغة ، ولأن تلك اللغة قد تطورت إلى الإسبانية عن اللاتينية الأم ، فالطريق هو معرفة الإسبانية الحديثة واللاتينية القديمـة ، هذا بالإضافة إلى ما تعين عليه الإسبانية من معرفة ما كتبه المستشرقون الإسبان عن الأندلس ، وهى كتابات كثيرة ومنوعة ورائدة ولا يمكن أن يغفلها دارس جاد .

وهكذا وجد الأهوانى نفسه وعرف ذاته وادرك دوره واستبان طريقه ، فأقبل على الدراسات الأندلسية بنظرة موضوعية لا بروح «رمانسيه» وبطريقة علمية لا بمهارة اجتهادية . . وشرع يعد باكورة دراساته فى الأندلسيات متفردا بين كل أبناء جيله — بل بين أعضاء لجنة الذخيرة أنفسهم — بالتخصص فى هذا الحقل ؛ حيث انصرفوا جميعاً إلى ميادن أخرى وحققوا ألوانا شتى من النجاح ، ولكن بعيدين عن حقل الأندلس .

— ٢ —

اختار الأهوانى موضوعا لبحثه لنيـل درجة الماجستير هو « الموشحات الأندلسية » . واختيار هذا الموضوع اختيار للصعب العسير من الموضوعات ، ولكنه — فى الوقت نفسه — دليل روح الريادة والمغامرة العلمية التى طبع عليها الأهوانى . فهو موضوع لا يمكن أن يعالج إلا بمعرفة النصوص المخطوطة من الموشحات الأندلسية ، ومعرفة اللغـة « الرمانثى » التى كانت تملأ خواتم

الموشحات ، والتى لا سبيل إلا حل ألغازها إلا بمعرفة إسبانية اليوم ولاتينية الأمس . كما أن هذا الموضوع لا يمكن أن يعالج إلا بعد الوقوف على ما كتبه المستشرقون الإسبان والفرنسيون والإنجليز وغيرهم ، عن الموشحات ونشأتها وتطورها ، وأصولها وأشكالها ، ولغتها وموسيقاها ، وانتقالها وتأثيرها ، وخاصة فى الشرق العربى والغرب الأوربى ، وبصفة أخص فى بعض الأشعار الفرنسية والأغانى الإسبانية . . وقد كان الأهوانى يستطيع أن يختار — موضوعا لبحث الماجستير — شخصية شاعر أو ناثر ، متجنبا كل هذه الصعاب التى فرضها عليه موضوع الموشحات ، ولكنه آثر الصعب من منطلق الريادة .

وقد أتم بحثه للماجستير ، ونال درجته سنة ١٩٤٧ ، بعد أن حقق عملا علميا له صفة الريادة بكل المقاييس ، ومع ذلك لم يشأ الأهوانى أن ينشأ بحثه هذا رغم جدته وقيمته وريادته ؛ لأن الرجل كان ذا حساسية مفرطة فيما يتعلق بالكلمة المكتوبة ، وقد رأى أن موضوع الموشحات يقال فيه جديد كل عام ، وتكتشف له نصوص فى أكثر من مكان ، ولا يمكن معه القطع برأى فى يسر ، ولا يليق بعالم يحترم الحقيقة ويحترم نفسه ويحترم الكلمة أن يغامر بنشر بحث بادئ تلته بحوث شتى ، وخاصة بأقلام مستشرقين توفرت لهم نصوص أكثر . . ولذا آثر الرجل التريث ، وتجويد البحث وتعديل أفكاره ، بل رأى تركه كمرحلة من مراحل مسيرته العلمية ، حسبه منها أنه قد وصل إليها ليعبرها إلى غيرها ، وليس بلازم أن يقيم عندها معلما تذكاريا أو ينصب عمود نور باهر يلفت أنظار الآخرين . . وهنا ندرك ملمحا آخر من شخصية الأهوانى ، وهو إيثاره للحقيقة ، وتفضيله إياها على أى شىء ، حتى الإعلان عما قدم فى سبيلها ، أو البوح عما وصل إليه فى طريقها . . على أن القليل الذى نشره الأهوانى عن الموشحات ، يدل على ما وصل إليه بعد هذا التريث من تمكن

وتعمق فى دراسة هذا الفن الشعرى الأندلسى ، ومن ذلك القليل مقاله الذى نشره سنة ١٩٥٧ عن أصول الموشحات(١) .

— ٣ —

ويزداد الأهوانى إيماناً بالمنهجية فى الدراسات الأندلسية ، فلا يكتفى بالاعتقاد فى حتمية الاتصال بالنصوص المخطوطة ، ومعرفة الإسبانية واللاتينية ، وإنما يلح عليه إيمان جديد بوجوب معايشة البيئة الأندلسية التى أنتجت تلك الحضارة التى خلفها الأندلسيون ، وأصبح الأهوانى يرى أنه لابد لمن يتصدى للدراسات الأندلسية من السفر إلى إسبانيا — التى كانت الأندلس بالأمس — لكى يرى رأى العين طبيعة تلك البلاد ، ويتعرف على معالم التاريخ بها ، ومجالى الحيـاة فيها . ثم لكى يزداد اتصاله بالرافدين الأساسيين للدراسات الأندلسية ، وهما : المخطوطات واللغة الإسبانية .

وكان الأهوانى قد اختار موضوعا لبحثه للدكتوراه هو « الأزجال الأندلسية » وهو موضوع أشد صعوبة من موضوع الموشحات ؛ لأن مادته المنشورة أقل ، ولأن لغة الأزجال على الباحث أشق . فلغة الموشحات فيما قبل الخواتيم عربية فصحى ، وإنما يأتى الاختلاط باللاتينية العامية — أو « الرومانثى » فى الخواتيم المسماة بالخرجات . أما الأزجال الأندلسية فلغتها فى جملتها يختلط فيها ما هو عربي بما هو « رومانثى » ، وحتى العربي نفسه ، إنما جاء بعامية الأندلس التى انحرفت عن أوضاع العربية الفصحى ، وأخذت أشكالا تحتاج فى فهمها إلى صبر وتمرس وخبرة لغوية واجتماعية وتاريخية واسعة . . ومن هنا تتضح روح

(١) نشر الأهوانى مقاله عن أصول الموشحات واعتمادها على أغنيـات شعبية أندلسية فى مجلة المجلة العدد الثانى سنة ١٩٥٧ .

الريادة والمغامرة عند الأهوانى بجلاء باهر ، فهو ما يزال يختار الأصعب والأشق ، وما يزال يضع نفسه أمام الصعاب والعقبات ليرتاد الطريق ويعبده للآخرين .

وسافر إلى إسبانيا سنة ١٩٤٧ ، مخالفاً بذلك ما كان متبعا من اتجاه الدارسين المصريين إلى فرنسا أو إلى انجلترا أو إلى ألمانيا ؛ لأن الرجل لم يكن يمضى على درب معبد ، وإنما كان يقتحم درباً جديداً رآه يحتاج إلى تعبيد .

وفى إسبانيا أقام الأهوانى أربع سنوات ، مشتغلا بقراءة كل ما ضمت مكتبة « الأسكوريال » والمكتبة القومية بمدريد من مخطوطات أندلسية وخاصة ما يتصل منها بموضوع رسالته . كما أحاط بما كتبه كبار المستشرقين من دراسات وما حققوه من نصوص تتصل بالأندلس . . ولكثرة ما تردد على مكتبة « الاسكوريال » أصبح معروفاً لدى العاملين بها بل أصبح — إلى سنوات — معلما من معالمها ، فقد أقام مدة بتلك الضاحية القريبة من مدريد ، ليتمكن من مواصلة العمل بالمكتبة ولا يضيع الوقت فى التنقل بينها وبين مدريد كل يوم . وما لبث أن صار من خبراء المخطوطات الأندلسية ، لكثرة ما قرأ وعلق وصوب ولخص وجمع .

ومن خلال هذا كله جمع المادة المطلوبة لرسالته للدكتوراه ، وشرع يكتب رسالته على أساس من مادة موفورة وإحاطة شاملة ومعايشة حية واتصال مباشر بالبيئة ، واسترجاع لما كان منعكسا على ما هو كائن أو مترسبا فيه .

وأتم الأهوانى رسالته للدكتوراه ، ونوقشت فى مصر سنة ١٩٥٣ ، بعد سنتين من عودته من إسبانيا ، ونال الرجل درجته بجداره ، وأكد مرة أخرى ريادته فى ميدان الدراسات الأندلسية ، فقد أضاف إلى عمله الأول فى الموشحات عمله الثانى فى الأزجال ، كما أعطى القدوة فى التريث والتثبت والأناة ، حيث أمضى نحو ست سنوات فى إعداد هذه الرسالة الثانية ، منها أربع فى إسبانيا وسنتان فى مصر .

وكما تمثلت حساسيته العلمية واحترامه للكلمة المكتوبة فى عدم نشره لرسالة الماجستير تمثلت كذلك فى إرجاء نشره للدكتوراه ، فلم ينشر تلك الرسالة وإنما نشر فصولا منها فى شكل كتاب باسم « الزجل فى الأندلس » ، وجاء هذا النشر بعد نحو أربع سنوات من مناقشة الرسالة [١] ، وبعد أن ألقى الدكتور الأهوانى سلسلة من المحاضرات عن « الزجل فى الأندلس » بمعهد الدراسات العربية العالية ، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ .

— ٤ —

وتكملة لموضوع الأزجال قد عكف الأهوانى على تحقيق ديوان ابن قزمان ، وبذل فيه من الجهد ما يثير الإشفاق ، وتوفر على تحرير نصّه وتفسير غوامضه ، ورد أصول كلماته إلى جذورها اللاتينية أو العربية ، وتحديد موسيقى عروضه بتفاعيلها الخليلية أو الشعبية ، واستمر صابرا على هذا العمل أكثر من ربع قرن ، دون أن يتعجل بنشره أو بنشر جزء منه . . وأثناء ذلك أخرج المستشرق الإسبانى الأستاذ جارثيا جومث تحقيقاً لديوان ابن قزمان مع ترجمة ودراسة [٢] . ولم يزعج ذلك الأهوانى ولم يجعله يشعر بالنقد ، وإنما سعد بظهور ديوان ابن قزمان ، وراح ينشر فى « مجلة المعهد المصرى » بمدريد تصويبات [٣] رأى من الأمانة أن يقدمها لقراء نشرة الأستاذ جومث . وقد كان الأستاذ جومث يرد على

---

(١) نشر الأهوانى كتابه « الزجل فى الأندلس » سنة ١٩٥٧ فى سلسلة مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية .

(٢) نشر الأستاذ جومث عمله عن ابن قزمان فى ثلاثة مجلدات سنة ١٩٧٢ بعنوان : Todo Ben Quzman

(٣) نشر الأهواني تصويباته فى ثلاث مقالات ، الأولى فى المجلد السابع عشر من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (١٩٧٢ — ١٩٧٣) من صفحة ١٨٣ إلى صفحة ٢٤٥ . والثانية فى المجلد الثامن عشر من المجلة نفسها (١٩٧٤ — ١٩٧٥) من صفحة ١٧ إلى صفحة ٧٧ . والثالثة من المجلد التاسع عشر (١٩٧٦ — ١٩٧٧) من صفحة ٢١ إلى صفحة ٦٠

الدكتور الأهوانى فى مجلة الأندلس[1] — مجلة المستشرقين الإسبان — بما يحقق حواراً علميا خصبا بين عالمين جليلين رائدين من رواد الدراسات الأندلسية . . على أن ما كتبه الأهوانى من تصويبات لنشرة الاستاذ جومث يُعد كذلك زيادة علمية فى حقل الدراسات الأندلسية ، فمعظم تلك التصويبات تخريج لكلمات ردها الأهوانى إلى أصول « رومانثية » على حين كان قد ردها الاستاذ جومث إلى أصول عربية ، وصنيع الأهوانى يدل على دقته ومعرفته الجيدة باللاتينية والاسبانية ، وتأكيده لمن يريد أن يتصدى للدراسات الأندلسية أنه يجب عليه أن يأخذ بأدواتها الطبيعية التى فى مقدمتها معرفة اللغة الأجنبية التى كانت تخالط العربية فى الاندلس ، وهى اللغة « الرومانثى » التى مفتاحها معرفة إسبانية اليوم ولاتينية الأمس .

وكما قلنا لم ينشر الاهوانى ما أنجز من تحقيقه لديوان ابن قزمان ، باستثناء تلك التصويبات التى نشرها فى شكل ثلاث مقالات بمجلة « المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد » . . ونرجو أن يتمكن تلاميذ الأهوانى من نشر ما أنجزه من هذا التحقيق ، لأنه من غير شك إضافة رائدة لأعماله الجليلة فى حقل الدراسات الأندلسية التى أخذت شكل المغامرة العظيمة التى تقتحم المخاطر فى سبيل تعبيد الطريق للآتين من بعده .

— ٥ —

وانطلاقاً من النظرة الشاملة لدى الأهوانى بالنسبة للدراسات الأندلسية ، فإنه رأى أن الأندلس يلتقى فيها ما هو فصيح بما هو شعبى ، كما التقى عليها

---

(١) نشر الأستاذ جومث رده فى مقالات ثلاث ، الأولى فى المجلد الثامن والثلاثين من مجلة الأندلس (١٩٧٣) الجزء الثانى ، من صفحة ٢٤٩ إلى صفحة ٣١٨ ، والثانية فى المجلد الحادى والأربعين من المجلة نفسها (١٩٧٦) الجزء الثانى ، من صفحة ٢٤١ إلى صفحة ٣٣٨ . والثالثة فى المجلد الثالث والأربعين (١٩٧٨) الجزء الثانى من صفحة ٢٤٥ إلى صفحة ٣٠٢ .

ما هو أعجمى بما هو عربى . فكما اهتم باللغة « الرومانثى » اهتمامه باللغة العربية ، اهتم كذلك باللغة الملحونة اهتمامه باللغة الفصحى . فنشر دراسة بعنوان « ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام فى لحن العامة[١] » وقد أوضح الأهوانى فى هذا الدراسة جانبا هاما من الحياة اللغوية الشعبية لدى الأندلسيين ، وأماط اللثام عن كثير من الألفاظ المستعملة بينهم ، راداً إياها إما إلى أساسها الأعجمى أو إلى أصلها العربى ، بعد أن طرأ عليها تطور يجعلها تخالف فى مدلولها نظائرها فى الاستعمال المشرقى .

ومن المنطلق نفسه نشر الأهوانى دراسة عن « أمثال العامة فى الأندلس[٢] » ، وقد عنى فى هذه الدراسة بالأمثال العامية الملحونة ، واهتم بصفة خاصة بنموذج ممتاز من مجموعات هذه الأمثال وهو الفصل الخاص بأمثال العامة من كتاب ابن عاصم الغرناطى ، المسمى « حدائق الأزاهر » . كما نشر فى القسم الثاني من هذه الدراسة مجموعة أمثال ابن هشام اللخمى عن كتاب « تقويم اللسان » . ومن أروع ما فى هذه الدراسة الإبانة الكاشفة عن تأثير الأمثال العربية فى الأمثال الإسبانية ، حيث قارن الأهوانى بين أمثال الغرناطى وأمثال إسبانى معاصر له هو « المركيز دى سنتلانّا » وأوضح أن كثيراً من الأمثال الإسبانية تكاد تكون ترجمة حرفية للأمثال العربية .

وهذا الجانب من دراسات الأهوانى واضح الريادة أيضاً ، فقد وجه أنظار الدارسين اللغويين إلى مجال جديد هو مجال اللغة العربية فى الأندلس ، وما طرأ عليها من تطور وما أصابها من تغير جعلها تخالف — فى كثير من المظاهر — أختها فى المشرق . كما وجه أنظار المهتمين بالأمثال والأدب الشعبى عموماً إلى

---

(١) نشر الأهوانى هذه الدراسة فى مجلة معهد المخطوطات العربية — المجلد الأول — الجزء الأول — مايو سنة ١٩٥٥ ، من صفحة ٩١ إلى صفحة ١٢٠ — والجزء الثانى — نوفمبر سنة ١٩٥٥ من صفحة ٢٥٢ إلى صفحة ٢٧١

(٢) نشر الأهوانى هذا البحث فى الكتاب التذكارى الذى أهدى إلى طه حسين بمناسبة عيد ميلاده السبعين . (دار المعارف — القاهرة سنة ١٩٦٢) من صفحة ٢٣٥ إلى ٣٦٨ .

هذا النتاج الأندلسى الأصيل . وأخيراً وجه أنظار أصحاب الدراسات المقارنة إلى ما كان من تأثير لتلك الأمثال الأندلسية فى التراث الإسبانى ، كما حدث من تأثر « دى سنتلانا » بالغرناطى . وقد تعدد من تابعوا مسيرة الأهوانى فى الكشف عن الحياة اللغوية للأندلسيين ، كما تعدد من تأسوا خطاه فى دراسة الأمثال الأندلسية ، ولم يقتصر الأمر على باحثين مشرقيين بل تعداهم إلى مغاربة ومستشرقين (١) .

وهكذا أكد الأهوانى ريادته من جديد ، وفى ميدان لا يقل أهمية عن ميدانى الموشحات والأزجال ، وهو ميدان اللغة والأمثال .

– ٦ –

وعلى الرغم من أن ميدان تحقيق النصوص المخطوطة ميدان ليس بالجديد ، قد كانت للأهوانى فيه ريادة أيضاً لا يمكن أن تغفل . فهو قد أقبل على تحقيق عدد من النصوص القيمة ، وكانت الريادة فى اختيارها وفى منهج إخراجها . فهو لم يكتف باختيار نصوص أندلسية كيفما اتفق ، وإنما اختار من بين النصوص ما يفتح ميادين جديدة للمعرفة ، ويقدم زادا خصبا للدراسة ، بل ما يغير كثيراً من المسلمات المحتاجة إلى تصويب . . وكان منهجه لا يقف عند ضبط النص وتحريره ، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى عمل دراسة شاملة ومقارنة عن الفرع الذى ينتمى إليه هذا النص ، وبيان كيف نشأ وتطور ، وإبراز أهم النماذج التى تماثله أو تقاربه .

ومن أهم تحقيقات الأهوانى تحقيقه لنص « برنامج ابن أبى الربيع » فقد قدم لتحقيق هذا النص بدراسة عن « كتب برامج العلماء فى الأندلس »

---

(١) من الباحثين المشارقة الذين اهتموا بالعامية الأندلسية بعد الأهوانى الدكتور عبد العزيز مطر . ومن الباحثين المغاربة الذين اهتموا بالأمثال الأندلسية الدكتور ابن شريفة . ومن المستشرقين الذين اهتموا بالأمثال الأندلسية كذلك ، المستشرق الاسبانى فرناندو دى لا جرنجا .

موضحا فيها كيف استخدم الأندلسيون لفظ برنامج مرادفاً للفظ فهرسة ، ومبيناً كيف كان البرنامج سجلا يكشف عن المنابع الثقافية التى غذت العالم ، كما يوضح فى الوقت نفسه المناخ الفكرى للبيئة ، وعن طريقه يعرف الأصيل والوافد والمحلى والمجلوب ، فهو من أهم الوسائل للتعرف على الحياة العلمية والثقافية بالنسبة للأفراد والبيئات على السواء . . ويعرّف الأهوانى فى تلك الدراسة بطرائق أصحاب البرامج فى التبويب ، ويذكر كثيراً من المخطوطات ، ويلفت النظر بطريقته الرائدة إلى هذا المجال من مجالات الدراسة ، وهو مجال « برامج العلماء » . . ويهتدى بريادة الأهوانى غير واحد من الدارسين من عرب ومستشرقين ، فيهتمون بموضوع البرامج ومناهج العلماء فيها (١) .

ومن أهم تحقيقات الأهوانى كذلك تحقيقه الذى أخرجه باسم « نصوص عن الأندلس من جغرافية العذرى » وفى هذا التحقيق قد أضاف الأهوانى من الهوامش والتعليقات ما يقارب النص الأصلى . كما حقق كثيراً من الأسماء والاماكن والأحداث ، مضيفا بذلك إضافات علمية قيمة ، جعلت النص — بعد تحقيق الاهوانى له — مهوى لكثير من الدارسين والمترجمين والمقتبسين (٢) . وتتجلى ريادة الاهوانى فى تحقيق هذا النص ، حيث يؤكد بعمله أن التحقيق والنشر ليس إعادة طبع أو توثيق أصل أو شرح مكتوب ، وإنما هو شىء فوق ذلك كله ، أشبه ما يكون بخلق عمل جديد ، فيه كل ثقافة المحقق وتجربته وشخصيته ورؤيته ، وفيه قبل ذلك كشفه عن المسار المضىء الذى يمكن أن يهتدى إليه مثل هذا العمل المحقق .

---

(١) من الباحثين العرب الذين اهتموا بموضوع برامج العلماء — بعد الأهوانى — الباحث التونسى ابراهيم شبوح ، ومن المستشرقين ، المستشرق الاسبانى خوسيه فورنياس .

(٢) من الذين اهتموا بتحقيق الأهوانى لهذا الكتاب وأفادوا منه المستشرقان الإسبانيان سيكو دى لوثينا و فرناندو دى لاجرانجا .

— ٧ —

على أن ريادة الاهوانى فى ميدان الدراسات الاندلسية لم يقف عند الإنتاج العلمى وحده ، وإنما تجاوز ذلك إلى مجالات أخرى . ومن أهم هذه المجالات مشاركته الفعالة فى تأسيس « المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد » . فأثناء وجود الاهوانى فى إسبانيا رأى الدكتور طه حسين — ولعله كان معجباً بتجربة الاهوانى — أنه لابد لدارس الاندلسيات من الإقامة فترة فى أرض الأندلس ، والتعرف على معالم هذه البلاد ، والاتصال بمراجعها ومخطوطاتها والاحتكاك بالعلماء فيها . واستقر رأيه — مع الاستاذ جارثيا جومث — على فتح معهد مصرى فى مدريد ، يكون مقراً للدراسات الاندلسية ، ومركزاً للدارسين المصريين الذين سيصنعون صنيع الأهوانى . . واستعان الدكتور طه حسين بعبد العزيز الاهوانى لكى يمهد لافتتاح هذا المعهد ، كما استعان بالأستاذ جومث لكى ييسر ما يكون من صعوبات لدى الجانب الإسبانى الرسمى . . وقد بذل الاهوانى جهوداً كبيرة لكى يحصل على قصر ، واستأجر منزلا أنيقاً فى حي من أرقى أحياء العاصمة الإسبانية (١) ، وشارك فى تأثيث هذا المقر بالأثاث اللائق ، ثم أسهم فى إعداد حفل الافتتاح الذى تم (٢) بحضور الدكتور طه حسين وكبار المسئولين والمفكرين والمستشرقين الإسبان . . واستقبل الاهوانى بالمعهد أول مجموعة من الشبان المصريين الذين اختيروا لكى يتخصصوا فى الدراسات الأندلسية (٣) ، وكان لهؤلاء نعم الرائد والموجه بل نعم المثل والقدوة . وكان الاهوانى قد اختير وكيلا للمعهد المصرى — على الرغم من أنه

---

(١) كان ذلك المبنى فى شارع Matías Montero بمدريد .

(٢) كان افتتاح المعهد فى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٥٠ .

(٣) هؤلاء هم — حسب الترتيب الأبجدى — أحمد لطفى عبد البديع ، وأحمد مختار العبادى ، وأحمد هيكل ، وجود عبد الرحمن هلال ، وعلية العنانى ومصطفى غازى .

كان لا يزال يجمع المادة العلمية لرسالة الدكتوراه — وكان مقدرا للمسئولية بكل الامانة والإخلاص والالتزام . فكان لا ينى عن توجيه مجموعة المبعوثين إلى ما يضمن لهم النجاح ، من تعلم اللغة الإسبانية ، إلى تردد على المكتبات وخاصة مكتبة الاسكوريال ، إلى ارتباط بجامعة مدريد حيث الاساتذة المتخصصون ، إلى التقاء بالاستاذ جارثيا جومث الذى سيشرف على الرسائل ويوجه الدراسة . . وبهذا أكد الاهوانى ريادته من جانب آخر ، وهو جانب المساهمة فى إعداد جيل جديد من المتخصصين فى الدراسات الاندلسية ، يمكن أن تتكون منهم — وفى مقدمتهم الاهوانى — أول مدرسة لهذه الدراسات فى مصر .

ولا يمكن أن يُنسى فى مجال الحديث عن جهود الاهوانى فى معهد مدريد ، دوره العظيم فى تكوين مكتبة المعهد ، التى تعد الآن من أغنى المكتبات العلمية فى العاصمة الإسبانية بل فى أوربا كلها ، وخاصة بالنسبة لما تحويه من مراجع عربية ومصادر أساسية فى الثقافة الاسلامية . . كذلك لا يمكن أن ينسى دور الاهوانى فى إنشاء مطبعة المعهد ، التى ظلت نحو ثلث قرن وهى توشك أن تكون المطبعة العربية الوحيدة فى العاصمة الاسبانية ، والتى كان لها الفضل فى إخراج مجلة المعهد ومطبوعاته العديدة على مدار هذه الحقبة الطويلة . . وأخيراً لا ينسى للأهوانى فضله فى إخراج مجلة المعهد ، فقد خطط لهذه المجلة وحرر فيها وعمل على أن تأخذ مكانها كواحدة من كبرى المجلات العلمية فى الدراسات الاندلسية . . وبعد أن عاد الاهوانى إلى مصر ، وترك منصبه كوكيل المعهد ، ليقوم بالتدريس فى جامعة القاهرة ، لم ينقطع صلة بهذا المعهد ومجلته ، بل ظل اسمه من أبرز الاسماء التى تتألق على صفحاتها ، كما ظلت بحوثه من أرفع البحوث التى تغذيها .

— ٨ —

ولم تقف ريادة الاهوانى عند ما كان له من بحوث ودراسات ، ولا عند إسهامه فى تأسيس المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، ولا عند رعايته لاعضاء البعثة المصرية الاولى إلى إسبانيا ، بل امتدت تلك الريادة إلى كل من اتصل بالاهوانى فى مصر وفى غير مصر من طالبى المعرفة . فقد عُرف دائماً كصاحب مدرسة علمية مفتوحة . وكان بيته مقر هذه المدرسة ، حيث يفيء إليه من يريد من الطلاب العرب والأجانب ، هذا يسأل عن مخطوط ، وذاك يستفسر عن موضوع ، والكل يجد السماحة والعطاء والأستاذية . ولا نكاد نعرف مشتغلا بالدراسات الاندلسية منذ الخمسينيات إلى الثمانينيات — من عرب أو غير عرب — إلا اتصل بالأهوانى نوعا من الصلة ، إما بالالتقاء به فى منزله ، أو — على الاقل — بالمراسلة بينه وبينه . . هكذا كان الاهوانى دائماً فى القاهرة . . وحين عمل فترة مستشاراً ثقافياً بالمغرب كان بيته كذلك مهوى الباحثين والدارسين من عرب ومستشرقين . .

فإذا ما تركنا البيت إلى الجامعة وجدنا الاستاذية الحقة والريادة الرسمية الصحيحة . فقد علم عشرات التلاميذ النوابه ، وراد كثيرين فى ميدان الدراسات الاندلسية من معظم البلاد العربية . . وكان جل اهتمامه أن يصنع مدرسة قوية تقوم على الجدية والمنهجية وتقف على قدم المساواة إلى جانب المدارس العلمية الغربية المستقرة ذات الطابع العالمى والسمعة الدولية الرفيعة .

وقد نجح الاهوانى إلى حد كبير فى ريادته للدراسات الاندلسية على مستوى مصر والعالم العربى ، بل تجاوز ذلك إلى بعض المجالات لدى المستشرقين الاوربيين . ويمكن أن يقر له بالاستاذية والفضل عدد غير قليل من المتخصصين فى الأندلسيات من أبناء الامة العربية على اتساع رقعة العالم العربى ، كما يقر

له بالتوجيه والارشاد والفضل أيضا عدد آخر من المتخصصين فى الاندلسيات من أبناء الغرب المنصفين .

وربما كان أهم من ذلك كله أنه بعد ما حقق الاهوانى من منجزات علمية فى ميدان الاندلسيات ، أصبح من المقررات المؤصلة الثابتة أن الدراسات الأندلسية ليست هواية قوامها العاطفة الرومانسية المتعلقة بالفردوس المفقود ، وليس الحديث عن أدب الأندلس حديثاً إنشائيا يكتفى فيه بالكلام عن النسيم والزهور والغدران والنافورات والموسيقى والغناء ومجالس الأنس و « زمان الوصل بالأندلس » . وإنما هو علم جاد يحتاج إلى معرفة واسعة ، وصبر وتضحية ، واتصال مباشر بالأصول المخطوطة والدراسات المطبوعة بالعربية وغير العربية . كما أنه يحتاج إلى معايشة على الطبيعة للأندلس ، وخبرة بلغة القوم اليوم والأمس ، وإلمام بأصول تلك اللغة اللاتينية التى صارت « رومانثية » ثم إسبانية . كل ذلك مع نظرة شاملة تضم ما هو رسمى إلى ما هو شعبى ، وتدرك مواطن اختلاط ما هو عربى بما هو إسبانى . لأن الاندلس هكذا كانت ، ولا يمكن أن تدرس على وجهها الصحيح إلا إذا درست كما كانت ، بما فيها من ثنائية عنصرية ، وازدواجية لغوية ، ومعالم رسمية وشعبية .

رحم الله الاهوانى . وأسكنه فسيح جنانه ، جزاء ما قدم للعلم والحضارة من خير لا يقدمه إلا الرواد الباقون والمعلمون الخالدون [١] ؟

د. أحمد هيكل

---

(١) لمزيد من المعرفة بدور الأهوانى وأثره فى إحياء التراث الأندلسى ، يقرأ ما كتبه الدكتور محمود على مكى فى مجلة « فصول » المجلد الأول — العدد الأول — اكتوبر سنة ١٩٨٠ بعنوان « عبد العزيز الأهوانى والتراث » ص ٣٠٧ — ٣٢١

كـتب جـديـدة

دكتور محمد عبد الحميد عيسى
مدرس التـاريخ الأندلسى بكلية التربيـة
جامعة عين شمس — القاهرة

أحاول — فى هذه العجالة المبتسرة — أن أقدم للقارىء العربى عامة ولقراء مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية خاصة ، بعض الكتب والدراسات التى صدرت مؤخرا منذ صدور العدد الأخير من المجلة ولا يعنى هذا الالمام بكل ما صدر فى مجال الدراسات الأندلسية أو أننا نعرض لأهم ما صدر منها .

أعرض فقط لبعض ما كان ميسرا عند إعداد هذا العرض ، ومع علمي بصدور عشرات الكتب والدراسات الجيدة ، إلا أن الظروف والوقت لم يسمحا لى بأكثر مما قدمت تاركا الفرصة لبعض المجلات المتخصصة الأخرى استكمال هذا النقص .

وانطلاقا من المبدأ الذى اتخذته لنفسى منذ بداية تقديمي هده الكتب على صفحات هذه المجلة أو مجلة أوراق فإننى أعرض للخطوط العامة والنقاط الرئيسية التى يتناولها الكتاب ، الخوض في مجال العرض النقدى متيحا بذلك الفرصة للتعرف على الكتاب ، وتقديمه لمن يريد أن يقدم له عرضاً نقدياً أو لمن يرغب فى الاستفادة منه علمياً .

أما الترجمات العربية إلى الاسبانية ، فإننى ركزت على الدراسات المرفقة بها أو المقدمة ، لأنها هى التى تتضمن الجديد ورأى المترجمين ، أما النص فهو معروف فى لغته العربية .

ولا يخضع ترتيب هذه الكتب فى العرض لأى معيار تفضيلي أو زمنى . لأننى ، كما قلت ، لا أقدم عرضا نقديا لأى من الكتب التى أتناولها .

القنطرة

مجلة جديدة للدراسات العربية والإسلامية فى اسبانيا
يصدرها معهد ميجيل أسين بلاسيوس
بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية

منذ عام ١٩٧٧ توقفت مجلة الأندلس عن الصدور ، وترك هذا الخبر أثراً عميقاً فى نفوس الباحثين فى الحضارة الأندلسية فى كافة أنحاء العالم ، لما كان لهذه المجلة من مكانة عالية واحترام كبير .

وجاء عام ١٩٧٨ ليحمل إلى العالم بشرى ظهور مجلة جديدة ، أصدرها المعهد الاسبانى العربى للثقافة فى مدريد « أوراق » ولتضيف مجالا جديداً لعشاق الحضارة العربية الاسلامية لنشر آرائهم ومناقشة أفكارهم . وحملت صفحات مجلة المعهد المصرى فى مدريد ، فى عددها التاسع عشر مهمة تقديم هذه المجلة الجديدة ، إلى قراء العربية ، والترحيب بها كشقيقة ومساعدة فى مجال الدراسات العربية والاسلامية .

وعلى صفحات هذا العدد ، فإن مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، وهى تشعر بمسئولياتها كرائدة فى مجال الدراسات الأندلسية ، وأنها تحتل مكانة الشقيقة الكبرى بين مجالات الدراسات العربية والاسلامية يسرها أن ترحب بتلك المجلة الجديدة — القنطرة — والتى استمدت اسمها من كونها صلة بين الحضارتين الاسبانية والعربية ، وتتمنى لها الازدهار والاستمرارية .

والقنطرة ، استمرار للأندلس المتوقفة ، وتصدرها نفس المؤسسة ، ويكتب بها نفس الكتاب ، مع بعض التغيير ، وتتخذ تقريباً نفس الشكل والتقسيم ، محاولة بذلك الحفاظ على ذلك الطابع التقليدى المعروف عن مدرسة الدراسات العربية فى مدريد ، أو المعهد الذى يحمل اسم العالم الاسبانى الكبير ميجيل آسين .

ومن الناحية الدراسية ، فإن « القنطرة » تنقسم إلى قسمين رئيسيين أولها ، المقالات المتنوعة ، والثانى الخاص بالدراسات الأركيولوجية .

ويضاف إلى ذلك بابان يتناولان المنوعات من عرض الكتب أو المجلات أو التعليقات القصيرة .

مدرسة الدراسات العربية بغرناطة فى عيدها الذهبى

كتالوج لما عرض بقاعة المدرسة بمناسبة مرور خمسين عاما
١٩٣٢ — ١٩٨٢ م.
نشر : إدارة قصر الحمراء ، والمعهد الاسبانى العربى للثقافة

تحتفل مدرسة الدراسات العربية فى غرناطة — احدى القلاع الإسبانية الرئيسية للدراسات العربية والإسلامية — بمرور خمسين عاما على انشائها فى عام ١٩٣٢ . وفى هذه الذكرى الكبيرة قام الأساتذة الباحثون بالمدرسة بإعداد معرض عام لما تضمه مكتبة المدرسة من ذخائر ، وما تحتويه من مخطوطات . هادفين — كما تقول المقدمة إلى ابراز العناصر التالية :

١ — احاطة الباحثين علما بالمخطوطات العربية المحفوظة بالمدرسة ، وكذلك المحفوظة بكنيسة الساكرامونتى بغرناطة Abad de Sacramonte مع أساس أنها المادة الأساسية لمعظم الأبحاث الجارية بغرناطة . وعددها ٤١ مخطوطا .

ومن هذه المخطوطات :

— أبو الوليد بن رشد : كتاب الكليات ، ١٢٥ ورقة بخط مغربى .
— أبو بكر محمد بن عزيز السجستانى : تفسير غريب القرآن ، ٤٦ ورقة ، خط مغربى .
— زكريا بن محمد القزوينى : كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ٢٠ صفحة ، خط شرقى .
— أبو جعفر أحمد بن مغيث : المقنع ، ١٠١ ورقة ، خط مغربى .
— تاج الدين بهرام بن عبد الله الدميرى : شرح مختصر خليل ، ٢٦٠ ورقة ، خط مغربى .
— أبو نصر اسماعيل بن أحمد الجوهرى : الأول من كتاب تاج اللغة وصحاح العربية ، ٥٠٠ ورقة ، خط مغربى .

٢ — تجميع الجهود التى بذلتها أستاذية اللغة العربية بجامعة غرناطة قبل تأسيس المدرسة ، والتى أمكن الحصول عليها للعرض ، على أساس أن جهود هذه الأستاذية هى الأساس الصلب للجهود التالية عليها . وفى هذا المجال يشار إلى الجهود التى سبقت تأسيس المدرسة ومنها :

مركز الدراسات التاريخية الغرناطية ومماكتها ، والذى أنشىء سنة ١٩١١ وظل قائماً حتى عام ١٩٢٥ وأداره حينذاك عميد كلية الآداب والفلسفة ، المستشرق الكبير جاسبار راميروا ، وفى عام ١٩١٩ نضجت فكرة تأسيس معهد متخصص ، وطرحت هذه الفكرة تحت اسم «مدرسة الدراسات الافريقية» ولم يصل الأمر إلى مرحلة التأسيس لرفض السلطات فى مدريد .

ونتيجة لما تتمتع به غرناطة من مكانة خاصة ، حاول الباحثون تتويجها بمعهد علمى — لم يصل إلى مرحلة التنفيذ — كان سيسمى « معهد الدراسات العربية ، والاستعمارية » . وكان مقرراً له أن يشغل المبنى الأثرى العربى القائم فى غرناطة والذى يطلق عليه « مخزن الفحم » وكان فندقا عربيا غرناطيا بجوار مسجدها الجامع . ووصل الأمر بعد ذلك فى أولى أعوام الثلاثين إلى تأسيس مدرسة الدراسات العربية بغرناطة ، حيث احتلت قصراً موريسكيا رائعاً بالقرب من الحمراء ، وتولى إدارتها لأول مرة المستشرق الكبير إميليو غارثيا غوميث .

٣ — تجميع مؤلفات ومقالات الدكتور إميليو غارثيا غوميث ، أول مدير للمدرسة .

٤ — تجميع — إذا كان ممكنا — كل الدراسات المتعلقة بالعالم العربى والإسلامى والتى تقدر بأنها تزيد على ٥٠٠ دراسة قام بها الباحثون والدارسون المرتبطون بهذه المدرسة .

ويضم الكتالوج أسماء الكتب والمجلات التى نشير إلى أعدادها فيما يلى :

المخطوطات : ٢١ مخطوطة من دير الساكرامونتى بغرناطة .

٢٠ مخطوطة بمدرسة الدراسات العربية بغرناطة .

الدراسات : ٦٢ دراسة ومؤلف قبل تأسيس المدرسة .

١٤٩ دراسة لاميليو غارثيا غوميث .

٢١٤ دراسة ليوبولد توريس بالباس .
٥٣١ لمختلف الأساتذة والباحثين بعد ذلك .

وتهدف احتفالات المدرسة بهذه الذكرى إلى لفت الانظار إلى أهمية مدرسة الدرسات العربية بغرناطة والدور الرئيسي الذى تقوم به فى وسط ظروف صعبة من النسيان وقلة المعونة ، راجية المسئولين والمهتمين بالدواسات العربية والإسلامية ، الاهتمام بالمدرسة ، وتزويدها بالكتب والأفراد والمعدات المناسبة ، حتى يمكن لها الاستمرار فى رسالتها .

والمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو يحيى هذه المناسبة ، بنشر هذا التعليق ، فإنه يشيد بالدور الهائل والخالد لمدرسة الدراسات العربية فى غرناطة ، ويحيى جهود الأساتذة والباحثين والعاملين بالمدرسة فى هذه المناسبة الكبرى ، ويضم صوته إلى جانب المدرسة ، مناديا الجهات المسئولة فى اسبانيا والعالم العربى والإسلامي ، لمد يد العون والاهتمام بهذه المؤسسة الثقافية العريقة .

تعبيرات شعرية « الأثر »

فى خطوات مقفـــاة للأطفال والشعراء

تأليف : فرانثيسكو أوتراى ساردا

هينبباليس : مدريد ١٩٨٢

فرانثيسكو أوتراى ساردا ، دبلوماسى إسبانى له سمعته ومكانته بين المفكرين العرب العاملين فى مجال الدراسات الإسبانية والأندلسية ، أو الذين أتيح لهم زيارة المعهد الاسبانى العربى للثقافة حيث يعمل مديراً للمعهد منذ مدة طويلة ، وشغل منصب سكرتيره العام منذ سنة ١٩٥٤ .

وديوان « الأثر » ، صدر فى طبعة أنيقـــة ، على ورق أصفر ومزين برسوم صغيرة باللون الوردى ، حيث تحتل الصورة أحياناً مكانة الأبيات ، لتعطى مع شخصياتها التاريخية ، ورسومها التعبيرية لوحة متكاملة مع العمل الشعرى يجعلك تمتلك الزمان والمكان والعبرة والتاريخ فى نفس اللحظة .

ولكثرة الاشعار فى الديوان ، وكذلك الشخصيات ، أقدم لك — أيها القارىء الكريم — بعض فقرات هذا الديوان الذى يبدأ بلوحة للبطـل العربى « زهير » ممتطيا جواده ، متمنطقا حربته يلقمها ثعباناً رهيباً وهو رابط الجأش ، ساكن النفس ، غير هياب ولا وجل . لوحة أخرى للحلاج وثالثة لأحلام أبى فراس الحمدانى ورابعة للمتنبى ، وأبيات شعر تقول :

أى عزاء تجـــد ... يا نديمى
فى الخمرة أو العشق ... حين
نفتقد الآباء والعظماء

أريد من زمني ذا أن يبلغني   ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وجمال الأبيات الاسبانية — المفتقد فى الترجمة — يكمن فى استعمال الشاعر للكلمة « نديم » داخل أبياته الاسبانية .

وتمضى لوحة أخرى لابن حزم الأندلسى . راكبا حصانه ، ملوحا بأوراقه راحلا مع بعض أبيات شعره المتضمنة أيضاً كلمات عربية مثل « صاحب » Díjele yo: mi sāhib, — قل له ياصاحبى —

ثم يروى فى أشعار رقيقة قصة الشاعر الرمادى الذى التقى بحسناء بالقرب من قنطرة قرطبة وحاول متابعتها ، والخشية والحياء اللذان دفعا بالفتاة أن ترجوه أن يبتعد عنها ، على أن تظهر له كل يوم جمعة فى نفس المكان .

أما لوحة ابن زيدون فهى مستمدة من رسومات مدينة الزهراء وتتبعها قصيدة غنائية تناغى قرطبة ، ذات الصباح المشرق ، والليل الساكن ، والندى الخفيف يبلل البساتين . . .

وينادى المدينة العريقة به على البعد

مضى زمان مجـــدك
وعفت الليالى على آثارك
لكنك من حين إلى حين
ترسلين نسمة خفيفـــة

حينما يسكن الليـــل
ويسترشد المسافر بالنجوم
ويجيش بالشوق والحب
تحيـــا قرطبـــة .

وعن ولادة بنت المستكفى بالله ، يصبغ فى عبارات رقيقة قولها :

أنا والله أصلح للمعـــالى وامشى مشيتى وأتيه تيهـــا
وأمكن عاشقى من صحن خدى وامنح قبلتي من يشتهيها

أما لوحة المعتمد بن عباد ، فهى أكثر تعبيرية ، مع الرميكية وعدد من القصائد تشابه فى وقعها ونظمها « ملحمة السيد » .

وهناك أيضاً ابن عمار وابن قزمان ، وابن الخطيب ، وعائشة الحرة حين تزجر ابنها — ملك غرناطة — عبد الله :

أبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال

ولا يقتصر الديوان على شعراء العصور الوسطى لكنه يتناول أيضاً الشاعر المصرى الشهير ، أحمد شوقى ، وبعض الشعراء الاسبان ، ومقطوعات متبـاينة من هنا ومن هناك .

ويختتم الديوان بالتعريف بكل شاعر من الشعراء الذين استلهم شعرهم فى هذه القصائد القصيرة .

وهذا الكتاب ليس أول الأعمال الأدبية للشاعر الديبلوماسى ، وإنما سبق له أن أصدر عدة دواوين منها :

أغنيات مشرقية :Cantigas orientales عام ١٩٧٧
أغنيات شعبية :Coplas vulgares عام ١٩٧٩
خرجات جديدة :Nuevas Jarchas عام ١٩٨١

وذلك إلى جانب عدد من المحاضرات عن العلاقات الثقافية بين اسبانيا والعالم العربى .

التوابع والزوابع لابن شهيد

ترجمة وتعليق : سلفادور باربيرا
تقديم : فيدريكو كورينيطى
Santander 1981

سلفادور باربيرا ، ديبلوماسى ، مثقف جذبته الحضارة العربية والإسلامية إلى الاقتراب من ميدانها ، فدرس اللغة العربية فى القاهرة وتونس وفى جامعة الملك محمد الخامس بالرباط ، وأحله هذا مكانا بين الاسبان المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية ، وهو بشبابه وسعة اطلاعه وثقافته يمثل أملا ينمو مع الأجيال الجديدة من المتخصصين فى اللغة العربية ودراساتها ، ونتوقع على أيديهم مزيدا من التقارب والتلاحم مع شباب المتخصصين فى نفس المجال من الباحثين العرب والمسلمين .

ويقدم لنا — سلفادور — أو يقدم إلى القارىء الاسبانى أول ترجمة كاملة باللغة الاسبانية لما وصل إلى أيدينا من ذلك النص الأدبى الخالد الذى صاغه ابن شهيد فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، أقصد بذلك رسالة التوابع والزوابع .

وقدم للعمل الأستاذ الدكتور فيدريكو كورينيطى أستاذ اللغة العربية بجامعة سرقسطة ، مما يعطى للقارىء فكرة عن أهمية العمل واستحقاقه التقدير من أحد كبار المتخصصين الاسبان فى اللغة العربية .

ولم يكتف الأستاذ — سلفادور — بالترجمة ، وهى فى حد ذاتها طريحة شاقة وقاسية ، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار عمق النص ، موضع الترجمة ، سواء من ناحية المضمون أو الشكل ، وانما قدم له بدراسة مستوعبة ، وعمل علمى تناول فيه تقديم صورة أمينة للقارىء الاسبانى ، عن المؤثرات التى أحاطت بابن شهيد صاحب العمل ، سواء أكانت هذه المؤثرات عائلية أو اجتماعية أو سياسية .

تناول بالدراسة أسرة ابن شهيد منذ قيامها ضد الأمويين فى مرج راهط ، وتأييدها للأمويين منذ ذلك الحين حتى وصول جده إلى منصب « ذى الوزارتين »

فى عهد عبد الرحمن الناصر ، إلى أن يصل إلى مكانة ابن شهيد على عهد المنصور بن أبى عامر وأبنائه .

وقدم — المترجم — عرضاً موجزاً وأمينا لكل الأحداث التى غمرت قرطبة فى أيام الفتنة . وتمسك ابن شهيد بالمدينة ، وصداقاته ، وعداواته ، مبرزاً ذلك كله فى إطار من المؤثرات الخلقية والخلقية التى اتسم بها ابن شهيد ، إلى أن يصل إلى نهاية أيام الأديب القرطبى ومرضه ثم وفاته فى عام ٤٢٦ هـ ١٠٣٥ م مشيعا بالأسى من مواطنى المدينة وأصدقائه ، وقيام ابن جوهر حاكم قرطبة بالصلاة عليه .

ويتناول المترجم فى هذه الدراسة دوافع ابن شهيد لكتابة هذه الرسالة ، ومكانتها من الناحية الأدبية ، وتأثيرها المحتمل فى رسالة الغفران للمعرى وانتقال هذا التأثير بعد ذلك إلى دانتى كما أثبت أسين بلاسيوس .

ولم ينس الاشارة إلى المصادر التى حملت إلينا هذه الرسالة الأدبية العظيمة ، وفصولها التى قام بترجمتها وتبدأ بالرسالة التى وجهها إلى أبى بكر ولقائه مع جنى زهير ، ثم قيامه بالرحلة إلى عالم الأموات ليلتقى بأكابر الشعراء والكتاب على مدار التاريخ العربى حتى أيامه ليساجلهم شعرا بشعر ونثرا بنثر ، وينتصر عليهم باستمرار ، مبرزا ملكاته الأدبية ، ومنتقدا فى ذلك الوقت أعداءه من أدباء قرطبة وشعرائها ،

ويوجه المترجم اهتماما خاصاً إلى دراسة الأفكار الجمالية فى أعمال ابن شهيد ويرى فيها تمثيلا للنواحى الجمالية التى تكشف عن التذوق الثقافى فى إحدى فترات الحضارة الأندلسية ، ثم يمضى محللا آراء ابن شهيد مستنبطا منها النواحى المثيرة للاهتمام فى أدبه الخالد ، وكيفية تعامله مع المشكلات مستدلا على ذلك بآراء بعض المعاصرين لابن شهيد ، ومستشهدا بفقرات من أعماله .

ثم ينتقل إلى محتوى الرسالة مقدما فى أسلوب أدبى أيضاً ، وبلغة إسبانية منتقاة وألفاظ مختارة نصا اسبانيا ، يمكن أن نختلف معه فى ترجمة بعض الكلمات أو الأفكار ، ولكن لا مجال للشك فى أنه كان صادقا مع النص وحاول جهده أن يقدمه فى أحسن صورة ممكنة .

رومنثيات الحدود

دكتور أسعد شريف عمر
المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٨٢ م

فى كتيب صغير لا يتجاوز الأربعين صفحة ، يقدم المؤلف عرضاً مركزا وواضحا لأناشيد الحدود الرومانثية ، بدأه بابراز دور التعايش والتصارع بين المسلمين والمسيحيين على مدى عدة قرون فى العصور الوسطى ، ثم انتقل إلى التقسيمات التى يقوم بها مؤرخو الأدب الاسبانى لهذا النوع من الأناشيد سواء على أساس تاريخى أو موضوعى مركزا على آراء العلامة الاسبانى مينينديث بيدال Menéndez Pidal.

ويعرض الدكتور أسعد لكل أنشودة على حدة مبيناً أهميتها والظروف التى أحاطت بها وتطورها من مقطوعات شعرية على ألسنة « المداحين » وانتقالها إلى ألسنة العامة ثم تسجيلها بعد ذلك فى دواوين شعرية ، مبيناً الفرق بين أناشيد الحدود والأناشيد الموريسكية من ناحية المضمون والمحتوى التاريخى وما بهما من خيال وعاطفة .

وأهم الأناشيد التى يضمنها الدكتور أسعد كتيبه هذا هى أنشودة حصار Baeza حيث يعتبر أقدم هذه الأناشيد من الناحية التاريخية ، ويرجع إلى عام ١٣٦٨ . وأنشودة حصار Baza ، أنشودة خروج الملك الصغير « أبو عبد الله » والحاجب رضوان لاسترداد جيان ، وأنشودة الملك دون خوان فى مواجهة غرناطة .

ويختم الدكتور أسعد بحثه بتقديم قائمة بأسماء أهم أناشيد الحدود غير التى ورد ذكرها داخل النص تتضمن اثنى عشر نشيداً بالإضافة إلى قائمة بالمصادر والمراجع التى اعتمد عليها فى الدراسة .

ابن بطوطة بالاسبانية

ترجمة الدكتور صيرافين فانخلول وفيدريكو آربومسى
القومية للنشر بمدريد ١٩٨١

تعتبر الرحلة التى قام بها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم ابن محمد بن ابراهيم بن يوسف بن اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة واحدة من أبرز تراث العصور الوسطى فى مجـال أدب الرحلات . قام ابن بطوطة برحلته — فى القرن الرابع عشر — ليطوف فى جميع أنحاء العالم الإسلامى المعروف على وقته واستغرق فى تطوافه هذا ثلاثة وعشرين عاما ، وبعد عودته عمد إلى تسجيلها بناء على طلب السلطان المرينى فى فاس .

وليس المجال هنا الحديث عن أهمية هذه الرحلة باعتبارها شهادة على عصره فى مجالات الحياة الإسلامية ، وما كان يعتمل فيها من انسجام وتفاهم أحياناً ، وصراع وحروب مستمرة فى أحيان أخرى ، ولكن الاشارة هنا بتلك المهمة الصعبة والمسئولية الكبرى التى تصدى لها الدكتور صيرافين فانخول ، وفيدريكو آربومسى لنقل هذا النص التاريخى والأدبى إلى اللغة الاسبانية لأول مرة . وإذا كانت هذه طريحة شاقة حقا ، الا أن الأستاذين المترجمين لم يكتفيا بها فقط ، وانمـا قدما لعملها بدراسة تاريخية وأدبية ، دراسة نقدية وتحليلية فى حوالى تسعين صفحة ، تعد فى ذاتها مجهودا ممتازاً وعرضا شيقا يبرز قيمة هذه الرحلة فى جوانبها التاريخية والأدبية والجمالية ، ويقارنها برحلة ماركو بولو ، ويضعها بالنسبة لهذه فى مرتبة أفضل .

وتشمل دراسة المترجمين فى بدايتها تعريفاً بالرحالة ابن بطوطة الذى ولد فى السابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣ ﻫ والمتوفى فى المغرب عام ٧٧٠ ﻫ على ما تقول إحدى الروايات أو فى ٧٧٩ ﻫ كما تقول أخرى .

ويسرد المترجمان تفصيلا عن حياة ابن بطوطة وما يعترض هذه الحياة من أحداث تاريخية كبرى ، ثم ينتقلان للحديث عن الرحـلة ذاتها فيعبران عن دهشتهما لامكان المسافر المسلم فى هذه الفترة من القيام برحلات طويلة ، تمتد

لاعوام جمة — دون الاعتماد على مصادر اقتصادية ثابتة ومحددة ، وما تحتويه هذه الرحلة — رحلة ابن بطوطة — من أهمية خاصة جعلها موضع اهتمام الدراسات الحديثة فى المجالات التاريخية والأدبية .

يتناول المترجمان بعد ذلك أهم العناصر الأدبية التى تحتويها الرحلة وخاصة الأسلوب الرفيع الذى صاغها فيه ابن الجوزية ، المهاجر الغرناطى الذى ساعد ابن بطوطة فى تدوين رحلته .

ويعرض المترجمان للنقاط الهامة فى الرحلة والنقاط المثيرة للجدل ويعتبر هذا واحداً من أهم فصول الدراسة حيث يستعرضان — مع خطوات ابن بطوطة — ما يراه فى المدن الرئيسية التى يمر بها ، والأحداث الكبرى التى يعاصرها إلى أن يصلا إلى الحديث عن المشكلات التى تتجلى فى تعارض التواريخ المذكورة فى الرحلة .

ويزود المترجمان كتابهما بمجموعة من الخرائط عن خطوات ابن بطوطة والمدن والأقاليم التى زارها ، بالاضافة إلى مقدمة ، وقائمة بالمراجع وتحتل العمل كله حوالى ثمانمائة صفحة من الحجم الصغير ، لكنها دقيقة الخط ، حتى يمكن ضغط حجمها ما أمكن .

الحضارة العربية فى الأندلس

العلامة الفرنسى ليفى بروفنسال
ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى
دار المعارف ١٩٧٩ م

يقدم الدكتور الطاهر مكى بعمله هذا خدمة جليلة لقراء العربية الذين لا يتاح لهم فرصة القراءة باللغات الأجنبية ، حين يترجم إلى لغتنا القومية ، تلك المحاضرات القيمة التى ألقـاها المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال فى كلية الآداب بالجامعة المصرية عام ١٩٣٨ م ، وقد ألقيت هذه المحاضرات باللغة الفرنسية ، وطبعت عدة مرات بهذه اللغة ثم ترجمت إلى الاسبانية ونشرت فى مدريد أكثر من مرة ، وهذه هى المرة الأولى التى تصاغ فيها بلغة الضاد ، وإن كانت المحاضرة المعنونة

« المشرق الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية » قد سبق لها أن عرفت الطريق إلى هذه اللغة ، حين نشرها فى عام ١٩٥١ م ، معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية — الاسبانية مع اختلاف بين فى النص بين الترجمتين العربيتين . لأن ترجمة معهد تطوان المذكور إنما هى ترجمة مقتضبة جداً ، مما يوحى بأن المؤلف ، ربما كان قدر عرض لنفس الموضوع فى المغرب بصورة مختصرة ، أو أن الناشرين قد عمدوا إلى اختصار النص الأصلى .

الغرب الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية :

يتناول ليفى بروفنسال فى هذه المحاضرة ، تعريف الغرب الإسلامي من الناحية الجغرافية وكيف أنه يضم المناطق الواقعة إلى الغرب من البلاد المصرية مشتملا كذلك على شبه الجزيرة العربية ، والآراء الأخرى المعارضة لهذا التصور .

ويتحدث بعد ذلك عن العناصر البشرية التى انتقلت إلى الأندلس ، والأوضاع الاجتماعية بكل عنصر منها ، ثم أهم الأحداث فى الأندلس حتى وصول عبد الرحمن الداخل ، وتأثير ذلك على الأوضاع القائمة فى الأندلس ، وكذلك وصول ادريس ابن عبد الله إلى أقصى الشمال الافريقى ، وأثر ذلك على مجريات الأمور هناك .

ويواصل المؤلف بعد ذلك حديثه عن عصر الامارة ، حتى يصل إلى قسمى عبد الرحمن الناصر بألقاب الخلافة ، واستقرار الأندلس وتطور البلاد حضاريا إلى درجة سامية ، وماذا حدث لهذه بعد موت الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر .

يركز المؤلف حديثه بعد ذلك على حركة الاسترداد وتطورها إلى أن يصل إلى الملك الفونسو السادس ، وسقوط طليطلة ، ودخول المرابطين إلى الأندلس ، وهنا يعمد إلى المقارنة بين الفترات التى كانت فيها السيادة للأندلس على الشمال الافريقى ، وبداية عهد جديد تنتقل السيادة فيه إلى الشمال الافريقى حيث يبسط نفوذه على الأندلس ، حتى يصل إلى أن يقدم موجزاً تاريخياً يتناول فيه امتداد حركة الاسترداد بعد معركة العقاب الكبرى ، وسقوط أهم القواعد الأندلسية

حتى نهاية التاريخ الاسلامى على الأرض الاسبانية بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢ أمام قوات الملكين الكاثوليكين فرناندو وايزابيل .

ينتقل ليفى بروفنسال بعد ذلك إلى الحديث عن الحياة الثقافية فى الأندلس ، وخاصة آداب الطبقة العليا هناك ، وما كان يعتمل فى الثقافة الأندلسية من حوار يرتفع أحياناً إلى درجة الصراع بين العناصر الجنسية المتباينة من عرب وبربر وعجم واسبان .

ويمضى الكاتب بعد ذلك يعدد مدنا اسبانية كثيرة أصبحت مع القرن الحادى عشر مراكزا للثقافة ، فيذكر اشبيلية ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ومرسية ، وبلنسية وغيرها .

المشرق الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية :

يتحدث الكاتب فى هذه المحاضرة عن اهتمام المشرقين بالأندلس ، وكيف أنهم أعطوا هذه البلاد اهتماما خاصا فى كتاباتهم الجغرافية والتاريخية مفصلا انتقال المؤثرات المشرقية إلى هناك ، وأماكن استقرار جند الشام الذين وصلوا إلى هناك مع بلج القشيرى .

ينتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن اهتمام عبد الرحمن الداخل ببناء الدولة وأطرها الاجتماعية على نفس النمط السورى خلال حكم الأمويين فى دمشق ، وكيف تدعم هذا الاتجاه خلال حكم الأسرة الأموية فى قرطبة .

أما عن الجانب الثقافى ، فيبين المؤثرات العباسية التي وصلت إلى الأندلس ، وتمازجها مع الثقافة العربية الإسبانية ، ومزاحمتها للنفوذ الثقافى السورى مستعرضا فترات حكم الأمراء الأمويين ، والسمات المميزة لكل فترة ، وخاصة عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واهتمامه بتجميل مدينة قرطبة ، ووصول زرياب وبداية التغير الإجتماعى فى الأندلس ، علاوة على بروز الوحدة السياسية والدينية للأندلس حين اتخذت المالكية مذهبا رسميا ، ومن ثم يصل المؤلف إلى استعراض المؤثرات الأدبية ، والنمو الأقتصادى ، وعلاقة ذلك كله بالبلاد المشرقية .

اسبانيا المسيحية والحضارة العربية الإسلامية :

يشير المؤلف فى هذا المجال إلى السيطرة الرومانية السابقة على حوض البحر المتوسط ، ثم حرمان أوروبا من هذه الميزة بظهور الإسلام ، وبداية التداخل بين الإسلام والمسيحية وخاصة على الأرض الاسبانية . ويؤكد المؤلف ، أن الأندلس ، حتى فى اللحظات التى حمل فيها السلاح ، وبلغ من القوة حدا لا يقهر ، قد أعطى بسخاء أكثر مما تلقى ، وبرهن دائماً على روحه المتسامحة فيما يتصل برعاياه المسيحيين ، وهو مالا يجرؤ أحد على إنكاره اليوم أو الشك فى صحته .

ينتقل المؤلف ، بعد ذلك ، إلى تناول أوضاع المستعربين ، وكيف أتيح لهم أن يكونوا جاليات كبرى لها كنائسها وأديرتها ولهم قضاتهم الذين يطبقون عليهم الشرائع القوطية ، واقرار أمراء الأندلس لانتخابات الرؤساء الدينيين المسيحيين ، والاستعانة بهم فى قضاء بعض المهام الكبرى . وبذلك أتيحت الفرصة لهذه الجاليات للاندماج فى الحضارة العربية لغة وملبسا وعادة . . . الخ .

ويركز المؤلف في محاضرته على التبادل الثقافى بين الحضارة العربية الاسلامية فى الأندلس وما جاورها من البلاد الأوروبية ، ومن ذلك مثلا تغلغل الرومانثية بين عرب الأندلس ، ودور العربية فى تكوين لغات شبه الجزيرة الايبيرية ، وما تركته فى هذه اللغات من مفردات ما زالت مستعملة إلى اليوم .

وتختم هذه المحاضرة ببعض المظاهر الثقافة ، والفنية ، والمهارية مؤكداً أن محاولة الدراسة المستوعبة لكم وكيفية التأثير والتأثر بين الحضارتين تعد ضربا من المغامرة غير المحسوبة .

وإلى جانب هذه المحاضرات الثلاث ، ألحق الدكتور الطاهر مكى بالكتاب فصلا من المذهب المالكى فى الأندلس ، واسهامات المذاهب الأخرى هناك .

هذا وقد أصدر الدكتور الطاهر أحمد مكى عدة كتب أخرى منها : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة . والفن العربى فى صقلية . وصدرا عن دار المعارف .

تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية

فى العصر الإسلامي

منذ انشائها حتى استيلاء المرابطين عليها

٣٤٤ — ٤٨٤ هـ / ٩٥٥ — ١٠٩١ م

تأليف الدكتور محمد أحمد أبو الفضل — تقديم الدكتور السيد عبد العزيز سالم
الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ١٩٨١ م — عدد الصفحات ٢٩٩ من الحجم المتوسط

تابع الدكتور محمد أبو الفضل بكتابه هذا . تياراً قديماً ومحدثا ، يتناول بالتأريخ مناطق معينة أو مدنا محددة ، وهو تيــار أنساب فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه ، سواء فى عصوره الوسطى أو المحدثة . وذلك أمر تفخر به الدراسات التاريخية العربية حين توجه جهودها — بالاضافة إلى الدراسات العامة — إلى استكشاف تلك الزوايا المنعزلة من تاريخنا العـام ، والتي كان لها أهميتها ودورها فى صناعة ذلك التاريخ .

وتاريخ مدينة ألمرية الإسلامى يمثل نموذجا جيدا من هذه الدراسات التى تحاول أن تبرز جهود أبناء منطقة معينة ودورهم خلال حقبة من حقب التاريخ العام للوطن الأم ، وحتى يمكن له أن يقدم للقارىء فكرة إجمالية — لأن دراسة تاريخ أية مدينة أو منطقة تحتاج إلى جهود جماعية حتى يمكن استيعابها استيعابا كاملا — فإنه قسم كتابه إلى قسمين رئيسيين .

١ — القسم السياسى ، وهو بدوره يتوزع على ثلاثة فصول يتناول فيها تأسيس المدينة على عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث فى عام ٣٤٤ هـ/٩٥٥م لتكون مرقبا للساحل الجنوبى الشرقى للأندلس، وقاعدة بحرية رئيسية للأسطول الأموى ، واختار لها موقعاً جغرافياً هاماً تطل منه على خليج يربطها بالبحر المتوسط ، وتحيط بها بعض الجبال العالية التى حمتها من الرياح ، علاوة على أن مناخها المعتدل الجاف ، قد ساعد على حركة النشاط التجارى بها ، وكثرة عمرانها .

وفى هذا الفصل أيضاً يقارن بين مدينة ألمرية ومدينة بجانة ويتعرض للسياسة البحرية للدولة الأموية فى الأندلس ، واهتمام عبد الرحمن الثـالث بتنظيم قوة

الأندلس البحرية ودور المرية فى هذا المجال ، وهو دور استحق أن يكرس له الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم كتاباً خاصاً عن «ألمرية قاعدة الأسطول الإسلامي فى الأندلس» .

وفى الفصل الثانى تنـــاول الدكتور أبو الفضل التقسيمات الادارية لمنطقة ألمرية ، وحكام المدينة ، ثم بداية قيـام هذه المدينة بدور هام فى الصراع السياسى الذى أعقب سقوط الخلافة الأموية ، وقيام ممالك الطوائف .

أما الفصل الثالث ، فلقد تناول المدينة فى ظل بنى صمادح وازدهار المدينة فى عهدهم ، وخاصة فى نهضتها العمرانية سواء فى مجال بناء القصور والمنتزهات أو فى مجال المنشآت ، الدينية ، واستكمال المرافق العامة لهذه المنشآت ، وأنه على الرغم من صغر حجم هذه المملكة على عهد المعتصم الصمادحى إلا أنها شهدت كما يقول الفتح بن خاقان غلوا فى التأنق المعمارى واسرافا فى الأبهة والترف .

بعد ذلك يتناول المؤلف الأوضاع السياسية للمدينة قبل دخول المرابطين ، معطيا صورة عن الانهيار الذى أصاب الأندلس عامـــة وازدياد أخطار حركة الاسترداد المسيحى على عهد الملك القشتالى ألفونسو السادس ، مما أدى إلى استدعاء المرابطين إلى الأندلس وقيام يوسف بن تاشفين — فى مرحلة لاحقة — بالاستيلاء على ممالك الطوائف ، وضمها إلى إمبراطورية المرابطين ، وكيف أن ألمرية حوصرت من البر والبحر ، ووفاة المعتصم أثنـاء الحصار ، وهرب ابنه معز الدولة إلى الجزائر ، ودخول المرابطين المدينة فى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م .

أما القسم الثانى من الكتاب ، فقد تناول فيه المؤلف ، المظاهر الحضارية للمدينة ، فتكلم عن تخطيطها ، وأسوارها ، وأرباضها والتغيرات التى طرأت على هذه الخطط مع تداول الأعوام والقرون ، مشيراً إلى أهم الآثار الباقية فى المدينة سواء الحربية منها أو المدنية مثل سور المدينة وأبوابها ، وأهم هذه الأبواب ، ويركز على القصور التى وجدت بالمدينة مثل قصر الصمادحية ، إلى أن يصل إلى آثارها الدينية ومسجدها الجامع .

أما عن الحياة الاقتصادية ، فإنه يتناول الزراعة والحاصلات الزراعية للاقليم ، واشتهار هذه المنطقة بالبساتين والحدائق ، ولم ينسى الاشارة إلى الفنون الصناعية ، مثل صناعة النسيج التى اشتهرت بها ألمرية اشتهاراً كبيراً ، وصناعة السفن بها أمر طبيعى فهى مقر الأسطول ، وكذلك تميز المدينة بفن النحت على الرخام .

وموقع مدينة ألمرية يساعدها على قيام نشاط تجارى هام مع مدن وموانى البحر المتوسط ، فقال عنها ابن غالب : «هى باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق» ، ويكرر ابن سعيد ذلك .

ويختم المؤلف كتابه بالحديث عن النهضة العلمية فى المدينة ، فيتناول الحركة الأدبية واللغوية ، وازدهار الشعر والنثر ، وكثرة الأدباء مما يتجلى فى ذلك الكم الهائل من القصائد التى قيلت عن بنى صمادح أو فى وصف المدينة ذاتها . وكيف أنها كانت مهبط كثير من أدباء الأندلس وملاذهم ، وخاصة فى عهد الفتن والاضطرابات ، ولم تعدم المدينة شاعرات مجيدات مثل الغسانية البجانية ، وزينب ألمرية ، وغاية المنى ، وأم الكرام الصمادحية .

وما من شك فى ازدهار العلوم الدينية فى ألمرية مثلها فى ذلك مثل باقى بلاد الأندلس عامة ، كما كانت المدينة موطناً لعدد من جغرافى الأندلس ومؤرخيه مثل العذرى الذى ولد بها سنة ٣٩٣ هـ ١٠٠٢ م ، وتوفى بالمدينة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م .

هذا ولقد زود الدكتور أبو الفضل بحثه بدراسة عن أهم المصادر التاريخية التى اعتمد عليها فى دراسته ، وخاتمة بالنتائج التى توصل إليها ، وقائمة بالمراجع والأبحاث التى يمكن الرجوع إليها .

تاريخ التعلم فى الأندلس

اعداد الدكتور محمد عبد الحميد عيسى — تقديم الدكتور عبد الغنى عبود
دار الفكر العربى — القاهرة ١٩٨٢ م — عدد الصفحات ٥٢٣ من الحجم الكبير

الكتاب هو النص العربى لرسالة الدكتوراة التى نوقشت بالإسبانية فى جامعة الأوتونوما بمدريد عام ١٩٨٠ م ، مع بعض التعديلات فى ترتيب الفصول ، وحذف بعض الملاحق التى لا تشكل إعاقة فى تتبع مجرى الموضوع ، وتخفف قليلا من أعباء تضخم عدد الصفحات .

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب وثمانية فصول ، فى الباب الأول الذى يضم الفصول الثلاثة الأولى يتناول دور الدولة فى الأندلس فى العملية التعليمية منذ بداية الفتح إلى سقوط غرناطة ، حيث يدرسها مرحلة بعد أخرى ، مختتما ببعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم وفى هذا الباب يتضح اهتمام حكام الأندلس بالنهضة الثقافية ، ومن ثم بالحركة التعليمية ، وتمثل هذا الاهتمام فى جلب المعلمين المشرقيين ، والعلماء والشعراء إلى الأندلس والاهتمام بوصول النتاج الثقافى المشرق إلى بلادهم ، هذا علاوة على تشجيعهم الحركة الأدبية ماليا وأدبيا مما دفع بالحضارة الأندلسية إلى قمة لمعانها وازدهارها .

أما الباب الثانى بفصوله من الرابع إلى السادس فيتعرض للمراحل التعليمية فى الأندلس ، ويدرس دور المنزل والمكتب والمكتبة فى تربية الطفل الأندلسى ، والاختلاف بين الأندلسيين ، وغيرهم فى أقطار العالم الإسلامى الأخرى فيما يقدم للأطفال من دراسات لغوية ودينية ، ومن ذلك يتضح قيام التربية الأندلسية فى الصغر على قاعدتين هامتين هما :

١ — أن يعرف الطفل معرفة عميقة أمور دينه .
٢ — أن يعرف الطفل لغته معرفة سليمة .

وبعد هاتين القاعدتين ، فإنه ينطلق بعد ذلك إلى التخصص الذى يرغبه ، ولهذا وجد الطبيب الفقيه والفيلسوف الشاعر والزراعى الأديب .

وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى تبيان ما يدرس الطالب الأندلسى فى مرحلة عمره المتوسطة ، والعلوم المتاحة أمامه وقد قسمت إلى مجالات ثلاثة رئيسية وهى : الدراسات الدينية والدراسات اللغوية والأدبية ، والدراسات العلمية .

وفى الفصل السادس من الكتاب يتناول أهم قضايا التعليم فى الأندلس ، وهى ظهور المدرسة ، ويدرس المدارس المحتملة والمدارس المؤكدة مركزا على مدرسة غرناطة التى أنشأها يوسف الأول أمير غرناطة وكذلك الرحلات التى كان يختتم بها النشاط التعليمى ، ثم الإجازات التى كان يحصل عليها الأندلسيون من أساتذتهم سواء من الأندلس أو من البلاد المشرقية .

والباب الثالث من الكتاب يتناول التعليم الخاص ، اهتمام الخاصة بالتعليم ، وتعليم أبناء الخاصة ، وأماكن هذا التعليم والمؤدبون ، والمنهج التعليمى .

وقدم للكتاب الأستاذ الدكتور عبد الغنى عبود أستاذ التربية المقارنة بتربية عين شمس ، والمشرف على اصدار سلسلة «مكتبة التربية الإسلامية» فى حوالى ٤٣ صفحة .

واشتمل الكتاب ، إلى جانب هذا كله على المقدمة ، وتمهيداً جغرافيا ، علاوة على ثمانية ملاحق ، ومراجع الكتاب ومصادره سواء العربية منها أو الأجنبية .